



العقرب

وقصص أخرى

(الجزء الثاني)

تأليف: بول بولز

ترجمة وتقديم: محمد هاشم عبدالسلام

مراجعة: د. سليمان خالد الرياح





الفنان: نواف فهد المعتوق
العقرب
رصاص وأكريليك على ورق
٣٧×٤٥ سم

العقرب

وقصص أخرى

(الجزء الثاني)

تأليف: بول بولز

ترجمة وتقديم: محمد هاشم عبدالسلام

مراجعة: د. سليمان خالد الرياح

الكويت ودول الخليج
الدول العربية الأخرى
خارج الوطن العربي

الاستراتيجية

دولة الكويت

للأفراد 10 دك
للمؤسسات 20 دك

دول الخليج

للأفراد
للمؤسسات

الدول العربية الأخرى

للأفراد
للمؤسسات

خارج الوطن العربي

للأفراد	50 دولارا امريكيا
للمؤسسات	100 دولار امريكى

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل
على العنوان التالي:
السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص.ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147
دولة الكويت

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٠٠٣

ردمك: ٦-٢٦١-٠-٦٠٠٩٩٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

© 2004 Blackwell Publishing Ltd

4100g equally sized polythene bags

فصل في الغرام

باسمك اللهم العاقبة العاقبة العاقبة

حيثما لا يكون

د. حسنین علی اسماعیل

أحمد بن محمد بن عبد الله بن أحمد

تشيعان جاك. الوناج

عليكم علي السليم

د. لولیس عصفیان

بموجب المرسوم رقم ١٠٠٠ لسنة ١٩٩٩

مكتبة التميز

الشيخ الشافعي

التنسيق والإخراج والتنسيق

وحدة الإنتاج

في المجلس الوطني

الثقافة والفنون والآداب

www.kuwaitculture.org

E-Mail

ziblat_alarvia@yahoo.com

• العقرب وقسم أدب
(الجزء الثاني)

العنوان الأصلي:

The Scorpion
by: Paul Bowles
Penguin Books 2000

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2009م

إبداعات عالمية - العدد 376

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1990 - 1923)

مقدمة المراجع

بول بولز كاتب متميز، غزير الإنتاج، وما هذه المجموعة - والجزء الأول منها الصادر في العدد الماضي من هذه السلسلة - سوى النزر اليسير من إنتاجه القصصي.

يكتب بولز بلغة إنجليزية بسيطة وواضحة وخالية من التعقيد، الأمر الذي يسهل من عملية الترجمة ومن مهمة المترجم. كما يكثر من المفردات والتعابير العامية المستخدمة في المواقف غير الرسمية في الحياة اليومية. وهذا بالطبع يناسب أسلوب الحوار الذي يكثر منه إذا أراد أن يعبر عن موقف معين أو صراع بين أشخاص، بدلا من اللجوء إلى أسلوب السرد. ومما لا شك فيه أن أسلوب السرد أسهل على الكاتب من أسلوب الحوار، ولكن الكاتب المتمكن من أدواته هو الذي يستخدم أسلوب الحوار لأنه يثري العنصر الدرامي ويعطي حيوية للنص. وإن كان يبدو أن بولز يلجأ إلى الرمز في أحيان قليلة، كما هي الحال في قصة «الضبع».

كما تتسم كتابات بولز باستخدام كثير من الألفاظ والتعابير العربية والإسبانية والفرنسية في قصصه، وبعضها باللهجات الدارجة، حيث إن أحداثها تقع في بلاد ومناطق مختلفة في المغرب والصحراء الكبرى وأفريقيا وأمريكا الوسطى والجنوبية، (باستثناء قصة «في الغرفة

الحمراء» التي تدور أحداثها في سريلانكا). وهذا يدل على كثرة أسفاره واحتكاكه بثقافات متعددة تنعكس في قصصه. وكمثال على ذلك نجد أن أحداث إحدى قصصه «العين» تقع في مدينة طنجة المغربية. ويبدو أن اختياره لهذه المدينة ليس عشوائيا، بل له دلالاته ومغزاه، فهي تطل على مضيق جبل طارق، وهي بذلك تمثل حلقة الوصل بين الشرق والغرب، وتشتمل القصة على حوار بين ثقافة عربية يمثلها «دكان مارش» (الكندي الجنسية) وثقافة عربية يمثلها «العربي». ومن الأمثلة الأخرى على هذا الحوار قصة «زمن الصداقة»، إذ تمثل الثقافة الغربية فيها «الآنسة ويندلينج»، بينما يمثل الثقافة العربية «سليمان» و«بوفيلجا».

أبطال قصص بولز شخصيات بسيطة ومن واقع الحياة، وبعضها يحمل أسماء عربية مثل «عالل»، وهناك قصة تحمل اسما عربيا وهو «مجنوب»، وهي بالطبع تعبر عن ثقافة عربية، مثل القصتين السابقتين الإشارة إليهما. أما الشخصيات الأخرى غير العربية مثل «رامون» في قصة «اليوم الرابع بعد مغادرة سانتا كروز» فهي تعبر عن قيم وأفكار وتقاليد غربية، وإذا التقت بشخصيات أجنبية بالنسبة إليها فمن الطبيعي أن يحدث احتكاك بين ثقافتين وحضارتين وقيم وتقاليدها متباينة.

تتناول قصص بولز تفاصيل الحياة اليومية في المدينة

أو المنطقة أو البيئة التي تقع فيها الأحداث، مع وصف دقيق وشامل لها وذكر أسماء الأماكن وما يميزها من معالم جغرافية.

وبعد... عزيزي القارئ... أرجو أن تقضي وقتاً ممتعاً في قراءة قصص بول بولز، وفي صحبة شخصياته التي تنبض بالحياة، وفي وصفه للأماكن بمعالمها المختلفة، ذلك الوصف الذي يجعلك تشعر كما لو كنت تعرف تلك الأيام، وسبق أن مررت بها أو عشت فيها.

د. سليمان خالد الرباح

أنت لست أنا

أنت لست أنا. لا أحد غيري يمكن بأي حال أن يكون كذلك. أنا أعرف هذا، وأنا أعرف أين كنت وما الذي فعلته حتى الآن بالكامل منذ يوم أمس، عندما مضيت إلى خارج البوابة في أثناء تحطم القطار. كان الجميع غاية في الاستثارة لدرجة أن أحدا لم يلحظني. أصبحت غير ذات أهمية حيث كان هناك حديث عن أشلاء الناس والسيارات المحطمة هناك فوق قضبان السكة الحديد. هرعنا جميعا نحن الفتيات إلى أسفل عندما سمعنا الضوضاء، نزلنا إلى الأرض عند جدار الحماية من الأعاصير كمجموعة من القرود. كانت السيدة ورث تعض على صليبها وتبكي بشدة. أظن أنها جرحت شفيتها. أو ربما ظنت أن واحدة من بناتها الأخريات كانت هناك في القطار. كانت حادثة سيئة بالفعل، يمكن لأي شخص أن يرى هذا. فقد تسببت أمطار الربيع في تفتيت الأرض التي كانت تجعل وصلات الربط ثابتة وراسخة، لذلك تباعدت القضبان قليلا وخرج القطار في النهاية عن الخط إلى مصرف المياه. لكن كيف صار الجميع بلا استثناء غاية في الاستثارة هكذا؟ ما زلت عاجزة عن الفهم.

دائما ما كرهت القطارات، كرهت رؤيتها تمر هناك في العمق، وكرهت رؤيتها تختفي بعيدا في أعلى الوادي صوب المدينة التالية. التفكير في كل هؤلاء الناس المنتقلين من مدينة إلى أخرى، كان يجعلني غاضبة من دون داع. من الذي قال لهم: ينبغي عليك الذهاب وشراء تذكرة لك واستقلال رحلة هذا

الصباح إلى ريدينج، ستجتازين ثلاثا وعشرين محطة، وما يزيد على أربعين جسرا، وتعبيرين ثلاثة أنفاق، وما زال عليك أن تواصل رحلتك، حتى بعد وصولك إلى ريدينج ٩ لا أحد. أنا أعرف هذا. أعرف أنه ليس هناك مسؤول يقول أشياء مثل هذه للناس. لكن تخيلي أن وجود مثل هذا الشخص فعلا يمثل سعادة بالنسبة إلي. ربما سيكون هناك فقط صوت ضخم جدا يتحدث في مكبرات صوت يطلق صياحه في جميع الشوارع الرئيسية عبر نظام للإذاعة المحلية.

عندما رأيت القطار هناك في وضع يرثى له، مشلول الحركة على أحد جنباته، مثل دودة عجوز ميتة سقطت من أحد النباتات، شرعت في الضحك، لكنني اخترقت السياج بصعوبة شديدة عندما بدأ الناس يتسلقون النوافذ وهم ينزفون.

كنت في الفناء، وكان هناك غلاف علبة ورقية من جبن (تيد بيتس) فوق المقعد. ثم كنت في البوابة الرئيسية، وكانت مشرعة. في الخارج كانت هناك عربة سوداء عند الحاجز الحجري للطريق، وكان يجلس في مقدمتها رجل يدخن. فكرت في التحدث إليه وسأله إن كان يعرف من أنا، لكنني قررت ألا أفعل. كان صباحا مشمساً ممتلئاً بالهواء المنعش والطيور، تتبعت الطريق حول التل، إلى أسفل حيث قضبان السكة الحديد. سرت فوق القضبان وأنا أشعر بالاستثارة. بدت عربة القطار الخاصة بالطعام غريبة وهي مطروحة على جانبها وزجاج نوافذها مهشم كله وبعض أقمشة الستائر مسدلة. واصل طائر أبو الحناء إطلاق صفيره من فوق الشجرة. «بالطبع»

قلت لنفسي. «يحدث هذا فقط في عالم الإنسان. إذا كان من المفترض أن يحدث شيء ما حقيقي، فسوف يتوقف الناس عن الغناء». سرت في طريق مغطى ببقايا الفحم بجوار القضبان الحديدية، وأنا أنظر إلى الناس الممددين فوق العشب. كان بعض الرجال قد بدأوا يحملونهم ناحية مقدمة القطار حيث تتقاطع الطرق البرية مع القضبان، كانت هناك امرأة في زي أبيض، حاولت الابتعاد عن المرور بالقرب منها.

قررت الهبوط إلى أسفل طريق عريض يمر خلال أحراش التوت الأسود، وفي أرض صغيرة خالية من الأشجار عثرت على موقد قديم ومجموعة كبيرة من الضمادات والمناديل القذرة في قمامة موجودة في منتصف هذه الأرض. كان كل شيء فوق كومة من الأحجار. وجدت كثيرا من الأحجار الكروية وبعض الحجارة الأخرى المتنوعة. كانت الأرض هنا ناعمة جدا ورطبة. عندما رجعت هناك إلى القطار بدا لي أن هناك مزيدا من الناس يركضون هنا وهناك، سرت بالقرب من الأشخاص الذين كانوا ممددين جنبا إلى جنب فوق الرماد، ونظرت إلى وجوههم. كان أحد هذه الوجوه لفتاة وكان فمها مفتوحا. أسقطت فيه أحد الأحجار وانصرفت. رجل بدين كان فمه مشرعا هو الآخر، أسقط فيه حجرا خشنا حادا بدا مثل قطعة فحم. خطر لي أنني ربما لن تتوافر معي أحجار لهم جميعا، وكانت الجمرات صغيرة جدا. كانت هناك امرأة عجوز تمضي جيئة وذهابا بسرعة شديدة وهي تمسح يدها في طرف ثوبها، مرارا وتكرارا. كانت ترتدي رداء طويلا من الحرير تصميمه يحتوي على مجموعة من

الأفواه الزرقاء المطبوعة في كل مكان فيه. ربما كان من المفترض أن تكون نباتات لكن شكلها كان يشبه الأفواه. نظرت إلي بجنون وحافظت أنا على ابتعادي منها. لاحظت فجأة يدا ذات خواتم في أصابعها تبرز من تحت قطع كثيرة من المعدن الملتوي. سحبت المعدن بقوة ورأيت وجهها. كانت امرأة وكان فمها مغلقا. حاولت أن أفتحه لأتمكن من وضع حجر فيه. أمسك بي رجل من كتفي وجذبني بعيدا. بدا غاضبا. «ما الذي تفعلينه؟» صرخ. «هل أنت مجنونة؟» شرعت في البكاء وقلت إنها كانت أختي. كانت بالفعل تشبهها قليلا، أخذت أنتحب وأقول: «لقد ماتت. لقد ماتت». توقف الرجل عن غضبه وسار بي نحو مقدمة القطار، ممسكا بذراعي بإحكام بإحدى يديه. حاولت أن انتزع نفسي منه، في الوقت نفسه قررت ألا أقول شيئا أكثر من «لقد ماتت» بين الحين والآخر. «حسن»، قال الرجل. عندما بلغنا آخر مقدمة القطار أجلسني فوق العشب بمحاذاة عدد كبير من الناس الآخرين. كان بعضهم يبكي، لذلك توقفت وأخذت أراقبهم.

بدا لي أن الحياة بالخارج كانت تشبه الحياة في الداخل. دائما كان هناك شخص ما لإيقاف الناس عن فعل ما يرغبون في عمله. ابتسمت عندما فكرت أن هذا كان بالضبط عكس ما شعرت به عندما كنت لا أزال في الداخل. ربما ما نرغب في فعله خطأ، لكن لماذا ينبغي أن يكونوا هم الأشخاص الذين يقررون دائما؟ أخذت أفكر في هذا بينما كنت جالسة هناك اقتلع أوراق العشب حديثة النمو من الأرض. وفكرت أنني سأقرر مرة واحدة ما يكون صحيحا، وأفعله.

لم يكن قد مر وقت طويل جدا قبل أن تصل عدة عربات إسعاف. كانت مخصصة لنا، لصف من الناس الذين كانوا يجلسون على مقعد طويل، بالإضافة إلى أشخاص كانوا يرقدون هنا وهناك على نقالات أو فوق المعاطف. لا أعرف لماذا، بما أن الناس لم يكونوا يتألمون، أو ربما كانوا كذلك، عندما يكون هناك العديد من الناس في حالة ألم معا في الوقت نفسه لا يحبون على الأرجح إصدار ضوضاء تعبيرا عن ألمهم، ربما لأنه ليس ثمة من ينصت لهم. بالطبع لم أكن في حالة ألم على الإطلاق. كنت سأخبر أي شخص بذلك لو كنت سئلت. لكن لم يسألني أحد. كان ما سألوني عنه هو عنواني، وأعطيت أنا عنوان أختي لأنه كان فقط على مسافة نصف ساعة بالسيارة. بالإضافة إلى أنني مكثت معها لفترة ما قبل أن أرحل، لكن هذا كان منذ سنوات، على ما أعتقد. تم نقلنا جميعا معا، البعض ممدد داخل عربة الإسعاف، وبقينا جالسين على مقعد طويل غير مريح في عربة غير مزودة بسرير. لا بد أن المرأة التي كانت جالسة إلى جوارى أجنبية، فقد كانت تتن وتبكي كالرضيع، ولم تكن بها قطرة دم تمكيني من رؤيتها، في أي مكان. نظرت إليها طويلا من الجنب في عناية شديدة، لكنها بدت مستاءة من هذا، وأدارت وجهها إلى الجانب الآخر، وهي لاتزال تتن وتتنحب.

عندما وصلنا إلى المستشفى تم اصطحابنا جميعا وإجراء الفحص علينا. في ما يتعلق بي قالوا فقط: «صدمة»، وسألوني مرة ثانية عن مكان إقامتي. أعطيتهم العنوان السابق نفسه،

وسرعان ما أخذوني إلى الخارج مرة ثانية ووضعوني في المقعد الأمامي لإحدى السيارات من طراز «ستيشن»، بين السائق ورجل آخر، مرافقه، على ما أظن. تحدث كلاهما إلي بشأن الطقس، لكنني كنت على دراية كافية بألا أدع نفسي تقع في الشرك بهذه السهولة. فأنا أعرف كيف أن أبسط الموضوعات يمكن أن يلتف حولك ويخنقك بينما تظن أنك في أمان تام. «لقد ماتت»، قلت لمرة واحدة، عندما كنا في منتصف الطريق بين المدينتين. «ربما لا، ربما لا»، قال السائق، كما لو كان يتحدث إلى طفلة. أبقيت رأسي منكسا معظم الوقت، لكنني نجحت في إحصاء محطات البنزين بينما كنا نتقدم في طريقنا.

عندما وصلنا إلى بيت أختي نزل السائق ودق الجرس، كنت قد نسيت أن الشارع كان قبيحا جدا، وأن البيوت قد بنيت الواحد قبالة الآخر، بطريقة مشابهة، ويفصل بينها فقط ممر أسمنتى ضيق. وكان كل بيت منخفضا عدة أقدام عن الآخر، حتى بدا الصف الطويل منها مثل مجموعة سلالم ضخمة. كان من الواضح أنه قد سمح للأولاد باللعب على هواهم في الساحات الأمامية كلها، ولم يكن هناك عشب في أي مكان على مرمى البصر، طين فقط.

جاءت أختي إلى الباب. تحدث السائق معها بكلمات قليلة، ثم رأيتها تبدو شديدة القلق على نحو مفاجئ جدا. تقدمت هي إلى السيارة ومالت عليها. كانت ترتدي نظارة جديدة، أكثر سمكا من السابقة. لم يظهر أنها كانت تنتظر إلي. بدلا من ذلك قالت للسائق: «هل أنت واثق من أنها على ما يرام؟».

«بكل تأكيد»، أجاب: «لم أكن لأخبرك لو لم تكن كذلك. لقد خضعت توا في المستشفى لفحص كلي. إنها مجرد صدمة. الراحة الجيدة ستجعلها بخير». نزل المرافق ليساعدني على النزول والسير على الرغم من أنني كان بإمكانني السير بمفردي بسهولة. رأيت أختي تنظر إلي بجانب عينها بالطريقة نفسها التي أعادتها. عندما بلغت الرواق سمعتها تهمس للمرافق: «إنها لا تبدو لي بعد على ما يرام». ربت هو على ذراعها وقال: «ستكون بخير، فقط لا تدعيها تستثار».

«هذا هو ما يقولونه دائماً»، احتجت أختي، «لكنها مستثارة تماماً».

دخل المرافق إلى السيارة، «إنها لم تصب على أي حال يا سيدتي» وصفق الباب.

«لم تصب!» صرخت أختي، وهي تراقب السيارة، التي انطلقت وهي لاتزال واقفة تتابعها بنظرها حتى بلغت أعلى التل وانعطفت. كنت لأزال انظر إلى أرضية الرواق لأنني لم أكن متأكدة بعد مما كان سيحدث. دائماً ما كنت أشعر بأن شيئاً ما كان على وشك الوقوع، وعندما كان يملكني هذا الشعور، أبقى ساكنة تماماً، وأترك ما سيحدث لكي يحدث. ليست هناك جدوى من التساؤل بشأنه أو محاولة إيقافه، في هذا الوقت لم يكن لدي شعور بأن حدثاً معيناً كان على وشك الوقوع، لكنني شعرت بأنني سأكون أكثر ملاءمة لفعل الشيء الصواب إذا تريثت وتركت أختي تتصرف أولاً. كانت واقفة حيث كانت، بمريلتها، تقلم أطراف أغصان بعض نبات

الصفصاف الأمريكي، التي برزت خارج أجمة بجانبها. كانت لاتزال ممتعة عن النظر إلي. وأخيرا قالت في سخط: «بإمكانك الذهاب إلى الداخل. إن الجو بارد هنا». ففتحت الباب ومضيت إلى الداخل.

تبينت على الفور أنها غيرت وجددت كل شيء، لكن بطريقة عكسية. فقد كانت هناك دائما صالة وحجرة معيشة، باستثناء أن الصالة كان من المعتاد أن تكون على الجانب الأيسر لحجرة المعيشة والآن أصبحت على اليمين. جعلني هذا أتساءل: لماذا لم ألاحظ أن الباب الأمامي صار الآن في نهاية الرواق على اليمين. لقد نقلت حتى السلالم والمدفأة إلى مكانين آخرين. كان الأثاث هو عينه، لكن كل قطعة تم وضعها في مكان مغاير تماما لما كانت فيه في السابق. قررت ألا أنطق بشيء وأن أدعها تدلي بتفسيرها إذا شعرت هي بالحاجة إلى ذلك. خطر لي أنها لابد وقد تكلفت كل سنت احتفظت به في البنك، ولا يزال البيت يبدو بالضبط مثلما كان عليه في البداية عندما بدأت هي في تجديده. أبقيت فمي مغلقا، لكنني لم أقو على عدم التطلع هنا وهناك بقدر كبير من الفضول لأرى إن كانت قد أجرت الانقلاب على كل التفاصيل من دون استثناء.

ذهبت إلى حجرة المعيشة، كانت الكراسي الثلاثة الكبيرة لاتزال موضوعة حول المائدة الموجودة في وسط الحجرة ومغطاة بملاءات قديمة، ومصباح الأرضية عند البيانو الآلي كان له الغطاء السيلوفاني الممزق نفسه فوق حاجب الضوء الذي في أعلاه. بدأت أضحك، فقد بدا لي كل شيء كوميديا جدا عندما

استرجعته. رأيته ممسكة بطرف الستارة في قوة وهي تنظر إلى مليا. واصلت أنا الضحك.

كان الراديو المجاور للباب يذيع معزوفات للأورغن. فجأة قالت أختي: «اجلسي، يا إيثيل. لدي شيء يجب أن أفعله، سوف أعود». دخلت إلى المطبخ عبر الصالة وسمعت صوت الباب الخلفي يفتح.

كنت أعرف بالفعل إلى أين سوف تذهب. كانت خائفة مني، وأرادت من السيدة جيلينك أن تحضر. أنا موقنة تماما، أنهما ستحضران في غضون دقيقة، وأن أختي تمضي الآن مباشرة نحو حجرة المعيشة هذه المرة. وقد بدت الآن غاضبة، لكنها لم يكن لديها ما تقوله. السيدة جيلينك قدرة وبدينة. صافحتني وقالت: «حسنا، حسنا، فترة طويلة». قررت ألا أتحدث إليها هي الأخرى لأنني لا أثق بها، لذلك تحولت عنها ورفعت غطاء البيانو الآلي. وحاولت أن أضغط بعض المفاتيح، لكن المزلاج كان مشدودا، وكانت المفاتيح كلها ثابتة ولم تتحرك. أغلقت الغطاء ومضيت لأتطلع عبر النافذة. كانت هناك فتاة صغيرة تدفع عربة دميته على امتداد الرصيف أسفل التل، ظلت الفتاة تداوم على النظر إلى الوراء إلى الآثار التي صنعتها العجلات عندما تركت جزءا مبتلا من الرصيف ومضت إلى بقعة جافة. كنت قد عقدت العزم على ألا أدع للسيدة جيلينك فرصة ثانية لتخدعني، لذلك ظللت صامتة. جلست على الكرسي الهزاز عند النافذة وبدأت أدندن.

قبل انقضاء فترة طويلة شرعنا في التحدث إحداهما إلى الأخرى بأصوات خفيفة، لكنني سمعت بالطبع كل ما قالتاه.

قالت السيدة جيلينك: «اعتقدت أنهم كانوا يعملون على العناية بها». قالت أختي: «أنا لا أعرف. لذلك أنا أفعل هذا لكن الرجل ظل يردد لي أنها كانت على ما يرام. هه! إنها بالضبط على ما هي عليه». «لماذا أنت متأكدة؟»، قالت السيدة جيلينك. وصمتتا للحظة.

«حسنًا أنا لن أصبر على هذا!» قالت أختي، فجأة، ثم أضافت، «سأخبر الدكتور دُن برأيي فيه».

«اتصلي بمقر الدار»، حثتها السيدة جيلينك.

«سأفعل بكل تأكيد»، أجابت أختي: «أبق أنت هنا. سأذهب لأرى إن كانت كيت موجودة في بيتها». كانت تقصد السيدة شولتز، التي كانت تقطن في الجانب المقابل ويوجد لديها هاتف. لم أنظر حتى إلى أعلى عندما خرجت هي. لقد اتخذت قرارا كبيرا، وكان أن أبقى في البيت وألا أدع نفسي - تحت أي ظرف من الظروف - أؤخذ إلى هناك. كنت أعرف أن الأمر ربما سيكون صعبا، لكن كانت لدي خطة ستتجح إذا استخدمت كل قوة إرادتي. إن لدي إرادة قوية.

كان أول شيء مهم أفعله هو أن أبقى هادئة، وألا أتفوه بكلمة ممكن أن تفسد السحر الذي كنت قد بدأت. كنت أعرف أنها ستصبح معركة بيني وبين أختي، لكنني كنت واثقة من أن قوة شخصيتي وتعليمي العالي قد أهلاني لمثل هذه المعركة بالضبط، وإنه بمقدوري الفوز بها. كل ما كان علي أن أعمله هو أن أواصل الإصرار في داخل نفسي، وسوف تحدث الأمور بالطريقة التي أردت أن تحدث بها. قلت هذا لنفسني بينما كنت أتأرجح على

الكرسي. كانت السيدة جيلينك واقفة عند مدخل الصالة منحنية، تقريبا تطل إلى الخارج من الباب الأمامي. بدت الحياة الآن أكثر وضوحا وأكثر معنى عما كانت عليه لفترة طويلة، طويلة جدا. سأحقق ما أردته بهذه الطريقة «لا يمكن لأحد أن يوقفك»، قلت لنفسي.

مضى ربع ساعة قبل أن تعود أختي. عندما دخلت، كان معها كل من السيدة شولتز وشقيقها، وكان الرعب باديا عليها. عرفت بالضبط ما الذي حدث قبل أن تخبر أختي السيدة جيلينك. اتصلت بالدار واشتكت للدكتور دُن من إطلاق سراجي، وبدوره كان مستثارا جدا، وأخبرها بأن تعمل على إبقاءي بكل الوسائل لأنني لم يطلق سراجي على الإطلاق، وأنني تمكنت من الخروج بطريقة ما. كنت مصدومة بعض الشيء لسماع هذا يقال بهذه الطريقة، لكن كان علي الآن، وهذا هو ما فكرت فيه، أن أعترف لنفسي بأن هذا بالضبط هو ما حدث.

نهضت عندما حضر أخو السيدة شولتز، وحملت فيه بقوة. «هوني عليك، الآن، يا آنسة إيثيل»، قال، وبدأ صوته متوترا. انحنيت له: على الأقل فقد كان مهذبا. «عجبا يا ستيف»، قالت السيدة جيلينك.

راقبت كل حركة صدرت عنهم. سأتمنى الموت على أن أفقد مفعول السحر. شعرت بأنه في إمكاني معالجة الأمر، لكن بمجهود عظيم. كان شقيق السيدة شولتز يحك جانب أنفه، ويده الأخرى كانت ترتعش في جيب بنطلونه. عرفت أنه لن يسبب لي أي متاعب. السيدة شولتز والسيدة جيلينك لن تذهبا إلى أي

حد يزيد عما تخبرهما به أختي. وهي نفسها كانت خائفة مني لأنها - على الرغم من أنني لم ألحق بها أبدا أي ضرر - كانت على اقتناع دائم بأنني سأفعل ذلك يوما ما. ربما كان هذا لأنها عرفت ما كنت بصدد أن أفعله بها، لكنني أشك في هذا، وإلا لفرت هي من المنزل.

«متى سيأتون؟» سألت السيدة جيلينك.

«سيأخذونها عما قليل»، قالت السيدة شولتز.

إنهم جميعا واقفون عند المدخل.

«رأيتهم وهم يقومون بإنقاذ ضحايا الفيضان، هل تذكرون ما أذيع الليلة الماضية في الراديو؟»، قال أخو السيدة شولتز. ثم أشعل سيجارة واستند بظهره إلى أعمدة الدرازين.

كان البيت قبيحا جدا، لكن كانت لدي أفكار لجعله يبدو أفضل. أنا لدي ذوق ممتاز في الديكور. حاولت ألا أفكر في هذه الأشياء، وقلت مرارا وتكرارا في عقلي: «اجعلي الأمر ينجح».

أخيرا جلست السيدة جيلينك على الأريكة عند الباب وجذبت تنورتها على ساقها وسعلت. لاتزال الحمرة تبدو على وجهها والجدية أيضا. كدت أضحك بصوت عال عندما فكرت في ما ينتظرون رؤيته، فعلا لأعرف إن كانوا على دراية به.

سمعت بالخارج صوت باب سيارة يغلق بعنف. في الممر حضر رجلان من الدار. كان هناك شخص آخر يجلس إلى عجلة القيادة، منتظرا. ذهبت أختي سريعا إلى الباب الأمامي وفتحته. قال أحد الرجلين: «أين هي؟» دخل كلاهما ووقفوا ينظران إليّ برهة وابتسما ابتسامة عريضة.

«حسنا، مرحبا!» قال أحدهما. التفت أحدهما وقال لأختي: «هل توجد مشكلة؟» ضربت أختي رأسها بيدها: «إنه لمن الغريب أنكم لا تستطيعون أن تكونوا أكثر اهتماما»، قالت بغضب: «إنهم يمشون بالطريقة نفسها، كيف تعرفان ما الذي سيفعلونه؟».

تمتم الرجل ثم اقترب مني وقال: «هل ترغبين في القدوم معنا؟ أعرف شخصا ما بانتظار رؤيتك».

نهضت وسرت ببطء عبر الحجرة، وأنا أنظر إلى الستارة في أثناء سيرى، بصحبة الرجلين عن يميني ويساري، عندما وصلت إلى المدخل بالقرب من أختي أخرجت يدي من جيب معطفي ونظرت فيها، كان في يدي أحد الأحجار التي جمعتها. كانت المهمة سهلة جدا. قبل أن يتمكن أحدهما من إيقافى مددت يدي وحشرت الحجر في فمها، صرخت هي بالضبط قبل أن ألمسها، وبعد ذلك نزفت شفاتها مباشرة، لكن الأمر برمته استغرق وقتا طويلا. كانوا جميعا واقفين بثبات في أماكنهم. بعد ذلك، أمسك الرجلان بي من ذراعي بإحكام شديد، وكنت أنظر إلى ما حولي، إلى الحوائط. شعرت بأن أسناني الأمامية قد تحطمت. وكان بإمكانى تذوق الدم في شفتي، وأحسست بأنني كنت على وشك الإصابة بالإغماء. أردت أن أضع يدي على فمي، لكنهما أمسكا بذراعي «هذه هي نقطة التحول»، فكرت.

أطبقت جفني بإحكام. عندما فتحتهما كان كل شيء مختلفا، وعرفت أنني ربحت، لم أتمكن من الرؤية بوضوح للحظة، لكن حتى في أثناء تلك اللحظة رأيت نفسي أجلس فوق الأريكة

ويدي أمام فمي. عندما اتضحت لي الرؤية، رأيت الرجلين
يمسكان بذراعي أختي، وأنها كانت تكافح كفاحا مريرا. دفنت
وجهي بين يدي ولم أرفعه ثانية، بينما كانا يخرجانها من الباب
الأمامي، حدث أن اصطدموا بحامل المظلات وحطموه، جرح
الحامل المحطم كاحلها، وركلت هي قطعاً من البورسلين إلى
داخل الصالة، كنت مسرورة جداً، سحبوها عبر الممر إلى
السيارة، وجلس كل رجل منهما إلى جوارها في الخلفية. كانت
تصرخ وأسنانها تبرز، لكن بينما غادروا حدود المدينة توقفت
هي وبدأت تبكي، ومع ذلك كانت تحصي محطات الخدمة على
طول طريق عودتها إلى الدار، ووجدت أنها كانت أكثر مما ظنت.
عندما وصلوا إلى تقاطع الطرق مع القضبان بالقرب من مكان
وقوع حادثة القطار، أطلت من النافذة، لكن العرية كانت فوق
القضبان قبل أن تدرك أنها كانت تنظر من الجانب الخطأ.

اجتازت البوابة، وهي منهارة بالفعل. احتفظوا بالآيس كريم
الذي وعدوها به للعشاء، لكنها لم تكن تصدقهم، وبينما كانت
تمضي عبر الباب الرئيسي بين الرجلين توقفت في العتبة،
وأخرجت أحد الأحجار من جيب معطفها ووضعت في فمها.
حاولت أن تبتلعه، لكنه انحشر في حلقها، فأسرعا بها عبر
إحدى الصالات إلى حجرة استقبال صغيرة وجعلها تتخلص
منه. كان الشيء الغريب، الذي أفكر فيه الآن، أن أحداً لم يدرك
أنها لم تكن أنا.

وضعوها في السرير، وبحلول الصباح لم تعد تشعر برغبة في
البكاء، إذ كانت متعبة جداً.

الوقت بين العصر والمغرب والسماء تمطر بغزارة. كانت هي جالسة في سريرها (السريّر نفسه الذي اعتدت أنا استخدامه) في الدار، تدون كل هذا في الورق. لم تكن لتفكر أبداً في عمل هذا حتى الأمس، لكنها الآن تظن أنها أصبحت أنا، لذلك راحت تعمل كل شيء اعتدت أنا القيام به.

البيت هادئ جداً. مازلت أنا في حجرة المعيشة، جالسة على الأريكة. في إمكاني المضي إلى الطابق العلوي وإلقاء نظرة على غرفتها إذا أحببت. لكن مرت فترة طويلة منذ أن كنت أصعد إلى أعلى، ولم أعد أعرف كيف تم ترتيب الغرف، لذلك فأنا أفضل البقاء هنا في الطابق الأرضي إذا نظرت إلى أعلى يمكنني أن أرى نافذة مربعة من الزجاج الملون أرجواني وبرتقالي فوق السلالم، على هيئة ساعة رملية، ومع ذلك لم يكن الضوء منتشراً هنا بشكل كبير جداً لأن المنزل المجاور ملاصق جداً، بالإضافة إلى أن المطر كان يهطل بقوة هنا أيضاً.

اليوم الرابع بعد مغادرة سانتا كروز(*)

وقع رامون عقد العمل في كادث(*) (*). كانت السفينة ستزور سانتا كروز دي تتريف، أول الموانئ في رحلتها، بعد يوم ونصف اليوم في البحر. في الليل دخلت السفينة الميناء، قبل الظلام بقليل. أضواء الكشافات الموجودة في كل مكان في الميناء الجبال العالية المنحدرة وجعلتها خضراء بلون العشب في مقابل السماء الداكنة. وقف رامون عند الدرابزين يشاهد المنظر «لا بد أنها أمطرت هنا»، قال لأحد أفراد الطاقم كان يقف بجانبه. زمجر الرجل، لم يكن ينظر إلى المنحدرات الخضراء التي تلمع بصورة غير طبيعية في الوهج الكهربائي، بل ينظر إلى أضواء البلدة في الأمام، «خضراء جدا»، وقال رامون وهو أقل تأكدا، لم يعبر الرجل حتى عن ضيقه وهو يرد.

بمجرد أن رست السفينة، جاءت أعداد كبيرة من الهندوس أصحاب المحلات، حاملين أشرطة مطرزة وسلعا مشغولة للركاب الذين ربما لن ينزلوا إلى الشاطئ. بقي الهندوس على سطح السفينة الخاص بركاب الدرجة الأولى، غير مباليين بالنزول إلى الدرجة الثالثة حيث كان رامون الصبي المختص في حجرة غسيل الأطباق في مطعم ركاب السفينة. لم يسبب له العمل إزعاجا حتى الآن، كان قد تحمل المزيد من الأعمال الشاقة في كادث. كان هناك طعام كاف، وعلى الرغم من أنه لم يكن جيدا، فقد كان

(*) ميناء في شمال شرق جزيرة تتريف في جزر الكناري الغربية.

(*) (*) ميناء جنوب غرب إسبانيا على خليج في المحيط الأطلنطي، وتطلق قادس بالعربية.

أفضل مما كان يقدم لركاب الدرجة الثالثة. لم يخطر لرامون من قبل أبدا أنه كان يريد الخصوصية في إقامته، حتى أنه لم يكن مباليا بضرورة تقاسم كابينة مع عشرة أو نحو ذلك من الملاحين. ومع ذلك، كان غير سعيد إلى حد كبير منذ رحيله عن كادث. باستثناء الأوامر التي كانوا يصدرونها إليه في المطبخ، فقد كان سلوك البحارة معه كما لو أنه لم يكن موجودا. كانوا يغطون سريره بملابسهم المتسخة، ويتمددون عليه، ويدخنون، في الليل عندما كان يرغب في النوم. فشلوا في إشراكه في أي محادثة، وحتى الآن لم يأت أحد بأي تلميح، من أي نوع انتقاصا أو استهجانا، بشأن وجوده بالنسبة إليهم بدا ببساطة على أنه غير موجود وحتى بالنسبة إلى أقل الناس اهتماما بذواتهم، كانت مسائل مثل هذه ستصبح غير محتملة. عندما كان في السادسة عشرة لم يكن رامون في موقف مشابه، كان يُعامل بخشونة وفضاظة لكن ليس بتجاهل تام.

كان معظم أفراد الطاقم واقفين في مقدمة السفينة وهم يدخنون، وكانوا يشيرون إلى الباربات الواحد إلى جوار الآخر، بينما كانوا يمسخون الضفة بأعينهم. العناد الذي كان نوعا ما وليد شكواه وتعرضه للظلم، ولأنه كان يرغب في أن يكون مع نفسه ولو بشكل جزئي خلال إحدى الورديات. مشى رامون إلى مؤخرة السفينة ومال بشدة على الدرابزين، وراح ينظر إلى أسفل في الظلام. كان في إمكانه سماع صوت بوق سيارة يتم إطلاقه بشكل مستمر بينما كانت السيارة تسير على امتداد الضفة، وكانت التلال الخلفية تردد الصوت بشكل متقطع، مضخمة

إياه بينما كانت ترسله عبر المياه، ومن الجانب الآخر كان يسمع الهدير الخافت لموجات البحر قبالة حاجز الأمواج. كان يشعر بالحنين إلى الوطن بعض الشيء، ولأنه واقف هناك فقد أصبح غاضبا أيضا. كان من غير المقبول استمرار هذا الوضع، كانت فترة يوم ونصف اليوم فترة طويلة جدا، وكان قد عقد العزم على أن ينتهز الفرصة على الفور عندما تسنح له، ولأن عقله الصغير غير منضبط فقد أخذ يكرر الصورة المشوشة لعملية قتال وصراع على نطاق واسع مع الطاقم بأكمله، والذي أنهاه بالخروج منه كمنتصر وحيد.

إنه لمن المبهج أن تسير بجوار حاجز المياه ليلا في ميناء غريب، مصحوبا برياح الخريف تدفعك برقة في ظهرك، لم يكن رامون متعجلا، فراح يتوقف أمام كل مقهى، ويستمع إلى أصوات الجيتار والصياح من دون أن يسمح لنفسه، من ناحية ثانية أن يستدرج أو يعترض سبيله من جانب النسوة اللائي نادينه من مداخلهن المظلمة، كان عليه أن ينظف مطبخ السفينة بعد الانتهاء من تقديم وجبة إضافية إلى ستين عاملا قدموا مباشرة إلى هنا على متن السفينة في سانتا كروز، كانوا متجهين إلى أمريكا الجنوبية، لذا كان عليه أن يكون آخر من ينزل من السفينة، ولذلك راح يبحث عن رفاقه البحارة فعثر على كثير منهم في مقهى «ديل تايد» جالسين إلى منضدة يتناولون بعض المشروبات، رأوه قادمًا، لكن لم تند عنهم إشارة تدل على تعرفهم عليه أو اهتمامهم به، لم تكن هناك على منضدتهم مقاعد خاوية، مشى نحو المنضدة، وتباطأ قليلا بينما كان يقترب منها، ثم واصل سيره تجاه نهاية المقهى.

نادى عليه الرجل الموجود خلف البار: «هل تبحث عن شيء ما؟»، استدار رامون وجلس فجأة إلى منضدة صغيرة. وجاء الجرسون وقام بخدمته، لكنه لم يكن باستطاعته أن يميز ما كان يحتمسه، فقد كان يراقب المنضدة الجالس إليها الرجال الستة من بحارة سفينته، مثل شخص متيم. ترك رامون عينيه تتابعان كل إشارة أو إيماءة، وكان منصتا إلى كلماتهم التي كانت تقطعها ضحكات عالية بين الفينة والأخرى. بدأ الامتعاض يتفاقم بداخله، شعر بأنه لو ظل جالسا أكثر من ذلك فسوف ينفجر. دفع كرسيه إلى الخلف وقفز إلى أعلى ثم هرول بشكل درامي مثير إلى خارج الشارع. لم يلحظ أحد خروجه.

بدأ يمشي بسرعة في شوارع البلدة، لم يلق بالا إلى أين كان يمضي. عيناه كانتا مثبتتين على الأفق الوهمي، مضى عبر السوق بطول طريق دي روندا العريض، وفي الشوارع الصغيرة التي تؤدي إلى خلف الكاتدرائية. ازداد عدد الناس في الشوارع بينما كان يمشي بعيدا عن وسط البلدة، حتى وصل إلى ما بدا له أنه منطقة نائية، حيث كانت الدكاكين عبارة عن مجرد أكشاك، وكان مجبرا على المشي بتؤدة مع الحشد. عندما أبطأ من مشيته، شعر بتوتر أقل. وبالتدريج بدأ يهتم بالبضائع المعروضة للبيع وبالناس الموجودين من حوله. خطر له فجأة أنه سيرغب في شراء منديل كبير. خارج أكشاك معينة كانت هناك سلاسل من خيوط مربوطة تدلت منها ممسوكة من أركانها، أعداد كبيرة من الأقمشة المربعة، كانت ألوانها تزهو في توهج المصابيح الكرييدية. عندما توقف رامون ليختار واحدا منها،

عند أقرب كشك، أدرك أنه في هذا الكشك القريب فتاة ذات وجه ضاحك كانت تشتري بدورها بندانة (منديلا كبيرا). انتظر حتى اختارت المنديل الذي أرادته، ثم خطا بسرعة إلى صاحب المحل وأشار إلى اللفة التي كان يهيئها، قال: «هل لديك منديل آخر مثل هذا بالضبط؟» لم تمره الفتاة انتباها ووضعت الباقي في محفظتها. «نعم»، قال صاحب المحل، ومد يده إلى الكاونتر لتفحص المنديل. التقطت الفتاة ربطتها الصغيرة الملفوفة في ورقة الجريدة، وانصرفت، ومشيت بطول الشارع، «لا، لا يوجد عندك!» صرخ رامون إلى البائع، وأسرع خلفها كي لا يفقد أثرها في وسط الحشد. ظل يتتبعها لمسافة ما على امتداد الطريق العام، حتى انعطفت إلى شارع جانبي أفضى إلى أعلى التل. كانت تفوح هنا رائحة مياه مجاري الصرف الصحي، وكان على ارتفاع عال قليلا. سرّع رامون من خطواته خوفا من أن تدخل الفتاة إلى أحد المباني قبل أن تتاح له فرصة التحدث إليها. في مكان ما من عقله الباطن كان يتمنى إقناعها بالذهاب معه إلى مقهى «ديل تايد». عندما لحق بها، تحدث بسرعة من دون أن يتدبر ما كان ينطق به: «يا آنسة». ولأنه فاجأها فقد توقفت عن السير وظلت ثابتة فوق أرضية الشارع المبلطة. وعلى الرغم من أنها كانت قريبة جدا منه، فإنه لم يستطع رؤية وجهها بشكل واضح.

- «ماذا تريد؟».

- «أريد التحدث معك».

- «لماذا؟».

لم يستطع الإجابة.

- «أظن... (تلعثم).

- «ماذا؟!».

كان هناك صمت، ثم عندما ضحكت تذكر رامون وجهها: طلق ومرح، لكنه ليس وجهها طفوليا. رغم الثقة التي بعثت فيه بسبب تذكره شكل وجهها، فإنه سألها: «لماذا تضحكين؟». «لأنني أعتقد أنك مجنون».

لمس ذراعها وقال في جسارة: «سترين إن كنت مجنونا». «لن أرى شيئا. أنت بحار. وأنا أعيش هنا»، أشارت إلى الجانب المقابل من الشارع. «إذا رأك والدي، فسيتعين عليك قطع الطريق بأكمله ركضا إلى سفينتك». ثم ضحكت مرة ثانية. كانت ضحكتها بالنسبة إلى رامون موسيقية، لكنها باهتة بشكل مزعج. «أنا لا أريد أن أضايقك. أردت فقط التحدث إليك»، قال، بجبن مرة ثانية.

«حسنا. لقد تحدثت الآن. مع السلامة»، بدأت سيرها. كذلك فعل رامون، مقتربا خلفها. لم تتحدث. بعد دقيقة، قال ملاحظا بابتهاج: «قلت إنك تعيشين هناك في الخلف!». «كانت كذبة»، قالت بصوت فاتر. مضيفة: «أنا أكذب دائما». «آه. أنت تكذابين دائما»، كرر رامون بجدية بالغة.

وصلا إلى شارع مضيء عند نهاية سلم عال. أصبح الرصيف سلسلة من الدرجات الحجرية ترتقي بشكل مائل إلى أعلى المنازل. بينما كانا يصعدان ببطء، تبدل الهواء. كانت تنتشر فيه

رائحة طعام يطهى، وأوراق أوكالبتوس تحترق. هنا فوق مستوى البلدة، كانت الحياة أكثر رحابة. أناس يطلون من الشرفات، أو جالسون في مداخلهم المظلمة يتحادثون، أو واقفون في شوارع مثل الجزر بين كلاب تسعى وأطفال يتحركون.

توقفت الفتاة واستندت إلى جانب أحد البيوت. كانت مقطوعة النفس قليلا من التسلق.

«هل أنت متعبة؟» سأل.

بدلا من أن ترد استدارت بسرعة وانطلقت إلى داخل مدخل بجانبها. لثوان قليلة كان رامون مترددا هل يتبعها أم لا؟ بمرور الوقت تسلل إلى الممر الخافت الإضاءة الذي اختفت فيه. سار خلاله إلى داخل الفناء. بعض الأولاد ذوي الملابس الرثة الذين كانوا يجرون هنا وهناك توقفوا فجأة وهدقوا فيه. كان هناك راديو في أعلى تصدر عنه موسيقى جيتار. نظر رامون إلى أعلى. كان المبنى بارتفاع أربعة طوابق، وكانت هناك أنوار في كل نافذة تقريبا.

في طريق عودته ثانية إلى الضفة ظهرت له امرأة من ظلال المنتزه الصغير المجاور للكاتدرائية وأمسكت بذراعه. نظر إليها، كانت تتظاهر بالخلج بشكل وقح، برأسها المائل بزاوية مجنونة بينما كانت تكرر، «أنا أحب البحارة». تركها تمشي معه إلى مقهى دل تايد، بمجرد دخوله، أصابه إحباط لتبينه أن رفاقه البحارة كانوا قد ذهبوا. ابتاع للسيدة قدح مانزانيا(*) وتركها بينما كانت قد بدأت في احتسائه. لم ينبس ببنت شفة. في الخارج، بدا

(*) شراب إسباني لاذع.

الليل فجأة شديد الدفء. وصل إلى ملهى «الأبيض والأسود»، حيث كانت فرقة تعزف بالداخل. كان اثنان أو ثلاثة من رجال الباخرة في ساحة الرقص المظلمة، يحاولون بعث قليل من الحياة في الفتيات المتعبات اللائي تعلقن بهم. لم يتناول هناك حتى المشروب، لكنه أسرع عائداً إلى السفينة. كان سريره مكسداً بالجرائد واللفائف، لكن الكابينة كانت خاوية، وكان في متناوله قضاء عدة ساعات من الليل في هدوء وسكينة. وأن ينعس، قبل وصول الآخرين. أبحرت السفينة عند الفجر.

كانوا بمحاذاة الجزيرة في اليوم التالي، لم يكونوا قريبين بشكل يكفي لرؤية الشاطئ، لكن كانوا في داخل المنظر الرائع للجبل المخروطي، الذي كان هناك إلى جانبهم طوال اليوم في الأفق، واضحا على مرمى البصر. واصلت السفينة التقدم في طريقها لمدة يومين تجاه الجنوب الغربي. أصبح البحر هادئاً، وزرقته أكثر دكنة، وكانت الشمس تتوهج بشدة ولمعان في السماء. توقف الطاقم عن التجمع فوق سطح مؤخرة السفينة، باستثناء وقت مبكر من المساء وفي الليل، عندما يتمددون جميعاً في استرخاء فوق هذا السطح، وهم يغنون في أصوات خشنة بينما النجوم تترنح وتتمايل جيئةً وذهاباً فوق رؤوسهم.

سارت الحياة بالنسبة إلى رامون على المنوال نفسه. لم يكن يرى أي اختلاف في موقف الطاقم نحوه. لا يزال يبدو له أنهم كانوا يعيشون من دونه. المجالات التي تم شراؤها من سانتا كروز لم تكن متاحة أبداً في أرجاء الكابينة. في فترات العصر عندما يجلس الرجال حول المنضدة في غرفة طعام الدرجة الثالثة،

لم تكن القصص التي تُروى بالإمكان تفسيرها أو ترجمتها من خلال أي إشارة في روايتهم تدل على أنها موجهة إلى مجموعة هو من ضمنها. وهو بالتأكيد كان يعرف بشكل أفضل أن عليه ألا يحاول حكي أي شيء بنفسه. كان بانتظار ضربة الحظ التي قد تفرضه بالقوة على وعيهم.

في منتصف صباح اليوم الرابع لمغادرة ميناء سانتا كروز رفع رامون رأسه من مطبخ السفينة فلاحظ العديد من رجال كابينته متجمعين على امتداد الدرابزين في مقدمة السفينة. كانت الشمس ساطعة تماما وساخنة، فعرف أن الذي أبقاهم هناك لابد أنه شيء ضروري. رأى أحد الرجال يشير نحو مؤخرة السفينة. ومن دون قصد كان يتجول بعيدا فوق سطح السفينة على مسافة أقدام قليلة من المجموعة، وهو يبحث في البحر والأفق عن جسم ما، شيء ما غير كتل الطحالب الحمراء التي كانت تطفو بشكل مستمر فوق سطح الماء الداكن.

- «إنه يزداد اقترابا!».

- «كم هو قوي!».

- «إنه متعب!».

- «هذا واضح!».

نظر رامون فوق رؤوسهم، وفي ما بينهم، عندما كانوا يبذلون مواقعهم من وقت إلى آخر. لم ير شيئا. كان على استعداد تقريبا ليقنع بأن الرجال كانوا يستميلونه، على أمل أن يكون قادرا على الترويج عنهم، عندما يتحتم عليه من فرط الفضول أن يتساءل: «ما هذا؟» ولذلك اعتزم أن يكون هادئا، وأن ينتظر ويرى.

فجأة أتحت له الرؤية بالفعل. كان هناك طائر صغير أصفر وبني اللون يطير بشكل منحني في خط غير مستقيم خلف السفينة، وهو يترنح كلما تراجع بشكل متكرر نحو المياه بين دفعات الطاقة المفرطة والباعثة على اليأس والتشيث بالحياء.

- «ألف ميل بعيدا عن الأرض!».

- «سينجح! انظروا! ها هو قادم!».

- «لا!».

- «المرءة القاءة».

ففي كل محاولة متهورة جامرة للوصول إلى ظهر السفينة، كان الطائر يقرب أكثر إلى الرجال، وعندئذ ربما خوفا منهم، يرفرف إلى أسفل تجاه البحر الذي يغلي من شدة الحرارة، مفقدا الأثر العظيم الاضطراب الذي تخلفه السفينة في المياه في كل وقت من هامش الاقتراب. وعندما بدا في هذا المرة أنه سيتحرك بالتأكد في اضطراب واهتياج إلى أسفل نحو الاختلاط والتشوش الأبيض للهواء والماء، الذي كان يندفع إلى أعلى في ضعف، وكان رأس الطائر يتحول في عزم وتصميم نحو كتلة السفينة البيضاء التي تتحرك أمامه بشكل مستمر.

كان رامون مبهورا. كان أول ما خطر له هو أن يخبر الرجال بأن يتراجعوا إلى الخلف قليلا بعيدا عن الدرابزين لربما تواتي الطائر الشجاعة ليهبط. بينما كان على وشك أن يفتح فمه ليذلي بهذا الاقتراح، فكر فيه بشكل أفضل، وعلى الفور كان ممثا لبقائه صامتا. فقد كان بوسعه تخيل السخرية التي كانت ستوجه إليه في ما بعد: في الكابينة، أو في وقت الطعام، أو في المساء

فوق السطح... كان شخص ما سيؤلف أغنية صغيرة مخجلة عن رامون وطائره. وقف يراقب، في ألم متزايد من الإثارة.

- «خمس بيزيتات على أنه سيهلك!».

- «عشر على أنه سينجح!».

دار رامون هنا وهناك ثم جرى برشاقة نحو المطبخ. وفي التو تقريبا عاد إلى السطح مرة ثانية. وهو يحمل في يده تميمة السفينة، وكانت قطا ثقيل الوزن، عيناها ترمشان في سرعة بشكل غبي في وهج الشمس المفاجئ. هذه المرة مشى مباشرة عائدا إلى الدرابزين حيث وقف الآخرون. وأجلس القط عند أقدامهم.

«ما الذي تفعله؟» قال أحدهم.

«انظر وسوف ترى»، قال رامون.

كانوا جميعا هادئين للحظة، أمسك رامون بجنبى القط ورأسه منتظرا أن يجذب القط انتباه الطائر المرفرف. كان من الصعب حدوث هذا. وبغض النظر عن الكيفية التي كان بها رامون يوجه رأس القط فإنه لم يظهر أي علامة على الاهتمام بالطائر. ظلوا منتظرين لفترة. وعندما وصل الطائر إلى مستوى قريب من السطح على بعد عدة أقدام من السفينة، انتفضت رأس القط فجأة، فعرف رامون أن الاتصال قد حدث. فسحب يديه على الفور بعيدا عن القط، الذي وقف ساكنا تماما، وطرف ذيله يتحرك قليلا. ثم أخذ خطوة إلى الأمام مقتريا من الحافة، وهو يراقب كل حركة ومجهود يبذله الطائر الذي كان في حالة هيجان شديدة.

- «انظر إلى هذا».

- «إنه يراه».

- «لكن الطائر لا يراه».

- «إذا لمس السفينة، فإن عرض البيزيتات العشر سيظل

ساريا».

ارتفع الطائر في الهواء، طار سريعا للحظة حتى أصبح فوق رؤوسهم مباشرة. نظروا إلى أعلى في الشمس اللاهبة، محاولين حماية أعينهم بأيديهم. الطائر حتى الآن بعيدا إلى الأمام، لدرجة أنه لو هبط، فسوف يحط على السطح على بعد أقدام قليلة أمامهم. القط، محذقا، في الهواء إلى أعلى، جرى بسرعة عبر السطح إلى أن أصبح أسفل الطائر مباشرة، الذي ترك نفسه يهبط ببطء حتى بدا لهم أن بإمكانهم الوصول إليه والتقاطه. قفز القط قفزة فاشلة في الهواء. صرخوا جميعا، لكن الطائر كان عاليا جدا. فجأة ارتفع إلى أعلى كثيرا، ثم توقف عن الطيران. مروا من تحته سريعا بينما ظل هو معلقا في الهواء للحظة. عندما أداروا رؤوسهم ثانية إلى الوراء كان هناك شيء أصفر يهبط ببطء إلى أسفل باتجاه البحر، وسرعان ما فقدوا أثره تقريبا.

في وجبة الغداء تحدثوا عنه. وبعد حدوث بعض الجدل والنقاش دُفِعَت الرهانات. ذهب أحد عمال التزيت إلى كابينته وأحضر شرابا ومجموعة من الكؤوس الصغيرة وضعها أمامه وملاها الواحدة تلو الأخرى.

«هل ترغب في بعض منه؟» قال لرامون.

أخذ رامون كأسا، ومرر عامل التزيت بقية الكؤوس إلى الآخرين.

حقول صقيعية

كان القطار قد تأخر لأن صندوق التسخين أسفل إحدى العربات قد اشتعل في وسط حقل مسطح شديد الاتساع مغطى بالثلوج. وقد ظلوا هناك قرابة الساعة. عقب الضوضاء والانطلاق السريع للقطار نجمت عن الصمت المفاجئ للركاب واهتزازهم في مقاعدهم حالة عامة من القلق والتوتر. وفي إحدى اللحظات، مرق قطار آخر على القضيب المعاكس وهو يطلق هديراً أعلى من صوت الرعد، وعقب ذلك، ازدادت عصبية الركاب حدة، وبدأوا يتحدثون بتذمر في أصوات منخفضة.

بدأ دونالد يرسم بظفره بعض أشكال في الثلج الذي كان يغطي الجزء السفلي من إطار النافذة المجاورة لمقعده. كان والده قد قال له «توقف عن هذا». وكان بمقدور دونالد أن يسأل «لماذا؟» لكنه فكر في الأمر، فلم يكن بإمكانه تخيل الألم الذي سيتسبب فيه هذا السؤال، وشعر بالاستياء بعض الشيء نحو أمه لعدم تدخلها. فقد كان ينتظر منها أن تعترض على ذلك الحظر الذي لا مبرر له، لكن الخبرة علمته أنها يمكن الاعتماد عليها في الوقوف في صفه والدفاع عنه فقط في عدد محدود من المرات أثناء اليوم الواحد، وكان من الطيش تبديد رصيدها من حسن النية.

كان الثلج قد تمت إزالته عن رصيف المحطة عندما نزلوا من القطار. كان الجو قارس البرودة؛ وكانت سحابة كثيفة من البخار ترحف من أسفل القاطرة، وتغلف العربة الأولى بشكل جزئي. كانت قدما دونالد تؤلمانه من البرد.

«ها هو الخال جريج والخال ويليز!» صاح دونالد، وقفز في الهواء عدة مرات.

«يجب عليك ألا تصيح، إننا نراهما. قف مكانك، والتقط حقيبتك»، قال والد دونالد.

كان الخال ويليز مرتديا معطفا أسود من الفراء كان يصل إلى الأرض تقريبا. وقام بوضع يديه أسفل ذراعي دونالد ورفعته إلى أعلى حتى أصبح رأس دونالد في مستوى رأسه، وقبله بقوة في فمه. ثم طوحه في الهواء مناولا إياه إلى ذراعي الخال جريج، وفعل الخال جريج الشيء نفسه. «كيف حال الرجل؟» صاح الخال جريج، بينما كان ينزله إلى الأرض.

«بخير»، قال دونالد، وهو يشعر بانتصار، لأن والده لم يكن يحب أن يرى أولادا يتم تقبيلهم. وقال له من قبل، «الرجال يتصافحون بالأيدي. إنهم لا يقبلون أحدهم الآخر».

كانت السماء صافية تماما، وعلى الرغم من أنها كانت تتحول بالفعل إلى لون أرجواني شاحب بمرور فترة ما بعد الظهر، فإنه كان لا يزال بالإمكان رؤيتها تلمع بضوء شديد، مثل منظر السماء في أحد مشاهد الباليه الروسي. وكانت أمه قد اصططحته معها قبل بضعة أسابيع لأنها كانت ترغب في رؤية بافلوفا^(*)، ولم يكن الباليه هو الرقص الذي يمتع دونالد ويثيره، بل كان يمتعه الاتصال المباشر المفاجئ مع عالم السحر. كانت هذه السماء السحرية فوقهم الآن، وهي مختلفة تماما عن السماء التي اعتاد رؤيتها فوق شوارع نيويورك. كان كل ما يتعلق بالمرزعة

(*) أنا بافلوفا: من أعظم راقصات الباليه، روسية الأصل، ولدت في سان بطرسبرج وتوفيت في لاهاي (١٨٨٥ - ١٩٢١) - [المترجم].

مصبوغا بطابع سحري. كان البيت بمنزلة نواة لعالم سحري أكثر واقعية من العالم الذي يعرفه الناس الآخرون تقريبا. أثناء فصول الصيف الطويلة، التي تزدهر فيها الخضرة والتي كان دونالد يقضيها هناك مع أمه وأفراد عائلتها، اكتشف ذلك العالم وقام بسبر أغواره، ولم يشعر أحد منهم قط أنه كان يعيش في قلب هذا العالم. لكن وجود والده في المزرعة كان يشكل خطرا فادحا، لأنه كان من المستحيل تقريبا إخفاء أي شيء عنه، وبمجرد معرفته بوجود ذلك العالم الآخر فإنه لن يدخر وسعا في القيام بتدميره. لم يكن دونالد واثقا حتى ذلك الوقت إن كانت جميع المداخل المفضية إلى هذا العالم تتم حراستها بأمان أو تم تمويهاها بفاعلية وإحكام أم لا.

كانوا يجلسون في المقعد الخلفي من عربة الجليد وجلد الجاموس يغلفهم من جميع الجهات. كان الحصانان الرماديان الكبيران ينفثان بخار زفيرهما خلال فتحات أنفيهما العريضة. كان الريف الأبيض يمضي في صمت، وكانت أشجاره المتجمدة ذات لون قرنفلي في ضوء النهار المتأخر. كان الخال جريج ممسكا بالأعنة، والخال ويليز، جالسا بجواره، وكان يستدير جانبا في مقعده، ويتحدث مع والدة دونالد.

«قدماي تؤلمانني»، قال دونالد.

«حسنا، يا إلهي، يا لك من صبي!» صاح الخال ويليز. «ألم تضعهما على قوالب الطوب؟ هناك خمسة قوالب من الطوب الساخن موجودة عندك في الأسفل. لقد وضعت هناك لهذا الغرض». ثم انحنى ورفع طرف البطانية الثقيلة المخصصة

لتغطية النصف الأسفل من الجسم. وكانت قوالب الطوب ملفوفة في ورق جرائد.

«قدماي أنا أيضا مثل لوحين من الثلج»، قالت والددة دونالد.
«هنا، اخلع حذاءك وضع قدميك فوق هذين القالبين». ودفعت قالبين من الطوب باتجاه قدمي دونالد.

«إنه يرغب فقط في جذب انتباهنا»، قال والد دونالد. لكنه لم يمنعه من أن يحصل على قالبَي الطوب.

بعد ذلك سأل الخال ويليز أخته: «هل هذا أحسن؟»
«تبدو أحسن. كم ميلا تبقى على الوصول إلى المزرعة؟»
«سبعة أميال حتى الناصية، وميل ونصف من المنعطف»، قال.
«آه، كنت أعرف أنها تبعد مسافة ميل ونصف من المنعطف»، قال دونالد.

كان دونالد قد قطع هذه المسافة مرات كثيرة في فصل الصيف، وكان يعرف أسماء المزارع على امتداد الطريق. «أولا تصل إلى مزرعة إيلدر، ثم مزرعة لاندون، ثم مزرعة مديسون...»
لكزه والده بمرفقه بقوة في ضلوعه. «فقط ابق صامتا لبعض الوقت».

تظاهر الخال بعدم سماعه لما قاله والد دونالد، وأضاف:
«حسنًا، حسنًا. إنك تتمتع بذاكرة قوية بكل تأكيد. كم تبلغ من العمر الآن؟»

انقبض حلق دونالد؛ وكان هذا حدثًا مألوفًا جدًا ولم يكن يعني على الإطلاق أنه كان على وشك أن يبكي - كان مجرد إحساس بالرغبة في البكاء. سعل دونالد وقال في صوت معتدل: «ست

سنوات». ثم سعل مرة ثانية، وهو يشعر بالخجل والخوف من احتمال أن يكون الخال ويلييز قد لاحظ شيئاً ما خطأ، فأضاف: «لكنني سأبلغ السابعة في أول يوم في السنة الجديدة». ظلوا صامتين جميعاً عقب ذلك، ولم يكن هناك سوى الإيقاع الخافت لخبب الحصانين والصوت الناعم المنساب للمزلجتين فوق الثلج المترامي الأطراف. كانت السماء الآن أكثر إظلاماً بعض الشيء مقارنة بالمراعي البيضاء، والغابات على جانب التل وفي الورا، وقد بدت الملايين من أغصانها العارية، باعثة على الخوف. كان دونالد سعيداً لكونه جالساً في الوسط. كان يعرف أنه ليس ثمة ذئب في الخارج، لكن، هل بإمكان أي شخص أن يكون على يقين فعلاً من هذا؟ فقد كانت هناك ذئاب يوماً ما - ودبية أيضاً - ولأنه ببساطة لم يتسن لأحد رؤية أي منها على مدار السنوات، فإنهم يقولون إنها لم تعد موجودة الآن. لكن هذا ليس دليلاً.

عندما وصلوا إلى المنعطف، حيث يتفرع الطريق المؤدي إلى المزرعة عن الطريق الرئيسي، كانت هناك سبعة صناديق بريد صدئة منتصبة في صف منحني، حيث كان لكل بيت صندوق على الطريق.

«الصندوق» أ.ر. إف. دي «رقم واحد»، قال الخال ويلييز بطريقة لطيفة. فقد كان هذا دائماً بمنزلة نوع من الدعاية في ما بينهم. لأنهم حتى بعد شرائهم للمزرعة، وهم من أبناء المدن، كانوا يعتقدون أن المزارعين الحقيقيين مرحون ومضحكون جداً.

كان دونالد في ذلك الوقت يشعر بأنه في أرض الوطن، وأعطاه هذا الثقة لأن يقول: «التوصيل الريفي المجاني». قال الكلمات بعناية، نظرا لأن الكلمة الأولى أحيانا ما كانت تمثل له صعوبة في النطق بها. لكن نطقه كان سليما، فصاح الخال جريج دون أن يلتفت إلى الخلف: «هذا صحيح! هل تذهب الآن إلى المدرسة؟» «نعم». ولم يشعر بالرغبة في قول المزيد، لأنه كان يتابع منحنيات ومنعطفات الطريق، التي كان يعرفها عن ظهر قلب. لكن كل شيء قد بدا له مغايرا جدا عما يتذكره عنه، حتى وجد أنه من الصعوبة التسليم بأن المكان كان هو نفس المكان. فقد فقدت الأرض ألفتها، وأضحت جرداء ومكشوفة. حتى أنه كان بمقدوره أن يرى بوضوح، في الليل الذي كان يهبط، من خلال الأحراش غير المورقة التي كان ينبغي أن تخفي الحقول العارية التي خلفها. كانت قدماء الآن على ما يرام، لكن يديه في القفاز الصوفي المكسو بالجلد الجاموسي كانت فاقدة الإحساس بسبب البرودة. لاحت المزرعة في الأفق، في كل نافذة من نوافذ الطابق السفلي كانت هناك شمعة مشتعلة، وإكليل من نبات الشوكران. انحنى دونالد وارتندي حذاءه، وكان هذا من الصعوبة بمكان لأن أصابعه كانت تؤلمه. وعندما اعتدل مرة ثانية كانت عربة الجليد قد توقفت. كان باب المطبخ مفتوحا، وكان هناك شخص ما يقف في الخارج. وكان الجميع يصيحون «مرحبا!» و«عيد ميلاد سعيد!»، في المسافة الواقعة بين عربة الجليد والمطبخ لم يكن دونالد على دراية بشيء سوى التقبيل والتربيت الذي كان يتلقاه، وهو يُحمل ويُنزل إلى الأرض، وإخباره بأنه قد صار أكبر سنا.

ساعده جده على خلع حذائه ثانية ورفع الغطاء من أعلى الموقد لكي يتمكن من تدفئة يديه على حرارة اللهب. كان المطبخ يبعث برائحة، كما في فصل الصيف، هي خليط روائح دخان الخشب، واللبن الرائب والكيروسين.

كان من المثير جدا دائما الوجود وسط أناس كثيرين. وأن يشكل كل فرد منهم حماية إضافية له ضد المراقبة الصارمة المستمرة من جانب أمه وأبيه. ففي البيت لم يكن هناك سوى أمه وأبيه بالإضافة إليه، لدرجة أن أوقات تناول الطعام كانت بمنزلة فترات تعذيب له. لكن في تلك الليلة كان هناك ثمانية أفراد على مائدة العشاء. وقد قاموا بوضع قاموس قديم مغلف بالجلد على الكرسي حتى يصبح دونالد عاليا بدرجة مناسبة، وكان يجلس بين جدته والعمة إميلي. وكانت العمة إميلي ذات عينين بنيتين داكنتين وعلى قدر عال من الجمال. وقد تزوجها الخال جريج منذ سنة، وكان دونالد يعرف من خلال المحادثات العرضية العديدة التي سمعها أنها لم تكن محبوبة فعلا من جانب الآخرين جميعا.

كانت الجدة تقول: «لويزا وإيفور لن يتمكننا من الحضور قبل الغد، فقد أقلهما السيد جوردون حتى بورتسفيل بسيارته. وسوف يبيتون الليلة جميعا في الفندق، وأول شيء سيتعين علينا القيام به في الصباح هو الذهاب لإحضارهم». «وإحضار السيد جوردون أيضا، على ما أعتقد»، قالت أمه. «من المحتمل»، قال الخال جريج. «إنه لن يرغب في قضاء عيد الميلاد المجيد بمفرده».

بدت أمه متضايقة، وقالت «إنه أمر يبدو غير ضروري. إن عيد الميلاد يوم خاص بالعائلة، على أي حال».

«حسنًا، إنه الآن جزء من العائلة»، رد الخال ويليز بابتسامة تتم عن خبث.

فأجابت أمه بانفعال كبير: «أعتقد أنه فظيع».

«إنه سيئ جدًا هذه الأيام»، قال الجد وهو يهز رأسه.

«ألا يزال يتناول المشروبات الكحولية القوية العتيقة؟» سأل والده.

فرفع الخال جريج حاجبيه من الدهشة وقال: «إلى هذا الحد وما هو أسوأ منه. أنت تعرف ... وإيفور أيضا يعرف».

كان دونالد يعلم أنهم كانوا يتحدثون بغموض لأنه موجود بينهم، فتظاهر بعدم الإنصات وراح يشغل نفسه بعمل علامات على مفرش المائدة أمامه بالحلقات التي توضع فيها مناديل المائدة.

كان والده قد انفجر فوه من فرط الدهشة: «من أين يحصلون عليها؟» وسأل.

«عن طريق وصفة الطبيب»، رد الخال ويليز في سهولة وباستخفاف، «ثمة طبيب بولندي ملئو هناك في المنطقة العلوية».

«آه، بصراحة»، صاحت أمه، «أنا لا أدري كيف تؤيد لويزا أمرا كهذا».

العمة إميلي، التي كانت صامته حتى تلك اللحظة، تحدثت فجأة قائلة في تأمل، «أنا لا أعرف، فالاثان جيدان جدًا بالنسبة

إليها. أعتقد أن السيد جوردون كريم جدا، فهو يدفع إيجار شقتها، كما تعرفين، ويسمح لها باستخدام السيارة والسائق الخصوصي طيلة فترة بعد الظهر».

«أنتِ لا تعرفين أي شيء عن هذا الأمر»، قال الخال جريج في صوت أجش فظ بغية إسكاتها، لكنها استمرت بصوت عال وحاد بعض الشيء، حتى أن دونالد تبين له أنهما كانا يمارسان سلوكهما المعتاد في النقاش.

«إنني أعرف بالفعل أن إيفور على استعداد تام لتطليقها في أي وقت تريده، لأنها قالت لي هذا بنفسها».

كان هناك صمت على المائدة؛ وكان دونالد متأكدا من أنه لو لم يكن موجودا هناك فإنهم جميعا كانوا سيبدأون في التحدث في تلك النقطة. وقد قالت العمة إميلي شيئا لم يكن له أن يسمعه.

«حسنا»، قال الخال ويليز بحماس، «ماذا عن قطعة أخرى من الكعك يا دونالد، يا عجوز؟»

«تقصد ماذا عن السرير»، قال والد دونالد، «فقد حان موعد الذهاب إلى السرير».

لم تقل أمه شيئا، ساعدته على النزول من كرسيه وأخذته إلى الطابق العلوي.

كانت ألواح الزجاج الصغيرة الخاصة بنافضة حجرة نومه مغطاة بالثلج تماما. فتح دونالد فمه، وتنفس في أحد هذه الألواح حتى ذابت فتحة مستديرة خلاله وتمكن من رؤية السواد في الخارج. «لا تفعل هذا، يا عزيزي»، قالت أمه. «فسوف تقوم

الجدة بتتظيف النافذة. الآن تعال هنا إلى السرير. ثمة قالب رائع من الطوب الساخن تحت الأغطية حتى لا تصبح قدماك باردتين! وأحكمت أمه أطراف الغطاء من حوله، وقبلته، وأخذت المصباح من فوق المنضدة. كان صوت أبيه المحمل بالضيق يأتي من نهاية السلم. «هيه، يا لورا! ما الذي يحدث عندك فوق؟ تعالي».

«ألن يكون هناك مصدر للضوء في حجرتي على الإطلاق؟» سألتها دونالد.

«أنا قادمة»، صاحت. وخفضت بصرها إلى دونالد. «لا يوجد لديك في بيتنا مصدر للضوء».

«أعرف، لكن في البيت بإمكانني إنارته إذا احتجت إليه». «حسنًا، لن تكون بحاجة إليه الليلة. سوف يصاب أبوك بنوبة عصبية إذا تركت المصباح لديك. أنت تعرف هذا. ليس عليك الآن إلا أن تنام».

«لكنني لن أقدر على النوم»، قال بصوت يدل على ما كان فيه من تعاسة.

«لورا!» صاح والده بقوة.

«دقيقة واحدة!» صرخت، بغيظ.

«من فضلك، يا أمي...»

كان صوتها يعبر عن عنادها عندما قالت، «هذا الطقوس البارد سيجعلك تنام في غمضة عين. والآن فلتنم». ومضت إلى المدخل، والمصباح في يدها، واختفت عبر المدخل وهي تغلق الباب خلفها.

كان هناك منبه صيني صغير على المنضدة صوته عال جدا .
خلال فترات الصمت غير المنتظمة كان يأتي من الطابق الأسفل
صوت ضحك مكتوم ينطلق فجأة ثم يخبو على الفور . كانت أمه
قد قالت : « سأفتح النافذة مسافة بوصة واحدة تقريبا ، وسيكون
هذا كافيا » . كانت الحجرة قد أمست أكثر برودة بمرور الوقت .
دفع باطن إحدى قدميه في مقابل قالب الطوب الساخن في
منتصف نهاية السرير . فسمع صوت طقطقة الجريدة التي
كان ملفوفا فيها . لم يكن هناك ما يمكن القيام به خلا النوم .
في طريقه عبر تخوم الوعي كان يحلم . من الجبل الواقع خلف
المزرعة ، وهو يعدو في صمت فوق السطح الجليدي للثلج ، ويقفز
على الصخور وبين الأحراش ، جاء أحد الذئاب . كان يجري نحو
المزرعة . وعندما يصل إلى هناك سوف ينظر عبر النوافذ إلى أن
يعثر على حجرة الطعام حيث كان البالغون يجلسون حول المائدة
الكبيرة . ارتعد دونالد عندما رأى عينيه في الظلام عبر الزجاج .
والآن ، وهو يحسب حساب كل حركة بدقة ، قفز الذئب قفزة
حطمت زجاج النافذة ، وأمسك بتلابيب والده من عند الحلق . في
لمح البصر ، وقبل أن يتمكن أي شخص من التحرك أو الصراخ ،
مضى الذئب مرة ثانية وهو لا يزال ممسكا بفريسته بين فكيه ،
ورأسه يدور يمنا ويسرة بينما يسحب الهيكل الضعيف المنهك
بسرعة وخفة فوق سطح الجليد .

عندما فتح عينيه كان ضوء الفجر قد تسلل إلى حجرته . كان
هناك بالفعل خبط ورنين في سلطانيات البيت ، فقد كان هناك
أناس يقومون بتقليب شيء ما . سمع دونالد صوت نافذة تغلق ،

ثم الصوت المنتظم لشخص ما يشق الخشب ببلطة. في الوقت الحالي كانت هناك ضوضاء قريبة، فعرف أن والديه في الحجرة المجاورة قد استيقظا. بعد ذلك انفتح باب حجرتة فجأة ودخلت أمه، مرتدية روب حَمَام سميكا من الصوف، وشعرها منسدل على ظهرها. «عيد ميلاد سعيد»، قالت بصوت عال، وهي تحمل جوربا شبكيا أحمر ضخما ممتلئا بالفاكهة واللفافات الصغيرة. «انظر ما الذي وجدته معلقا عند المدفأة!» أصيب بخيبة الأمل لأنه كان يأمل في الذهاب إلى هناك والحصول على هديته بنفسه. «لقد أحضرتها إليك هنا لأن البيت بارد مثل الحظيرة»، قالت له: «ابق هنا في أمان في السرير حتى يصبح البيت دافئا قليلا».

«متى سنحصل على ما في الشجرة؟» كانت أهم الشعائر هي المتعلقة بشجرة عيد الميلاد، حيث كانت تتكوم أسفلها أكثر الهدايا إمتاعا.

«على رسلك، تمهل»، أخبرته، «لقد حصلت على جورب الهدايا الخاص بك. لا يمكننا أن نحصل على ما تحت الشجرة حتى تصل العممة لويزا إلى هنا. أنت بالطبع لا ترغب في أن يفوتها هذا. أليس كذلك؟»

«أين هديتي للعممة لويزا والعم أيفور؟ سيأتي العم أيفور، أيضا، أليس كذلك؟»

«بالطبع، سيأتي»، أجابت بطريقة تعبير مختلفة تحمل نبرة تردد كانت تلجأ إليها عندما كانت تأتي على ذكر العم أيفور. «لقد قمت بوضعها بالفعل أسفل الشجرة مع الأشياء الأخرى.

الآن ابق فقط حيث أنت، مغطى هكذا بشكل كلي، وافتح جورب هداياك وتفقد ما بداخله، وسأذهب أنا لارتداء ملابسني». وانتابتها رجفة فأسرعت عائدة إلى حجرتها.

الشخص الوحيد الذي كان يتعين عليه أن يشكره هو جده، لأنه أحضر له علبة أقلام خشب ألوان كانت محشورة في قاع الجورب. كانت الهدايا الأخرى تحمل بطاقات معنونة: «إلى دونالد من سانتا كلوز». كان الخال جريج والخال ويلي قد تناولوا إفطارهما مبكرا وذهبا في عربة الجليد إلى الفندق في بورترسفيل لإحضار العمة لويزا والعم أيفور. وعندما رجعوا، جرى دونالد إلى النافذة فرأى أن السيد جوردون قد حضر معهم. كان الجميع قد تحدثوا بغموض شديد عن السيد جوردون لدرجة جعلته في شوق شديد لأن يراه. لكن في تلك اللحظة نادته أمه لمساعدتها في ترتيب الأسرة. «يجب علينا جميعا أن نبذل قصارى جهدنا لمساعدة الجدة»، أخبرته أمه: «الله يعلم أنها لا تألو جهدا وتبذل أقصى ما في وسعها في المطبخ».

لكنه في النهاية سمع العمة لويزا تتادي عليهما من فوق السلم. فنزلا معا إلى أسفل: كانت القبلات تغمره، وسألته العمة لويزا: «كيف حال ابني؟» أنت ابني، ألسنت كذلك؟ ثم قبله العم أيفور، وصافح السيد جوردون الذي كان يجلس بالفعل في كرسي الجد، الذي لم يسبق لأحد من قبل الجلوس عليه غير الجد. كان السيد جوردون ممتلئ الجسم وشاحبا، وكان يرتدي خاتمين كبيرين من الماس في يد وخاتما من الياقوت الأزرق في اليد الأخرى. كانت حشرة بسيطة تصدر عنه

بينما كان يتنفس، ومن وقت لآخر كان يجذب منديلا حريريا أصفر من جيب صدره ويمسح به جبينه. كان دونالد جالسا في الطرف الآخر من الحجرة وهو يقلب صفحات إحدى المجلات، وبين الفينة والأخرى كان يرفع بصره ويلاحظه. كان السيد جوردون قد أطلق على دونالد «غلامي»، الأمر الذي بدا غريبا جدا، تماما مثل شخصية تتحدث في أحد الكتب. وفي إحدى المرات جذب انتباه دونالد وأشار إليه. فذهب إليه دونالد ووقف بجوار الكرسي الخشبي بينما وضع السيد جوردون يده في جيبه وأخرج منه ساعة ضخمة لها زر وجرس صغير يدق داخل الساعة. وبعد عدة دقائق أشار إليه من جديد، فاتجه إليه دونالد وضغط الزر مرة ثانية. في المرة التالية، نهزته أمه وأخبرته أن يتوقف عن مضايقة السيد جوردون.

«لكنه طلب مني القيام بهذا»، قال دونالد معترضا.

«اجلس هنا في هذا المكان. سندخل الآن كلنا ونحصل على شجرتنا خلال فترة قصيرة. سيصبح العم أيفور سانتا كروز». في تلك اللحظة حضر الخال ويليز إلى الحجرة. «حسنا، يا سادة»، قال ذلك وهو يدللك يديه الاثنتين معا، «أعتقد أن البهو الآن قد أصبح دافئا بالقدر الكافي. ماذا عن شجرتنا؟»

«مسألة وقت»، قالت العممة إميلي. كانت ترتدي ثوبا أحمر من التفاه، وكان دونالد قد سمع أمه وهي تتحدث عنه مع أبيه في وقت سابق. «غير ملائم إلى حد بعيد جدا»، قالت أمه وقتها، «يبدو أن الفتاة لا تدرك أنها تعيش في مزرعة». اقتربت العممة إميلي وأمسكت بيد دونالد. «هل ترغب في مصاحبتي،

يا سيدي؟» قالت. ومضيا معا إلى البهو ويداها متشابكتان.
كانت النار في المدفأة تصدر صوتا عاليا وتقطقط.
«أين أيفور؟» قال الخال جريج. «هل جلس الجميع في
مقاعدهم؟»

«ها أنا ذا»، قال العم أيفور، قادما من مدخل البهو. كان يضع
على رأسه قبعة حمراء قديمة مخيطة ويرتدي عباءة حمراء،
وكان يضع حول رقبتة لفة من ورق أخضر غائر النقوش محرز.
«هذا هو كل ما أمكن لسانتا كلوز أن يعثر عليه»، قال وهو يخاطب
الجميع. بدأت العمة لويزا في الضحك. «انظر إلى عمك أيفور»،
قالت لدونالد. «إنني انظر»، قال دونالد. لكنه كان ينظر بالفعل
إلى الشجرة. كانت شجرة شوكران طويلة تصل إلى السقف،
وكانت مكومة تحتها أضخم تشكيلة من اللفافات التي لم يرها
في أي وقت من قبل.

«انظر إلى كل هذا!» كان الجميع يصيحون.
«ما الذي تتوقع أن يوجد فيها كلها؟» قالت العمة لويزا.
«أنا لا أعرف»، أجاب دونالد.

جلس العم أيفور على الأرض بحيث يكون على مقربة من
الشجرة قدر الإمكان ورفع صندوقا كبيرا أعطاه إلى الخال
جريج، الذي كان واقفا في وسط الحجرة. «دعنا نفرغ من هذا
أولا»، قال.

ثم العم جريج قائلا: «إلى دونالد من أهالي روتلاند».
بينما استمر العم أيفور في مناولة اللفافات، كان دونالد
يتعامل مع صندوقه. كان مدركا بشكل غير واضح للصرخات

الصغيرة التي كانت تتطلق من حوله، «كم هي رائعة! لكن هذا كثير جدا! أم. لم تكن مضطرا للقيام بهذا! لماذا فعلت هذا؟» وبينما كان الآخرون يفتحون هداياهم، كان دونالد على العكس منشغلا جدا بملاحظة أن القدر الكبير من الدهشة والإعجاب كان موجها إلى السيد جوردون، الذي كان جالسا إلى النافذة ويبدو عليه السرور الشديد.

كان من الصعب جدا التصديق: عربة إطفاء بطول ثلاثة أقدام، مزودة بإطارات من المطاط وجرس وصفارة إنذار وثلاثة سلاسل كانت تتطلق إلى أعلى بطريقة آلية عندما تتوقف العربة. نظر إليها دونالد، وللحظة كان مرعوبا إلى حد ما من القوة التي كان يعرف أنها ستضطره إلى تغيير عالمه.

«أم... أليست... هذه... رائعة!» قالت أمه، التي كان انزعاجها يعطي حواف حادة لكل كلمة نطقها، قالت «لويزا، لماذا فعلت هذا؟» ألقى دونالد بنظرة سريعة فرأى أن العمدة لويزا كانت تومئ للسيد جوردون بهزة من رأسها، كما لو أنها كانت تقول له: «كل شيء بسببك أنت».

تحركت أمه على طول الأرضية نحو الصندوق وبحث عن بطاقة التحية المرفقة به، «أريد منك أن تحتفظ بكل بطاقة داخل الهدية التي جاءت بداخلها»، قالت لدونالد، «سيجب عليك غدا كتابة الكثير من رسائل الشكر، ويجب ألا يختلط عليك الأمر. لكن بإمكانك الآن أن تشكر العمدة لويزا والعم أيفور».

كان يكره أن يطلب منه أحد أن يشكر شخصا ما في وجود ذلك الشخص، كما لو أنه كان طفلا. لكنه قال كلمات الشكر

بشجاعة، وهو يتوجه إلى السيد جوردون: «أشكرك كثيرا جدا على عربة الإطفاء الجميلة».

«ثمة ما هو أكثر، يا بني»، وابتسم السيد جوردون بابتهاج؛ كانت الجواهر تلمع في ضوء الشمس.

كانت العمة إميلي ترفع ذراعها أمامها، وتتنظر إلى ساعة يدها الجديدة. كان الجد يرتدي روبا حريريا أسود ويدخن سيجارا، وقد بدا راضيا تماما بينما تحول إلى السيد جوردون قائلا: «حسنا، لقد أفسدتنا جميعا بكرمك وسخائك». لكن والدة دونالد ترجمت عبارته على أنها لوم أو توبيخ فأضافت مفسرة: «إننا لم نعتد الحصول على مثل هذه الهدايا النفيسة، يا سيدي جوردون».

ضحك السيد جوردون، والتفت إلى دونالد، وقال له: «أنت حتى الآن في البداية فقط، يا غلامي. قل لعمك أيفور أن يواصل تقديم الهدايا».

الآن بدا من الواضح أن كل لفافة تقريبا كانت تخص دونالد. فراح يفتحها بأسرع ما في وسعه، وفي كل مرة كانت تبدو عليه الحيرة بسبب كل أعجوبة جديدة يراها. بالطبع كانت هناك المناديل والكتب والكوفيات المهداة من العائلة، لكن كان هناك أيضا صندوق موسيقى سويسري بأسطوانات معدنية صغيرة بحيث يمكن تغييرها، وكانت هناك أحذية تزلج، ومجموعة كبيرة من جنود الاستطلاع، وآلة أكورديون حقيقية، ولعبة عبارة عن قرية مزودة بشبكة للترام يسير بالبطارية. بينما كان دونالد يفتح كل لفافة، كانت تصدر صيحات إعجاب خافتة من جانب

والديه وكانت أقرب إلى أن تكون تأوهات. وأخيرا قال والده للسيد جوردون، في صوت عال بدرجة كافية لكي يسمعه فقط الصوت على المحادثات الدائرة: «إنه لأمر سيئ أن يحصل طفل واحد على مثل هذا الكم الكبير».

وسمعه السيد جوردون فقال في مرح وابتهاج: «لقد كنت أنت نفسك صغيرا ذات يوم».

كانت العمة إميلي تحاول قياس «الجاكيت الفرو» الذي قدمه إليها الخال جريج، وكان وجهها متوردا من فرط الإثارة؛ ولم تطبع سوى قبلة كبيرة على خد الخال جريج.

«لقد حصل طفل أستور(*) الصغير على لعب تقدر قيمتها بخمسة آلاف دولار في عيد ميلاده الماضي»، قالت العمة إميلي إلى والد دونالد، وهي تحرك يدها جيئة وذهابا بطول الفراء.

فنظر إليها والد دونالد بعينين ضيقتين، وقال «هذا»، وهو يتلفظ بها في وضوح شديد جدا، «هو ما يجب أن نسميه علامة الجنون».

كان هناك صمت في الحجرة للحظة باستثناء النار التي كانت تطقطق. أدرك هؤلاء الذين لم يسمعوا الحديث أن شيئا ما قد حدث. نظر الخال جريج بسرعة إلى والد دونالد، ثم بعد ذلك إلى العمة إميلي. من المحتمل أن يقع شجار، فكّر دونالد، يتعارك الجميع مع والده. راقبت له الفكرة وأبهجته، لكنه في الوقت نفسه أحس بالذنب، لاعتقاده أنها كانت بسببه هو.

(*) ربما يقصد حفيد رجل التجارة والرأسمالي الأمريكي، جون جاكوب أستور (١٧٦٣ - ١٨٤٨) - [المترجم].

ناولته العم أيفور لفافة، وبطريقة آلية قام بفك الشريط، وأخرج منها «جاكت» كشميري بني. «هذه هي هدية أبيك وأمك لك»، قالت أمه بهدوء. «إنه كبير عليك الآن قليلا، لكنني اشتريته كبيرا عن عمد لكي تكبر داخله». ومرّت الأزمة الصغيرة، وشرع الجميع في التحدث مرة ثانية. كان دونالد يشعر بالارتياح والإحباط في الوقت نفسه. «ماذا عن تدشين زجاجة الشراب تلك؟» صاح الخال ويليز.

«أنتم يا معشر الرجال ابقوا هنا»، قالت لهم الجدة، «فيجب علينا أن نخرج ونذهب إلى المطبخ». «سأحضر لك متعلقاتك هناك»، قال العم أيفور إلى العمّة لويزا بينما كانت تنهض.

في طريقها إلى خارج الحجرة انحنت والدّة دونالد ولمست كتف ابنها قائلة: «أريد منك أن تقوم بإعادة كل هدية إلى داخل صندوقها بنفس الطريقة التي كانت عليها بالضبط. وبعد ذلك تحملها كلها إلى أعلى وتضعها في حجرتنا وترصّها بعناية في الركن تحت النافذة. هل تسمعي؟» ومضت إلى الخارج. جلس دونالد لبرهة، ثم قفز إلى أعلى وجرى في أثرها ليسألها إن كان بإمكانه الاحتفاظ بهدية واحدة فقط - ربما، عربة الإطفاء. كانت أمه تقول للجدة: «... لا مبرر لهذا على الإطلاق. بالإضافة إلى ذلك، أنا لا أعرف كيف ستستسنى لنا العودة بكل هذه الهدايا إلى نيويورك. على الأقل بإمكان أوين أن يأخذ الهدايا الكبيرة معه غدا، على ما أظن».

توقف دونالد عن الجري، وأحس بطمأنينة تهبط عليه، فوالده سيفادر المزرعة. إذن لنُدعه يأخذ كل شيء معه، عربة

الإطفاء وكل الهدايا الأخرى، فالأمر لم يعد مهما. استدار وقفل عائداً إلى البهو. حيث قام بتعبئة اللعب في صناديقها بعناية، ووضع الأغلفة فوقها، وأعاد ربطها وحزمها بقطع من الأشرطة اللاصقة والخيوط.

«ما كل هذا الذي تفعله؟» صاح السيد جوردون فجأة متعجباً عندما لاحظ ما يقوم به. «ما الذي تفعله يا دونالد؟»
«يجب عليّ أن آخذ كل شيء إلى الطابق العلوي»، قال دونالد. انضم والده إلى المحادثة قائلاً: «إنني لا أرغب في رؤية تلك الصناديق ملقاة في جميع أرجاء المكان هناك، ولا حتى هنا. عليك أن تراعي رصها في ترتيب ودقة. هل تفهم؟»
واصل دونالد ما يفعله دون أن يرفع بصره إلى والده. بعد لحظة قال السيد جوردون هامساً: «حسناً، فسوف تحل بي اللعنة». ثم إلى والد دونالد قائلاً: «لقد سبقت لي رؤية بعض الأطفال المؤدبين في زمني، لكنني لن أتردد في أن أقول لك إنني لم تسبق لي رؤية طفل مثل هذا. قط.»
«إن التهذيب يبدأ في المهد». قال والد دونالد بشكل مقتضب.

«إنه الفساد»، تمتع السيد جوردون لنفسه. رفع دونالد بصره إلى أعلى بسرعة فرأى والده ينظر بکراهية إلى السيد جوردون.

كانت جدته وعماته وأمه مشغولات في إعداد العشاء. جلس دونالد قرب النافذة يهرس البطاطس. كانت زرقاء السماء قد اختفت وراء ستار من سحب كلها، بيضاء. «سيكون لدينا المزيد

من الجليد قبل حلول الليل»، قالت الجدة، وهي تنظر من النافذة التي تعلو حوض الغسل.

«هل ترغب في استنشاق رائحة شيء جيد؟» سألت والدته دونالد ابنها. فجرى إلى الموقد وفتحت له باب الفرن فانبعث منه رائحة بصل مختلطة برائحة الديك الرومي المشوي. «إنه يحرز تقدما مذهلا وسيصبح رائعا في النهاية»، أعلنت. وأغلقت باب الفرن بصوت عال وقامت بتعليق القطع التي كانت تسمك بها باب الفرن على علاقتها. ثم دخلت إلى حجرة خزانة الطعام وأدواته (الكرار).

تبعها دونالد. كان الجو باردا هناك، وكانت تقفح من الحجرة رائحة المخللات والتوابل. كانت أمه تبحث عن شيء ما على امتداد الرف، بين البرطمانات والعلب الصفيح.

«أمي»، قال دونالد.

«همم؟» أجابت في احتياج شديد، ومن دون أن تخفض بصرها نحوه.

«لماذا يعيش السيد جوردون في منزل العم أيفور؟» في تلك اللحظة نظرت إليه بالفعل، وبطريقة حادة لدرجة أنها أفزعته.

«ما هذا؟» سألت بحدة. ثم، قبل أن يتمكن من تكرار سؤاله، واصلت قائلة فجأة في صوت طبيعي «حبيبي، ألا تعرف أن العم أيفور يمكن أن نطلق عليه مُمرّض؟ مثل الأنسة أوليفر، هل تتذكر، التي كانت تعتني بك عندما كنت مصابا بالأنفلونزا؟ إنه مجرد رجل، رجل مُمرّض».

«هل السيد جوردون مريض؟»

«نعم، إنه مريض»، قالت، وهي تخفض من صوتها إلى مادون الهمس.

«رجل مريض جدا، لكننا لا نتحدث عن هذا الأمر».

«ما الذي يشكو منه؟» كان على دراية بأنه قد أصبح ذا سلوك طفولي في تلك اللحظة، على أمل أن يعرف المزيد. لكن أمه كانت تقول بالفعل: «أنا لا أعرف، يا عزيزي. عد إلى المطبخ الآن، فالمكان هنا بارد جدا بالنسبة إليك! اجر، اجر، اجر! إني قادمة معك!»، ضحك دونالد بصوت عال، وجرى عائدا إلى المطبخ، وهو على اقتناع بأنه قد توصل بلا ريب إلى أن ثمة لغزا في الأمر.

أثناء العشاء كان والده ينظر إليه مباشرة بنوع معين من الصرامة كان يدخرها للمواقف التي كان يعرف أنها غير مرغوبة، قال: «إنك لم تذهب اليوم إلى الخارج حتى الآن أيها الشاب. سنقوم بجولة إلى نهاية الطريق في وقت لاحق اليوم».

العمة لويزا التي كانت قد أحضرت معها إلى المائدة كأسا كبيرة من الشراب، وكانت ترتشف منها أثناء تناولها للطعام، قالت معترضة: «إن الجو شديد البرودة، يا أوين، سيموت أو يصاب بنزلة برد».

كان دونالد يعلم أنها كانت تحاول مساعدته، لكنه تمنى لو بقيت صامتة. فإذا أصبح الأمر وقد تحول إلى قضية ومشكلة، فلن ينسى والده بالطبع موضوع جولة المشي.

«بارد جدا» قال والده بسخرية. «لدينا قواعد أساسية في عائلتنا الصغيرة، وإحدى هذه القواعد أنه يجب أن يحصل على قسط من الهواء النقي كل يوم».

«ألا يمكنك كسر هذه القاعدة بسبب عيد الميلاد؛ لمدة يوم واحد فقط؟» سألتها العمة لويزا.

لم يجرؤ دونالد على رفع بصره إلى أعلى، خوفا من رؤية التعبير المرتسم على وجه أبيه.

«اسمعي، يا لويزا»، قال بشكل حاد، «اقترح أن تبقي على الحياد، وسأبقى أنا كذلك على الحياد، وبهذه الطريقة سننجم كثيرا وبشكل أفضل». ثم قال بحدة لاذعة كما لو أنه قد استدرك فجأة: «هل هذا مناسب بالنسبة إليك؟» مالت العمة لويزا فوق طبق الجدة ناحية دونالد وتحدثت بصوت عال جدا، لدرجة أن الجميع توقفوا عن الأكل، قالت صارخة: «لا. إن هذا ليس مناسباً بالنسبة إلي!» ثم أردفت «إن كل ما تقوم به منذ الصباح وحتى المساء وطوال الليل هو إزعاج الطفل. إنه لشيء مخجل! أنا لن أجلس مكتوفة اليدين وأن أرى لحمي ودمي يتم إزعاجه بهذه الطريقة!»

شرعت الجدة ووالد دونالد كلاهما في التحدث في الوقت نفسه. كانت الجدة تقول، «لويزا!»، محاولة تهدئتها، وكان والد دونالد يصيح قائلاً: «إنك لم ترزقي بطفل أبداً، كما أنك لا تعرفين ألف باء تربية الأطفال».

«أعرف متى يكون المرء أنانيا ووغدا بشكل واضح». أعلنت العمة لويزا.

«لويزا!» صرخت الجدة بصوت محمل بالدهشة واللوم الخفيف. وواصل دونالد النظر إلى طبقه.

«هل سبق لي المجيء إلى روتلاند من قبل ودس أنفي في شؤونك والقيام بانتقاده؟ هل قمت أنا بهذا؟» سأل والد دونالد.

«دعونا الآن لا نفسد عيد الميلاد الجميل هذا»، قال الخال ويليز بسرعة.

«هذا صحيح»، قال الجد. «إننا سعداء جميعاً. دعونا لا ننطق بأي شيء نأسف على قوله في ما بعد».

لكن العمة لويزا لم تتراجع. تناولت بسرعة جرعة من الشراب وتقريباً انتابتها شرقة بسببها وابتلعها بصعوبة. ثم، وهي ما تزال منحنية ناحية دونالد، واصلت: «ما الذي تعنيه، بمجيئك إلى روتلاند وانتقادي؟ ما الذي ستقوم بانتقاده في روتلاند؟ هل ثمة شيء خطأ هناك؟».

لم يجب والد دونالد للحظة. وأثناء تلك اللحظة بدا الجميع كما لو كانوا يشعرون بالرغبة في قول شيء ما من دون أن يقووا على قوله. كان الشخص الذي كسر الصمت القصير هو والد دونالد، عن طريق صوت مميز خافت وناعم، أدرك دونالد في التو أنه كان تقليداً رديئاً لصوت العم أيفور: «آه، كلا! ليس هناك شيء خطأ في روتلاند».

فجأة، في حركتين متزامنتين، ألقت والددة دونالد بفوطتها في مكانها ودفعت كرسيها إلى الخلف في عنف، ثم نهضت وأسهرت إلى خارج الحجرة، وصفقت الباب خلفها. لم يقل أحد شيئاً.

وكان دونالد جالسا متجمدا، من دون أن يقدر حتى على رفع بصره، أو حتى أن يتنفس. ثم أدرك أن والده قد نهض هو الآخر، وأنه كان في طريقه إلى الخارج.

«دعها بمفردها يا أوين»، قالت الجدة.

«لا تتدخل في هذا الموضوع»، قال والده. كانت خطواته على السلالم تحدث صوت صرير بينما كان يصعد إلى أعلى. لم ينطق أحد بكلمة، إلى أن أوشكت الجدة على النهوض، فأعلنت: «سأصعد إلى الطابق العلوي».

«بالله عليك، يا أبي، اجلسي مكانك»، قال لها الجد. تنحنحت الجدة ولم تنهض.

بدا وجه العمّة لويزا شديد الحمرة، وكانت عضلات وجهها ترتعش. «بغيض». قالت بصوت مختنق، «بغيض تاما».

«أحسست برغبة في أن أصفعه على وجهه»، أفضت العمّة إميلي. «هل سمعت ما قاله لي عندما كنا نحصل على هدايانا؟»

وبلمحة خاطفة من الخال جريج توقفت العمّة إميلي: «لماذا، يا دونالد»، صاحت بصوت واضح، «إنك لم تلمس عشاءك تقريبا! أأست جائعا؟»

كان دونالد يرى في مخيلته حجرة النوم في الطابق العلوي حيث كان والده يلوي ذراع والدته ويهزّها بقوة ليجعلها تنظر إليه. وعندما لا تفعل، يعمد إلى لكمها، وطرحها أرضا، وركلها بأقصى ما يستطيع من قوة، في كل جزء من أجزاء جسمها. رفع دونالد بصره إلى أعلى، «ليس إلى حد كبير»، قال.

ومن دون سابق إنذار شرع السيد جوردون في التحدث، وهو ممسك بكأسه أمامه ويتأمل فيها بينما كان يديرها في هذا الاتجاه أو ذاك. «شجارات العائلة»، قال متتهدا، «نفس الشيء القديم. إنها تذكرني بفترة صباي. عندما أتذكرها في الوقت الراهن، يخيل إلي أننا لم نكن نتم وجبة حتى نهايتها من دون معركة، بل من المؤكد أنه كانت لدينا معركة في أي لحظة». ووضع كأسه على المائدة، وأردف قائلاً: «حسناً، إنهم الآن ميتون جميعاً، شكراً لله».

نظر دونالد بسرعة إلى السيد جوردون كأنه كان يراه لأول مرة.

«إن الثلج يتساقط!» صرخت الجدة بفخر. «انظر، إنها تمطر ثلجاً مرة ثانية. كنت أعرف أننا سنحظى بمزيد من الثلج المتساقط قبل حلول الظلام». لم تكن راغبة في أن يواصل السيد جوردون حديثه. راحت العمة لويزا تتشج فجأة، ثم نهضت، ومضت إلى داخل المطبخ. وتبعها العم أيفور.

«لماذا، يا دونالد! لقد حصلت على لحم الصدر!» صاحت العمة إميلي، «كل اللحم وسوف نقوم بتعليقها بعد ذلك فوق الموقد لتجف، وغدا سوف نتمنى عليها أمنية. ألن يكون هذا مبهجاً؟» التقطها بأصابعه وبدأ في مضغ قطع اللحم الأبيض الملتصقة بالصدر. وعندما انتهى من أكلها بعناية، انصرف وخرج بها إلى المطبخ.

كانت الحجرة هادئة تماماً، وكان إبريق الشاي يغلي على الموقد. بدا البرد المتساقط خارج النافذة داكناً في مقابل البياض

في الخلفية. كانت العمة لويزا جالسة على كرسي بلا ظهر، بشكل منحني، والمندبل في يدها، والعم أيفور مائل فوقها يتحدث معها بصوت منخفض. وضع دونالد عظم الصدر على رف حوض الغسل وشرع ينسل إلى الخارج على أطراف قدميه، لكن العم أيفور رآه. «هل تحب أن تصعد معي إلى حظيرة الدواجن، يا دونالد؟» قال. «يجب عليّ أن أحصل لنا على دسطة من البيض لأعود بها إلى روتلاند».

«سوف أحضر معطفي»، أخبره دونالد، وهو متلهف إلى الخروج قبل أن يعود والده إلى الطابق السفلي.

كان الطريق الصاعد إلى التل حيث توجد حظيرة الدواجن لم يتكون بفعل تنظيف الثلج على كلا الجانبين، بل عن طريق الثلج الذي وطئته الأقدام. وكان الثلج المتساقط حديثا ينجرف متراكما فوق الطريق، وفي بعض الأماكن كان الثلج قد غطاه بالفعل. عندما دخل العم أيفور إلى حظيرة الدواجن وقف دونالد ساكنا في مكانه، وهو يحني رأسه إلى الخلف ليتمكن من التقاط بعض البرد المتساقط إلى داخل فمه. «تعال إلى الداخل وأغلق الباب. سوف تجعل الحرارة تتسرب إلى الخارج»، قال العم أيفور.

«أنا قادم»، قال دونالد. ومضى عبر المدخل وأغلق الباب. كانت الرائحة بالداخل قوية جدا. بينما اقترب العم أيفور من الدجاجات، راحت تطلق غمغمة منخفضة مرتابة.

«قل لي يا دونالد»، قال العم أيفور بينما كان يستكشف القش بيده.

«ماذا؟» تساءل دونالد.

«هل تجري أمك كثيرا إلى حجرتها وتغلق الباب، بالطريقة التي فعلتها الآن توا؟»
«في بعض الأحيان».
«لماذا؟ هل والدك سيئ في معاملته لها؟»
«آه»، قال دونالد بغموض، «إنهما يتعاركان». كان يشعر بعدم ارتياح.
«نعم. حسنا، إنه لضرر فادح أن يتزوج أبوك. كان من الممكن أن يكون أفضل للجميع لو ظل وحيدا».
«لكن عندئذ لم أكن لأولد أنا على الإطلاق»، صاح دونالد، وهو غير متأكد إن كان العم أيفور جادا أم لا.
«على الأقل لم نكن نأمل في هذا!» قال العم أيفور، وهو يدير عينيه يمينا ويسارا وقد بدا سخيفا. أدرك دونالد الآن أن ذلك كان نوعا من الدعابة، فضحك. انفتح الباب بقوة. «دونالد!» زمجر والده بصوت عال.
«ما هذا؟» قال دونالد، وكان صوته ضعيفا جدا.
«اخرج وتعال إلى هنا!»
مشى باضطراب وارتباك نحو الباب؛ فقد كان والده يحدق في الداخل برؤية. «ما الذي تفعله عندك في الداخل؟» سأل.
«أساعد العم أيفور في البحث عن البيض».
«همف!» خطا دونالد إلى خارج الحظيرة وأغلق الباب.
راحا يسيران على امتداد الطريق باتجاه مزرعة سيمث سن. في الوقت الراهن كان والده يسير خلفه وهو يخزه في ظهره، قائلا: «أبق رأسك منتصبا، وصدرك إلى الخارج! هل ترغب في

أن تصبح شبه أحذب؟ قبل أن تصاب بذلك ستصاب بتقوس في العمود الفقري».

عندما أصبحا على مسافة بعيدة من البيت، في مكان ما حيث أضحت فيه كتل الأشجار الصغيرة تحف بالطريق على كلا الجانبين، توقف والده عن السير. وتطلع إلى ما حوله، ثم انحنى إلى أسفل والتقط حفنة من الثلج المتساقط حديثا، وكورها على هيئة كرة صلبة، ثم ألقى بها على شجرة كبيرة إلى حد ما، على بعد مسافة من الطريق، فتحطمت كرة الجليد، وتركت علامة بيضاء في جذع الشجرة الداكن. «دعنا نرك وأنت تصيبيها»، قال لدونالد.

قد يكون هناك ذئب جاثم في هذا المكان في إحدى البقاع خلف الظلمة الساكنة للغابات. كان من المهم جدا عدم التسبب في استثارته. إذا أراد والده المجازفة باستثارة الذئب وإلقاء كرات الثلج في الغابات، فبإمكانه القيام بهذا، لكن دونالد لن يرغب في هذا. فربما يفهم الذئب عندئذ أن دونالد، على الأقل، كان صديقا له.

«هيا»، قال والده.

«لا. أنا لا أرغب في هذا».

قال والده بدهشة متصنعة: «آه، لا ترغب في هذا؟» ثم أصبح وجهه منذرا بالخطر وصوته حادا مثل لسع السوط. «هل ستفعل ما أمرتك به؟»

«لا». كانت المرة الأولى التي يتحداه فيها دونالد علانية.

لدرجة أن والده صار شديد الحمرة من الخجل.

«استمع لي، أيها التافه الصغير!»، صرخ والده، وكان صوته مفعما بالغضب، «هل تعتقد أنك سوف تقلت بفعلتك هذه؟» قبل أن يدرك دونالد ما كان يحدث، أمسك به والده بيد واحدة بينما انحنى وبيده الأخرى حضن من الثلج بقدر ما أمكنه. «سنقوم بتسوية هذه الأمر البسيط توا»، قال من بين أسنانه، وفجأة راح يمسح الثلج بعنف في وجه دونالد، وفي الوقت نفسه الذي كان فيه دونالد يلهث وهو يتلوى من الألم، كان والده يدفع ما تبقى من الثلج أسفل عنقه وإلى ظهره. عندما شعر دونالد بكتلة الثلج الباردة المبتلة تنزلق على ظهره، انحنى. كانت عيناه مغلقتين بإحكام؛ وأصبح على يقين من أن والده كان يحاول أن يقتله. باندفاع يائس قفز متحررا من قبضة أبيه فشعر بنفسه وقد سقط على الأرض ووجهه في الثلج.

«أنهض»، قال والده باشمئزاز. لكن دونالد لم يتحرك. إذا تمكن من إمساك تنفسه لفترة طويلة قدر الإمكان فقد يموت. جذبه والده بعنف وأوقفه على قدميه. «لقد ضقت ذرعا بدعاباتك السخيفة»، قال. وأمسك به بإحكام بكلتا يديه، وأجبره على أن يسير متعثرا أمامه، عائدين في ضوء الشفق إلى البيت. كان دونالد يتقدم في سيره، وهو ينظر إلى الطريق الأبيض أمامه، وعقله خال من الأفكار. كان قد انتابه إحساس غير مألوف: بأنه غير آسف على نفسه لكونه قد أصيب بالبلل والبرودة، أو حتى بالاستياء لكونه قد أسئئت معاملته. أحس بالانفصال والاستقلالية، وقد كان إحساسا مقبولا ومثيرا حسيا قبله من دون أن يفهمه أو يسأل عنه.

بينما كانا يتقدمان إلى أسفل الممر الطويل الذي تحفه أشجار القيقب على كلا الجانبين في ضوء الغسق قال والده: «الآن بإمكانك أن تذهب وتبكي في حجر أمك».

«أنا لا أبكي»، قال دونالد بصوت عالٍ، من دون أدنى تعبير من جانبه. ولم يرد والده.

لحسن الحظ أن المطبخ كان خالياً. كان بإمكانه أن يتبين من جلبة الأصوات في الردهة أن العمة لويزا والعم أيفور والسيد جوردون كانوا يستعدون للمغادرة. جرى دونالد إلى الطابق العلوي حيث حجرته وقام بتبديل ملابسه كلها. كان الثقب الذي صنعه بأنفاسه في الثلج المتراكم فوق زجاج النافذة قد تجمد مرة ثانية بشكل أكثر كثافة، لكن العلامة المستديرة كانت ما تزال مرئية حتى الآن. بينما كان قد انتهى لتوه من ارتداء ملابسه نادته والدته. كان الليل قد أظلم تماماً في الخارج. هبط إلى الطابق الأسفل. كانت والدته واقفة في مدخل الصالة.

«آه، لقد غيرت ملابسك»، قالت. «تعال إلى الخارج وقل إلى اللقاء إلى العمة لويزا والعم أيفور، إنهما في المطبخ». نظر بسرعة في وجهها ليرى إن كانت هناك علامات خلفتها دموع حديثة. كانت عيناها محترقتين بالدم قليلاً.

مضى مع أمه إلى المطبخ. «دونالد يريد أن يقول لك إلى اللقاء»، قالت للسيد جوردون، وهي تقود دونالد إلى حيث تجلس العمة لويزا. «لقد منحته عيد ميلاد رائعاً» - وقد أصبح صوتها محملاً بالعتاب - «لكنه كان سعيداً جداً أكثر من اللازم».

كانت الياقة السمكة لمعطف السيد جوردون مرفوعة إلى مستوى أذنيه، وكان مرتديا قفازا من الفراء الفخم. ابتسم ثم صفق بيديه يحدوه الأمل؛ فصدر عنهما صوت خفيض. «آه، لقد كان ممتعا بدرجة كبيرة»، قال. «إنه يذكرني بنفسى قليلا، هل تعرفين، عندما كنت في مثل سنه. كنت من نوعية الصبية الخجولين الهادئين، أيضا». شعر دونالد بأن يدي والدته كانتا تشدان على كتفه بينما كانت تدفعه نحو العمة لويزا. «ممم»، قالت. «حسنا، أيتها العمة لويزا، ثمة شخص يريد أن يقول لك إلى اللقاء».

حتى في غمرة انفعاله وهو يشاهد الخال ويلييز والخال جريج وهما يقلان الآخرين في عربة الجليد، لم يكن دونالد غافلا عن حقيقة أن أباه لم يظهر في المطبخ على الإطلاق. عندما تحركت عربة الجليد واختفت عن الأنظار في عمق الطريق، دخل الجميع إلى البهو، وعمد الجد إلى وضع كتلة خشب أخرى في النار. «آين أوين؟» قالت الجدة بصوت منخفض إلى أم دونالد. «لابد أنه في الطابق العلوي. إذا أردت الحقيقة، أنا لا أعبأ كثيرا آين هو».

«يا لطفلي المسكينة»، قالت الجدة. «هل خفّ الصداق قليلا؟»

«قليلًا»، قالت وهي تتنهد. «لقد تمكن بكل تأكيد من انتزاع كل المتعة من عيد الميلاد عندي».

«شيء مخجل ووضيع»، قالت الجدة. «لم أنظر إلى وجه أيفور إلا الآن فقط، هذا كل ما كان بوسعي أن أفعله. صدقيني، لقد تعمدت هذا».

«أنا متأكدة من أنهم جميعا قد تفهموا الموقف»، قالت الجدة بطريقة مهدئة وملطفة. «لا تغتاظي في ما يتعلق بهذا الأمر. على أي حال، سيرحل أوين غدا، وسوف تنعمين بالراحة». بعد رجوع الخال ويلييز والخال جريج بوقت قصير، هبط والد دونالد إلى الطابق السفلي. كان تناول وجبة العشاء يتم في صمت كلي مطبق، لم يتحدث والد دونالد إليه على الإطلاق ولم يعطه أي اهتمام. وبمجرد انتهاء الوجبة أخذته والدته إلى السرير في الطابق العلوي.

عندما تركته، كان مستلقيا في الظلام وهو ينصت إلى صوت الثلج الرقيق بينما كانت الريح تطوح به في مقابل ألواح الزجاج. كان الذئب هناك في الخارج في ظلام الليل، يعدو عبر الطرق التي لم يسبق لأحد أن رآها، إلى أسفل التل وعبر المرمى، ثم توقف ليشرب من مكان عميق في الجدول حيث لم يكن الجليد قد تشكل بعد. كان شعر فروته الصلب قد علق به الثلج، فهز نفسه وعدا إلى أعلى الضفة حيث كان دونالد جالسا في انتظاره. ثم تمدد على الأرض إلى جواره، ووضع رأسه الثقيل في حجر دونالد، فانحنى دونالد فوقه ودفن وجهه في فراء مؤخرة عنقه الأشعث. وبعد فترة نهضا كلاهما وشرعا في العدو معا، أسرع فأسرع، عبر الحقول.

تابياما

كان النهر يقع خلف الفندق مباشرة. لو كان يأتي من أرض بعيدة جدا لكان سيصبح عريضا وساكنًا، لكن لأنه كان في الحقيقة مجرد قناة وحيدة تمتلئ بمياه الأمطار، وكان قاعها تكثر فيه الصخور الضخمة، فقد كان يصدر ضوضاء هادرة جعلت المصور يخطئ فيظن أنها مزيد من هطول الأمطار خارج الفندق. أصابته الرحلة والحرارة بالتعب، كان قد تناول السمك المقلي البارد وعجة البيض (الأومليت) الذي نرّ مادته الشحمية التي قلي بها وكان صعب المضغ، ومعجون الفول البني مع الأرز والموز المشوي، وكانت قد استبدت به فجأة رغبة قوية في النعاس كالتّي تتجم عن تناول مخدر. وهو يترنح إلى سريره، تحرر بسرعة من قميصه وبنطلونه، ورفع شبكة الناموسية المتبسة التي بعثت برائحة الغبار، وسقط كالحجر على المرتبة، لم يلحظ عدم ليونتها إلا قبل أن يغط في النوم.

لكنه عندما استيقظ في أثناء الليل أدرك أنه كان ينام بطريقة خاطئة سببت له عسر هضم، قال لنفسه وهو يحدق في الظلام فوق رأسه إنه كان من الصعب أن يجد طريقه إلى الراحة مرة أخرى. وفي ذاك الوقت أصبح على دراية بثبات الصوت الخلفي لليل، الذي كان يحسبه بسبب المطر. من وقت إلى آخر، على مسافة بعيدة فوق رأسه (كيف يمكن للسقف أن يكون على هذا الارتفاع؟) كان الضوء الضعيف غير المستقر لوميض حشرات الليل يصدر شيفرته غير المفهومة للحظة أو لحظتين.

كان مستلقيا على ظهره، شيء ما صغير كان يزحف إلى أسفل صدره. وضع يده هناك، كانت قطرة عرق تتحرك في ببطء. كانت الملاة الخشنة القاسية مبتلة تحته. أراد أن يتحرك، لكن إذا تحرك بالفعل فلن تكون هناك نهاية للتحرك، وسيصبح كل مكان جديد يتحرك إليه غير مريح بشكل أكثر من السابق. كان شخص ما في ظلمة الغرفة المجهولة المجاورة يسعل من وقت إلى آخر، ولم يكن بإمكانه أن يحدد إن كان رجلا أو امرأة. الوجبة التي كان قد تناولها لم تزل باقية في معدته مثقلة بإياها وكأنها عشر وجبات. وبشكل بطيء كانت ذكرى الوجبة تزحف في رعب غامض، بصفة خاصة الأومليت البارد الثقيل الذي كان يلمع بالشحم.

كان الاستلقاء هناك واستنشاق الغبار من شبكة الناموسية يشبه حبس المرء داخل جوال من الخيش. كان الخروج إلى الشارع والنزهة هو ما أراده، لكن كانت هناك صعوبات. فقد أخبره الرجل العجوز الذي يدير الفندق أن الكهرباء تنقطع في منتصف الليل. وبدلا من أن يضع أعواد الثقاب تحت وسادته تركها في جيب بنطلونه، ولم ترق له فكرة سيره على الأرضية حافي القدمين من دون مصدر ضوء. بالإضافة إلى ذلك، ذكر نفسه، وهو ينصت مرة ثانية إلى الهدير البعيد الهائل والغريب هناك في الخارج، أن السماء تمطر. لكن الحركة على امتداد الشوارع، الصامتة والخالية تماما في الوقت نفسه، حتى لو كانت تحت المطر غير المرئي، ستكون ممتعة... إذا بقي مستلقيا في سكون تام، فربما يعاوده النوم. وفي النهاية اتخذ قراره، في غمرة اليأس أبعد الشبكة جانبا في قوة وقفز من السرير،

وعبر الحجرة باتجاه الكرسي الذي كان قد ألقى عليه ملابسه. تمكن من ارتداء قميصه وبنطلونه مستخدماً ثلاثة أعواد ثقاب فقط، طرق حذائه فوق الأرضية الخرسانية عدة مرات في الظلام، ليسقط منه أم أربعة وأربعين أو أي عقرب يحتمل أن يكون قد تسلل داخله. ثم أشعل عود الثقاب الرابع وفتح الباب المؤدي إلى الفناء. لم تكن الظلمة حالكة في الفناء في ذلك الوقت. كانت أصص النباتات الضخمة مرئية في ضوء الليل الشاحب الرصاصي اللون، لكن السماء، المختنقة بسحابة لا يمكن لضوء النجوم أن يخترقها، بدت غير موجودة هناك على الإطلاق. لم يكن هناك مطر. «لابد أن النهر قريب جداً»، فكر المصور.

سار بطول الممر المسقوف، وهو يحتك بأطراف نباتات الأوركيد التي تدلت من السلال والجرار الموضوعة على الأفاريز، ويصطدم بقطع الأثاث المصنوعة من القش المضفر، حتى وجد باب المدخل، وكان مغلقاً برتاج (ترياس) مزدوج. سحب الرتاجين المعدنيين بعناية وسحب الباب فاتحاً إياه، ثم أغلقه خلفه. كان ظلام الشارع عميقاً مثل ظلام الفناء، والهواء لا يزال ساكناً مثلما كان تحت الناموسية. لكن كانت له رائحة غير محددة لنباتات خضراء، رائحة حلوة للاكتمال التام والاستنفاد.

انعطف إلى اليسار، في اتجاه الشارع الرئيس الطويل الخالي الذي اصطفت على جانبيه مبان ذات طابق واحد، والمؤدي مباشرة إلى أسفل حيث الممشى الجانبي المخصص للسير(*) على امتداد البحر. وبينما كان يتقدم في سيره، أصبح هواء المنازل

(*) وردت بالإسبانية [المترجم].

الساخن الساكن محملا بالرائحة المنعشة النقية للطحالب والأعشاب التي على الشاطئ. كان يضطر عند تقاطع كل شارع إلى النزول ست درجات إلى مستوى الطريق الرئيس، ثم يجتازه، وبعد ذلك يصعد مرة ثانية إلى الممشى الجانبي على الرصيف. في موسم المطر، كما أخبره مالك الفندق(*)، يوجد هناك زورق عند كل ناصية لنقل المارة من جانب إلى آخر. مثل الامتزاج بين روائح الأرض والبحر التي كان يتنفسها، كان قد استحوذ عليه إحساسان متعارضان لكنهما متقاطعان ومتشابكان في الوقت نفسه: الراحة التي تصل حد السرور تقريبا، وإحساس خافت بالغثيان الذي قرر أن يقاومه بقوة لأنه أحس بأن عدم القدرة على ترك كل إحياء بالمرض خلف ظهره كان يعني النقص في قوته. حاول أن يضخ المزيد من الحيوية والنشاط في سيره، لكنه اكتشف على الفور تقريبا أن الجو كان ساخنا جدا للقيام بأقل قدر ممكن من المجهود. كان غارقا تماما في عرقه أكثر مما كان عليه في سريرته. أشعل سيجارة من نوع أوفالادو. كان المذاق الحلو للتبغ جزءا من الليل.

كان الممشى الجانبي الذي يحد الجبهة البحرية طوله نصف ميل تقريبا. تصور أنه ستكون هناك حركة طفيفة جدا للهواء في ذلك المكان، لكنه لم يشعر بأي اختلاف. ومع ذلك، فقد كان هناك من وقت إلى آخر صوت حميم هادئ لموج يتكسر برفق فوق الرمل في الأسفل مباشرة. جلس على السور المنخفض واستراح، على أمل أن يحظى بقليل من البرودة. لم يكن من الممكن رؤية

(*) وردت بالإسبانية [المترجم].

البحر. كان بإمكانه الجلوس فوق قمة جبل مغطى بالسحب، والظلام من أمامه كان سيصبح بلا شكل محدد ويكتنف جميع الجهات. لم تكن لضوضاء البحر العارضة أي عمق في داخلها، مثلما كان لأصوات البحر، التي كانت تحدث كأنها في فناء مغلق شديد الاتساع. كان البلاط الخرساني الذي يجلس عليه رطباً، وبارداً قليلاً بالمقارنة بحرارة جسمه هو. أشعل سيجارتين ثم أرهف سمعه لسماع صوت ما، صادر بطريقة غير مباشرة، عن عنصر بشري. لكن لم يكن هناك أكثر من الانزلاق المتقطع للمياه وامتصاصها الكسول في الأسفل على الشاطئ. ألقى بنظرة سريعة في جميع أنحاء المشى الجانبي الخالي، كان هناك ضوء بعيد على امتداد الشاطئ في اتجاه الغرب، كان ضوءاً برتقالياً، يلمع بشكل متذبذب: هل هي نار مشتعلة؟ استأنف السير ببطء أكثر من ذي قبل، وكان اللهب البعيد أمامه مباشرة هو النقطة الوحيدة المضيئة في المنظر كله.

كانت هناك مجموعة درجات عريضة لسلم حجري تقضي إلى الشاطئ. وبعدها مباشرة، أمكنه رؤية الهيكل الخفيف الفارغ لرصيف بحري على شكل لسان بُني فوق المياه. وقف ثابتاً في مكانه وراح ينصت. بدا المس الرفيق المتقطع للأمواج الصغيرة حول الدعامات كما لو أنه كان يحدث في غرفة التسجيلات بصدى الصوت.

جرى بخفة هابطاً الدرجات وممر من أسفل اللسان. كان السير على الرمل بالتأكيد يبعث على البرودة أكثر مما في المشى الجانبي. وشعر في ذلك الوقت بأنه أكثر يقظة عن ذي قبل، فقرر أن يرى مدى الاقتراب الذي سيصل إليه من مصدر

الضوء في العمق سيرا على الشاطئ في غضون خمس عشرة دقيقة. كانت سرطانات البحر الملونة بتأثير الليل تسرع على امتداد الرمل أمامه مباشرة، في صمت تام وغير مرئية تقريبا، قبل أن يطاء الرمل بقدميه. بينما بعد نهاية المشى الجانبي بقليل تراجع الرمل وأفسح مكانا لسطح مرجاني صلب كان من السهل السير فوقه. وبدافع من الحرص حافظ على قربه من حافة الماء قدر الإمكان.

كان هناك اختلاف كبير بين هذا السير والنزهات الأخرى التي كان قد قام بها في منتصف الليل قبل ذلك، وشعر بميل لأن يتساءل عن السبب الذي جعل هذا السير ممتعا ولطيفا جدا. ربما كان مستمتعا ببساطة لأن الجو العام هنا كان من الحرية الخالصة، كان غير مُقيد بالمرة. لم يكن يبحث عن أي شيء، وجميع الكاميرات كانت في حجرته بالفندق.

بين الفينة والأخرى كان يرفع عينيه عن الأشكال الباهتة للمرجان الذي تحت قدميه، الشبيهة إلى حد كبير بالمخ البشري وينظر نحو اليابسة، ليرى إن كان بوسعه تبين أي علامات تدل على وجود مساكن. بدا له أنه قد تكون هناك كتبان رملية على مسافة بضعة مئات من الأقدام إلى الوراء، لكن في غياب الضوء كان من المستحيل حتى التأكد من هذا إلى حد بعيد. كان العرق يسيل إلى أسفل عموده الفقري حتى عصعصه، وينزلق بين ردفه. ربما تكون فكرة التجرد تماما من ملابسه أفضل، لكن عندئذ ستكون هناك مضايقة ناجمة عن حمله للملابسه، وهو يريد أن تبقى يداه حرتين، حتى لو كانت هناك خطورة في الإصابة بالتقرح.

كانت مسألة الحرية محكومة بقانون تناقص الغلة(*)، هكذا قال لنفسه، وهو يسير بشكل أسرع. إذا مضيت إلى نقطة معينة أبعد من شدة إحساسك بالرغبة في الحرية، فأنت بذلك تضمن عدم بلوغها. على أي حال، فكر المصور وتساءل ما الحرية في التحليل النهائي، أكثر من كونها مسألة موجودة بشكل كلي، بدلا من وجودها بشكل جزئي، فهي متوقفة على سطوة الاحتمال والمصادفة؟

لم يكن ثمة شك في أن هذا السير كان يبذل التأثير الضار لعسر الهضم الذي ألم به. ينبغي عليه الوصول إلى المكان أو النقطة في غضون ثلاث دقائق، كما يشير عقرب الدقائق المضيء في ساعته، وقد بدا الضوء البرتقالي في المقدمة أصغر مما كان عليه من البلدة. لماذا خمس عشرة دقيقة تحديدا؟ ابتسم للنمط المدني المحدد الذي تحرك فيه عقله بطريقة تلقائية، لو رفع ذراعه لأمكنه ملازمة السماء، ستكون رطبة، ودافئة وطرية على نحو حسي مثير.

والآن على مسافة إلى الأمام، في اتجاه اليابسة، سمع أصواتا تعرف عليها من فوره حيث كانت أصوات المئات من الضفادع الصغيرة. كان الضوء، بعدما تفحصه جيدا، يتحرك بطريقة غريبة، إلى أعلى وإلى أسفل في رفق، ويمينا ويسارا أيضا، لكن من دون أن يبدو عليه تغيير في مكانه. فجأة أصبح الضوء لهبا كبيرا يقذف بقوة إلى أعلى مجموعات متلاحقة من الشرار الأحمر المتطاير، ففهم أنه قد وصل. كانت النار تحترق في

(*) قانون تناقص الغلة: قانون يقول إن زيادة العمل أو رأس المال إلى أبعد من نقطة معينة لا يترتب عليها زيادة مناسبة في الإنتاج [المترجم].

أرضية زورق يتأرجح برفق أمامه، لا يبعد أكثر من مائة قدم. كان يقف فوقه رجل عار تماما، وهو يقذف فيه بأفرع أشجار النخيل. توقف المصور عن السير وأنصت لعله يسمع أصواتا بشرية، لكن كورس الضفادع السعيدة كان يملأ الهواء. سار إلى الأمام عدة خطوات وقرر أن ينادي عليه، بالإسبانية «مرحبا!» استدار الرجل في الاتجاه المعاكس، ثم قفز إلى الجانب القريب من الزورق (كان الماء ضحلا إلى حد بعيد) وجاء يجري إليه.

ومن دون أن يرد على تحيته، ربما اعتبرها صادرة عن شخص آخر غيره، قال الرجل بالإسبانية: «تابياما؟ هل تود الذهاب إلى تابياما؟» لم يسبق للمصور من قبل أن سمع عن تابياما، لذلك تلجلج قليلا وفي النهاية قال بالإسبانية، «نعم»، وعندئذ أمسك الآخر بذراعه وجذبه إلى حافة المياه. «الجزر على وشك الانتهاء، سنمضي في غضون دقيقة».

كان بوسعه رؤية شخصين آخرين في الزورق، راقدين على الأرضية، في الجانبين بجوار النار، وبعيدين عن حرارتها قدر الإمكان. جلس المصور القرفصاء وخلع حذاءه وجوربه، ثم خاض في المياه إلى حيث الزورق. عندما وقف في منتصفه، وكانت النار لا تزال تططق في تألق وسطوع، استدار وراقب الرجل العاري وهو يفك الحبل الذي كان يمسك بالزورق في مكانه.

«إن الأمر برمته غير معقول». لم يكن بوسعه سوى الارتياح في تلك الطبيعية الشديدة التي كان يحدث بها كل هذا: اللامبالاة التي قوبل بها وصوله المفاجئ من جانب الركاب،

وربما حتى ما هو أكثر من ذلك، هذا التوقع والاستعداد المثير للريبة إلى درجة كبيرة من جانب صاحب الزورق للتحرك في الحال عقب وصوله مباشرة. قال لنفسه، «لا تحدث الأمور بهذه الطريقة»، لكن نظرا إلى أنها من دون شك كانت تحدث بهذه الطريقة، فإن أي سؤال عن الكيفية يمكن أن يؤدي فقط إلى طريق الإصابة بالبارانويا. هبط إلى أرضية القارب وأخرج علبة الأوفالادو. المراكبي العاري، الذي كان قد لف الحبل المبتل حول ساعده الأسود مثل إسورة، قفز على متن الزورق، ودفع بمقدمة إصبع قدمه الكبير أحد الركاب المستلقين الذي تحرك بدوره، ونهض على ركبتيه، وألقى بنظرة انزعاج وضيق خاطفة وسأل: «أين هو؟»، من دون أن يجيبه ناوله صاحب الزورق أقصر صاري في الصاريين اللذين كانا موضوعين بطول حافة الزورق. بدأ معا في دفع الزورق على امتداد السطح غير المرئي للمياه. كانت الأنشودة الصادرة عن الضفادع وضوء النار الساطع تملأ الليل.

بعد إجابته بـ «نعم» عن السؤال الخاص بتاياما، شعر المصور بأنه ليس بمقدوره تقريبا القيام بخطوة تراجعية والسؤال «ما تاياما؟» أو «أين تقع تاياما؟» ولذلك، بقدر ما كان يود أن يعرف، بقدر ما قرر الانتظار. هذا المسطح المائي الضحل تحتهم، مصب أم بحيرة ضحلة قريبة من البحر أو متصلة به؟ الاحتمال الأكبر أنه نهر، بما أن صاحب الزورق قال إن الجزر كان قد انتهى. لكنه لم يكن هو الجدول نفسه الذي كان قد سمع مرور مياهه المزعجة بين الصخور وهو في سريره.

كانوا يواصلون دفع الزورق من وقت إلى آخر. ويشقون طريقهم تحت كتل النباتات العالية حيث كان نقيق الضفادع يغطيه لفترة وجيزة صوت آخر، غامض ووحشي، يشبه التمزيق المفاجئ للملاء كبيرة من الكتان القوي. بين الحين والآخر كان شيء ما صلب وثقيل يرتطم بسطح المياه في الجوار، كما لو أن رجلاً يسقط في المياه. وأحياناً بشكل عرضي كان الراكب الآخر يرفع نفسه مستنداً على مرفقه ومن دون مجهود كبير يتمكن من إنعاش النار التي كانت تذوي، مستعينا بألياف نخيل أخرى جافة.

ربما انقضى أقل من ساعة قبل أن يصلوا إلى منطقة التوقف والرسو في الطين. وثب الراكبان الآخران إلى الخارج وأسرعاً بعيداً في الظلام. بعدما ارتدى صاحب الزورق سروالاً قصيراً، ضرب برفق ذراع المصور وطلب منه ستين سنتافو. فأعطاه خمسة وسبعين وتسلق بجهد إلى خارج الزورق في الطين الناعم، وحذاؤه في يده.

«انتظر لحظة»، قال الرجل. «سأتي معك. كان المصور مسروراً. عندما انتهى المراكبي - الذي بدا ذا بشرة أكثر سمرة في سرواله الأبيض القصير - من تثبيت الزورق إلى جذع شجرة مغروسة في الطين، تقدم كتلة من الشجيرات، وقال بشكل عرضي: «هل سترجع غداً إلى الجانب الآخر؟»
«الجانب الآخر؟ لا».

«ألست هنا بفرض المرافقة؟». كان الصوت يوحي بأن الوجود هنا لفرض آخر غير المرافقة، ما أدى إلى ارتياح في الشخص من جميع النواحي.

حان الوقت لكي يكون صادقا، كان خائفا، على الرغم من أنه لم يستمتع بالوضع الذي عرف أنه سيضع نفسه فيه. «لم يسبق لي أن سمعت عن المرافقة»، قال. «لقد وصلت الليلة إلى ريو مارتيلو. أي نوع من المرافقة؟»

«النوع الحلو»، قال الآخر. ثم وقف ساكنا في الظلام وتكلم ببطء قائلا: «إذن(*) لماذا جئت إلى تابياما؟ إنهم لا يحبون هنا أصحاب الملايين(**)، هل تعرف». فهم أن هذا كان مصطلحا ساحليا ساخطا مخصصا للأمريكيين، فكذب المصور بسرعة قائلا: «أنا دانماركي»، لكنه أحس أن صوته كان يفتقر إلى الإقناع فأضاف على الفور: «هل سنخوض في المزيد من الطين، أم أن بإمكانني ارتداء حذائي؟»

شرع الرجل في السير مرة ثانية وهو يقول ملتفتا إلى الخلف: «اغسل قدميك في الحانة إذا أحببت». وخلال دقيقة كانا قد وصلا إلى هناك، كان المكان كله يلفه ظلام مفتوح، وبه مجموعة من الأكواخ المصنوعة من جريد وسعف النخيل في طرف منه، وفي الطرف الآخر رصيف تحميل بحري على الأرجح، وكانت الحانة، الواقعة بين فراغ الليل والمياه المفتوحة من خلفها، وفي المنتصف بين الرصيف ومجموعة المساكن، مجرد كوخ كبير جدا من دون حائط أمامي.

كان هناك ضوء خافت يأتي من الداخل، ولم يكن هناك من صوت سوى صوت الضفادع في جميع الجهات، والاحتكاك الخشن المهتاج بين الفينة والأخرى في الأفرع عاليا. «لماذا المكان

(*) وردت بالإسبانية [المترجم].

(***) وردت بالإسبانية [المترجم].

مفتوح حتى هذه الساعة؟» سأل المصور. توقف المراكبي في وسط المنطقة الخالية وضبط سرواله بسرعة. ثم قال: «يفتحه دون أوكتافيو من السادسة صباحا حتى السادسة مساء. ويديره أخوه من السادسة مساء حتى السادسة صباحا. فالشركة تصرف الرجال من العمل في ساعات مختلفة، وهم يأتون إلى هنا بأجورهم(*) لينفقوها. إنهم يفضلون المكان هنا عن البيت، فلا يوجد هنا الكثير من البعوض». كان خيال المصور هو الذي جعل صوت الرجل يبدو ساخرا بينما كان ينطق بالكلمات الأخيرة. واصل سيرهما عبر الخلاء ثم خطوا إلى داخل الحانة.

لم تكن هناك أرضية، فقد كانت الأرض مغطاة بالرمل الأبيض. وركبت طاولة (كاونتر) من ألواح الخشب بشكل مائل بطول أحد الأركان البعيدة. في المكان مصباح زيتي يحترق وينفث دخانه ورجلان واقفان يتناولان الشراب. كانت صناديق التعبئة الخشبية مبعثرة هنا وهناك، بعضها مرصوص في المؤخرة وفوقها زجاجات بيرة فارغة، وهناك صناديق أخرى إلى جانبها، لاستخدامها كمقاعد. «المكان هادئ تماما وكثيب»، علق المراكبي بالإسبانية، وهو يلقي نظرة سريعة في أرجاء المكان. ثم مضى إلى خلف البار واختفى عبر باب صغير هناك في الحائط. بخلاف الرجلين الواقفين، اللذين توقفوا عن التحدث ويحدقان في المصور، لم يكن ثمة أحد آخر في المكان. قال لنفسه «عندما ترتاب أو تشك في الأمر، تحدث»، ثم تقدم نحوهما، على الرغم من أنه قد خطر له أيضا أن ما ينبغي عليه فعله فقط هو،

(*) وردت بالإسبانية - [المترجم]

«عندما ترتاب أو تشك، اصمت»، حتى أنه عندما فتح فمه ليقول بالإسبانية: «ليلة طيبة»، لم تتغير تعبيراتهما بأي طريقة كان في إمكانه تبينها. استمرا في التحديق فيه ثلاث ثوان كاملة قبل أن يردا عليه، وهو ما فعلاه معا في الوقت نفسه تقريبا. لاحظ أنه لم يكن هناك شيء مشترك بين هذين الاثنين: فأحدهما جندي يرتدي زيا رسميا، صبي هندي ربما في الثامنة عشرة، والآخر الذي يبدو عليه التعب خلاسي مدني غير محدد العمر. أو ربما - خطرت إليه الفكرة بينما كان يضع مرفقه على البار بحركة تتم عن عدم الاكتراث - على الأقل تولد بينهما تنافر مشترك، بعد دخوله إلى الحانة. «آه، حسنا، إنني حافي القدمين وحذائي مغطى بالطين»، فكر «هل يوجد أحد هنا؟» قال بصوت عال بالإسبانية وهو مستند إلى الحائط المصنوع من ألياف النخيل. لم يستأنف الاثنان محادثتهما وأيضا لم يمضيا معه في الحديث أكثر من هذا، وهو لم يدر رأسه نحوهما مرة ثانية. وفي تلك اللحظة انفتح الباب الصغير واندفع عبره رجل بدين. وقف ويداها ممدودتان على البار، وحاجباه مرفوعان في توقع انتظارا لما سيطالبه. «سأخذ كمبيامبا»، قال المصور، متذكرا اسم المشروب المفضل لدى سكان المنطقة الساحلية، وهو كوكتيل من أعشاب مشهور بآثاره الغادرة.

كان المشروب كريه الطعم لكنه قوي. بدت الكأس الثانية أفضل. مشى المصور إلى الجانب المفتوح من الحانة وجلس فوق صندوق تعبئة، وتطلع إلى الليل الهلامي الذي لا شكل له. كان الاثنان عند البار يتكلمان مرة ثانية بنبرات منخفضة. لم تنقض

فترة طويلة قبل أن يظهر خمسة رجال من نهاية الرصيف في الخلاء، وانتشروا من دون نظام ووقفوا على البار، وهم يضحكون بينما كانوا ينتظرون مشروباتهم. كانوا كلهم ذوي بشرة سوداء، ويرتدون السراويل فقط، مثل المراكبي. حضرت الآن فتاة ذات أسنان ذهبية عبر الباب الصغير الموجود خلف البار وانضمت إليهم. لكنها أدركت على الفور أن المصور كان جالسا بمفرده، فسلكت طريقها نحوه عبر المكان المفتوح. عندما وصلت إليه، جلست القرفصاء بجانبه ثم ابتسمت ابتسامة عريضة. كانت الضوضاء الناجمة عن الضحكات عند البار غير كافية للتغطية على صوتها الرفيع، الذي جاء حادا ومشحونا بالغضب: «يا لك من خشن فظا! بينديجو!»^(*). ورجعت مرة ثانية إلى البار وقدم أحد العمال البيرة لها. على الرغم من أن المصور لم يكن متعمدا ركلها، فإنه لم يشعر بأي أسف على الشكل الذي اتخذته الحادث. بدا أن كأسى الكميابا قد بدأ تأثيرهما، فقد بدأ يشعر بأنه على ما يرام جدا. ظل جالسا برهة، وهو ينقر بأطراف أصابعه إيقاعات على جانب كوبه الفارغ. بعد فترة وجيزة حضر إلى الحانة عمال زنوج آخرون وانضموا إلى الآخرين عند البار. كان أحدهم يحمل جيتارا وجلس ليعزف عليه قطعة موسيقية صغيرة من موسيقى وترية على أنغام لحن فشل في عزفه. وعلى الرغم من أن الموسيقى كانت من النوع الرديء، فإن الجميع كانوا مسرورين بها. من المحتمل أن الصوت قد تسبب في إيقاظ كلاب القرية، فقد بدأت في إطلاق «كورس» غاضب

(*) وردت بالإسبانية [المترجم].

من النباح، وكان هذا النباح مسموعا بصفة خاصة للمصور الذي كان جالسا في المدخل، وقد تسبب في إصابته بالضيق. نهض وانتقل إلى صندوق فارغ بجانب الحائط المقابل، مسندا رأسه إلى عمود خشبي خشن كان دعامة من دعامات السقف. على مسافة قدم أو نحو ذلك فوق رأسه مباشرة كان هناك شيء ما غريب مدلى من مسمار. من وقت إلى آخر كان يدير عينيه إلى أعلى ويتفحصه.

فجأة قفز المصور واقفا وبدأ ينظف ظهر رقبته ورأسه. كان العمود من خلفه يعج بالنمل الصغير، آلاف وراء آلاف: كان شخص ما قد علق أفعى مرجانية مفضنة على المسمار، وقد جاء النمل لأكل لحمها. استغرق الأمر منه فترة طويلة كي لا يشعر بمزيد من الحشرات تجري فوق ظهره، وفي تلك الأثناء حضر شخصان آخران إلى الحانة، لم يلحظ إن كانا قد قدما من الخارج أو عبر الباب الواقع خلف الطاولة، وجلسا بينه وبين البار بطريقة جعلتهما يجلسان في مواجهته. بدا الرجل العجوز من أبناء الشمال الاسكندنافي، ومن الممكن أن يكون الولد البريء الذي معه ذو الساق الواحدة إسبانيا، كان الرجل العجوز يحكي للولد قصة طريفة، وهو يميل تجاهه باهتمام كبير، كان بين الحين والآخر يوخز ذراع الولد بسبابته ليلفت انتباهه إلى إحدى النقاط، لكن الولد كان شارد الفكر تماما وكان يصنع على الرمل تصميمات بطرف عكازه.

نهض المصور، لم يسبق له من قبل أن انتابه مثل هذا الأثر من جراء كأسين. «إحساس غريب جدا»، قال لنفسه، «غريب

جدا»، قال مكررا جهرًا لكن في صوت هامس بينما كان متوجها نحو البار لطلب كأس أخرى. لم يكن إحساسه بالسكر شديداً إلى درجة أن يصبح شخصا آخر وليس هو ذاته، شخصا ما كان العيش وممارسة الحياة في نظره شيئاً شديداً الاختلاف عما كان يعتقد أنهما عليه، وهذا الشخص الذي ترك غريبا في منطقة إحساس بعيدة عن أي إحساس عرفه من قبل. لم تكن الحالة بغیضة: فقط كانت غير محددة وغير قابلة للتحديد. «ديسبينسيم»، قال بالإسبانية للزنجي الطويل المرتدي طاقما من ماركة «بي في دي أس» مخططا بألوان قرنفلية وبيضاء ثم أعطى كأسه الفارغة إلى عامل البار البدين. أراد أن يرى ما الذي كان يدخل في تركيب الكمبياما، لكن عامل البار فعل كل شيء بسرعة تحت الكاونتر وأعاد إليه الكأس ممتلئة بعض الشيء بخليط الرغوة الوفيرة. تناول منها جرعة جيدة ملء فمه ثم وضع الكأس على الكاونتر، بينما كان يستدير قليلا إلى جهة اليمين. كان الجندي الهندي واقفا إلى جواره، وفي الزاوية العلوية من قبعته وجه أمامي لأحد سكان أمريكا الأصليين. «لماذا يضع الجيش مثل هذه الحافة الأمامية الكبيرة في القبعات؟» تساءل المصور متعجبا بينه وبين نفسه.

رأى أن الجندي كان على وشك التحدث. «أيا كان ما سيقوله فسيوضح أنه إهانة»، قال لنفسه محذرا، على أمل أن يساعده هذا على تجنب الغضب المحتمل الوقوع في ما بعد.

«هل تحب هذا المكان؟» قال الجندي، وكان صوته رقيقا ناعما.

«نعم، إنه لطيف(*) . نعم، أحبه».

«لماذا؟» أصبحت الكلاب في الخارج أكثر قربا، وكان في إمكانه في ذلك الوقت سماع نباحها الذي غطى على الضحك. «هل في مقدورك أن تخبرني لماذا يعلقون ذلك الثعبان الميت على الحائط هناك؟» وجد نفسه يسأل، وافترض أن السؤال كان بدافع منه لتغيير الموضوع. لكن الجندي كان على وشك أن يصبح أكثر ضجرا مما كان يخشى هو.

«سألتك لماذا تحب هذه الحانة، واصل حديثك»، قال مُصرا. «وأنا قلت لك إنها لطيفة، ألا يكفي هذا؟»
أمال الجندي رأسه إلى الخلف ورمقه بنظرة ازدراء واستخفاف.
«أكثر مما يكفي»، أجاب بطريقة متحذقة، وبتعبير مثير للاستياء.

عاد المصور إلى شرابه، التقطه، وانتهى منه ببطء. ثم أخرج سجائره وعرض واحدة على الآخر. بتأن مبالغ فيه مد الجندي يده وأخذ السيجارة، وبدأ يطرقها على الكاونتر. الرجل الذي كان يعزف على الجيتار بدأ أخيرا في الغناء بصوت منخفض على مقربة منه، لكن معظم الكلمات كانت باللهجة المحلية التي لم يكن في استطاعة المصور أن يفهمها. عندما أشعل السيجارتين، وجد نفسه يتساءل من الذي أشعلهما - هو أم الجندي؟
«من أين أنت بالضبط؟» سأل الجندي.

(*) وردت بالإسبانية [المترجم].

لم يكن منزعجا من الرد، لكن الجندي أساء حتى فهم هذا الموقف، وقال «بوسعي أن أرى أنك تخلق شيئا ما»، ثم أردف، «وأنا لا أرغب في سماعه».

«آااه»، صاح المصور بقوة من فرط اشمئزازه، وطلب كأس كمبيامبا أخرى. أحدثت هذه الكأس التي تناولها الآن شيئا ما غير عادي فيه: فقد شعر بأنه أصبح محددًا جدًا، رقيقًا وصلبًا، شيئًا مصنوعًا من المينا أو مادة ما مشابهة لها، شيئًا ما بخلاف كونه كائنًا حيا، لكنه مع ذلك كان واعيا بشدة. «أربع كؤوس يجب أن تحدث الأثر المطلوب»، فكر.

كانت الكأس الفارغة في يده، وكان عامل البار البدين يحدق فيه، وفي تلك اللحظة لم تكن عنده أدنى فكرة إن كان قد شرب بالفعل الكأس الرابعة أو أنه كان فقط في اللحظة التي أعقبت طلبه لها. أحس بنفسه يضحك، لكنه لم يكن قادرا على سماع ما إن كان للضحك صوت ظاهر أم لا. ضايقه الثعبان المتغضن الغاص في النمل بعض الشيء عندما لمح، وكان المصور في تلك اللحظة واعيا برائحته، لم يكن متأكدا من أنها قد اختفت حتى ذلك الحين. هنا عند البار كان مصباح الكيروسين يدخن بشدة، ودخان القوي أصاب المصور بالاختناق. «شكرا للرب»، أسرَّ إلى عامل البار بالإسبانية، وهو يناوله الكأس.

نهض الرجل العجوز الذي كان يجلس على الصندوق خلفهم وحضر إلى البار بطريقة مبهمة. «من أين جاء هذا الرجل؟» قال المصور، وهو يضحك معذرا، ثم نظر إلى الكأس الممتلئة في يده. كانت الكلاب المسعورة بالخارج تتبج وتعوي في الخلاء

بصوت مثير للغيظ. «لماذا لا تتخلصون من هذه الكلاب؟» سأل بالإسبانية مستفسرا في الجندي.

كان الرجل العجوز يقف بجانبهم، وشرع في التحدث قائلا: «مرحبا، يا صاح، أنا لا أقصد مقاطعة الحديث أو ما إلى ذلك». كان أصلع لوحت الشمس بشرته، وكان يرتدي قميصا شبكيا خاصا بالصيادين. وقد ظهرت التجاعيد بين ضلوعه كظلال متوازية، وكانت كتل الشعر الرمادي الأشعث تبرز إلى الخارج من بين فتحات القميص الشبكية. وكان يرسم على شفثيه ابتسامة عريضة، أظهرت لثته البيضاء العارية. أصبح موقف الجندي باردا أكثر من اللازم، فقد كان يحدق في الوافد الجديد، والكراهية الواضحة في عينيه، وينفث دخان سيجارته برفق في وجه الرجل العجوز.

«أنت من ميلووكي(*)؟ تفضل بالجلوس معنا».

«دقيقة واحدة، شكرا»، قال المصور.

«دقيقة واحدة؟» رد الرجل العجوز بطريقة متشككة، وهو يمرر يده على رأسه. ثم نادى بالإسبانية على الولد ذي الساق الواحدة. كان المصور يفكر: «لن يمر هذا بسلام، على الإطلاق. إنه لن يمر بسلام أبدا». تمنى أن يتوقف الزنجي عن الغناء والكلاب عن النباح. نظر إلى الكأس في يده، كانت ممتلئة بما يشبه رغوة الصابون. خبط أحدهم على كتفه. «اسمع يا صاح، سأسدي إليك نصيحة صغيرة». كان الرجل العجوز مرة ثانية. وواصل قائلا: «هناك مال في هذا البلد إذا عرفت أين تجده. لكن الرجل الذي

(*) ميناء جنوب غرب ويسكنسن، على بحيرة ميشغان [المترجم].

يعثر عليه هو الذي يظل ملتصقا بجنسه الخاص، إذا كنت تعرف ما أعنيه». ثم قُرب وجهه وخفض صوته ولمست ثلاث أصابع هيكل ذراع المصور. «خذها نصيحة مني، من رجل أبيض مثلك. اسمع ما أقوله لك!» ارتفعت الأصابع الثلاث، الداكنة من أثر التبغ، من تلقاء ذاتها، وارتعشت، وعادت مرة ثانية إلى وضعها السابق. «هؤلاء الرجال جميعا ينوون منذ البداية القيام بمشكلة».

التقط الولد عكازيه وتمكن من النهوض من المكان الذي كان يجلس فيه، ووصل في تلك اللحظة إلى البار. «ألق نظرة على هذا، يا صاح»، قال الرجل العجوز. «أطلععه عليه»، قال للولد بالإسبانية، وانحنى الولد مستندا على عكازه، وطوى ساق البنطلون الكاكي البالية اليمنى حتى كشف عن بقية ساقه المبتورة. كان البتر على مسافة غير بعيدة أسفل الخصر، وكانت أماكن التئام الأنسجة قد تجعدت وانشت بغرابة على هيئة طيات صغيرة جدا وكثيرة. «هل ترى؟» صاح الرجل العجوز. «حمولة مائتين وستين طنا من الموز سقطت هنا. تحسسها».

«تحسسها أنت»، قال المصور، وهو مندهش من كيفية تمكنه من أن يظل واقفا ويتحدث معهم بالضبط كما لو كان واحدا منهم. (هل من الممكن أن يكون ما حدث له غير ظاهري؟) أدار رأسه ونظر نحو المدخل. كانت البنت الخلاسية تتقيأ في الخارج مباشرة. أسرع عامل البار في اتجاهها وهو يصرخ ودفعها بعيدا في غضب، إلى حيث الخلاء. عندما عاد إلى الداخل كان يمسك بأنفه بطريقة مسرحية. «تلك القرودة القذرة!» صاح. «ستكون الكلاب في غضون دقيقة عندنا هنا في الداخل».

كان الولد لا يزال ينظر بترقب إلى الرجل العجوز، ليرى إن كان الوقت قد حان لإسداله ساق البنطلون. «هل تعتقد أنه قد حصل على سنتافو واحد منهم؟» قال الرجل العجوز بحزن. «هاه!»

بدأ المصور في الارتياح من أن شيئاً ما قد سار بداخله على نحو خاطئ. فقد كان يشعر بالاعتلال، لكن نظراً إلى أنه لم يعد مخلوقاً حياً فإنه لم يكن في إمكانه التعبير عنه بهذه المصطلحات. فأغلق عينيه ووضع يده على وجهه. «إنها منتشرة في كل مكان في الخلفية»، قال. كان مشروب الكمبيامبا الذي لم يشربه بعد لا يزال في يده الأخرى.

تلفظه بهذه الجملة جعلها تبدو أكثر حقيقة. كانت بالتأكيد منتشرة في كل مكان في الخلف. كان الشيء المهم هو تذكره أنه كان هنا بمفرده وأن هذا المكان كان مكاناً حقيقياً ويوجد به أناس حقيقيون. في إمكانه أن يشعر بأنه من السهولة الانسياق بشكل خطير وراء الرسائل المعطاة له عن طريق حواسه، واستبعد الأمر برمته مثل اعتقاد خفي أن في إمكانه الهرب بطريقة ما من الكابوس عندما تأتي اللحظة الحاسمة عن طريق إيقاظه لنفسه منه. وضع مشروبه على الطاولة وهو يترنح قليلاً. الخلاف الذي كان قد تصاعد منذ فترة بين الجندي الهندي ورفيقه الحزين بلغ في ذلك الحين مرحلة مزعجة، حيث حاول الرفيق سحب الجندي بعيداً عن البار رغماً عنه، والجندي كانت قدماء الاشتتان المرتديتان حذاءً عالياً متباعدتين في ثبات، ويتنفس بسرعة، وبطريقة مزعجة في أثناء مقاومته له. فجأة كان هناك سكين

صغير يلمع في يده اليمنى، واكتسى وجهه بنظرة صبي صغير على وشك أن ينفجر بالبكاء. تحرك الرجل العجوز بسرعة إلى الجانب الآخر من المصور. «هذا الرجل سيئ السمعة بكل المعاني»، همهم، وهو يشير بعصبية إلى الولد ذي العكاز لكي يأمره بالتحرك بعيدا عن الطريق.

كان المصور يقول لنفسه: «لو كان في إمكاني الصمود. فقط لو كان في إمكاني!». كان المكان بأكمله ينسرب بعيدا عنه، إلى الأسفل وإلى الخارج، وكان الجيتار يعزف والكلاب تتبع، أشار الجندي بسكينه ومطّ شفتيه، تحدث الأمريكي القديم عن الكهوف الممتلئة بالزمرد المدفونة على مسافة ستة أيام فقط أعلى «تبرو»، أصبح ضوء المصباح أكثر احمرارا وراح يبعث بدخان أكثر. لم يفهم شيئا باستثناء أنه كان يجب عليه البقاء هناك والمعاناة، فمحاولة الهرب ستكون قاتلة. كان وجه الجندي في تلك اللحظة قريبا من وجهه، وينفث دخان تبغ الأسود فيه. بضعف، وبدلال طبيعي مجنون، جعل رموشه الطويلة ترتعش بينما راح يسأل: «لماذا لم تعرض عليّ كوبيتا؟ فقد كنت أنتظر طوال الليل أن تعرض عليّ واحدا». تدلت اليد المسكة بالسكين بفتور إلى جانبه، ففكر فيه المصور كطفل نائم لا يزال متشبثا بخشيسته.

«سي كوييز ... كي توماس؟» تمتم مفكرا في أن حذاءه كان يجب أن يكون في يده لكنه لم يكن، أين ذهب إذن؟ أحضر شخص ما قردا كبيرا من فصيلة السعدان العنكبوتي إلى الحانة وكان يحاول إجباره على الرقص على إيقاع الجيتار، وهو يجعل

القرد يقف مستقيماً عن طريق الإمساك بمخالبه الأماميين. خطأ القرد بمظهر ينم عن الذهول بعض الشيء، وهو يحدث في هذا الطريق وذاك، وهو مقطب في عصبية بسبب الدوي العالي للضحك الذي كان يصدر عن هؤلاء الواقفين عند البار ويشاهدون سلوكه الطريف. أسرع الكلاب، التي لاحظت وصوله، واقتربت جداً من مدخل الحانة، حيث هيأت نفسها للنهش والعض بغضب مبيت النية.

ابتاع الجندي الشراب ودفع ثمنه، لكنه لم يشربه. كان مستندا بعيداً إلى الخلف على البار، متكئاً على مرفقيه تقريباً كما لو أنه كان في السرير، كانت عيناه بسيطتين لوزيتين وذاتي لون أسود، همس: «أنت لا تحب المكان هنا. تريد أن تتصرف، أليس هذا صحيحاً؟ لكنك تخشى الانصراف».

على الرغم من أن الجلد كان ينزلق مبتعداً عنه، فإن كل شيء ظل بالضبط كما كان عليه. كان من الممكن أن يكون في حالة أفضل لو كان في وسعه الجلوس. «آه، يا إلهي»، وسأل نفسه: «هل سأظل قادراً على احتمال هذا؟»

«لماذا تخشى الذهاب؟» واصل الآخر بلطف، وهو يبتسم إلى درجة أن المصور أعجب بأسنانه الصغيرة المكتملة. ضحك المصور في صمت، ولم يجب.

كان وجه الجندي، البضاوي بلون العسل القريب جداً منه، قد تبدل الآن إلى وجه آخر، وجه يشبه وجه جنرال. «نعم، أنا جنرال» (*)، ذو شارب صلب نابت من تحت فتحتي الأنف، وعينين

(*) وردت بالإسبانية [المترجم].

لوزيتين سوداوين تطفران برغبة مرهفة، وزي مهندم، وسوط صلب مضفر في اليد، وسنون المهماز تلمع على عظمة الكاحل. «حقا، أنا جنرال»، مستلقيا فوق فراش السكنة الساخن، في وقت متأخر جدا من بعد الظهر(*)، كان الجندي يحلم بكونه جنرالا. من أي قرية جبلية جاء كما قال هو؟ منذ متى كان يتكلم؟

«... وفي ذلك اليوم وحده قتلوا واحدا وأربعين خنزيرا أمام عيني، هناك في الحظيرة. أنا مخطئ أو مقصر بطريقة ما، لكن هم أنفسهم...»(*) كانت ابتسامته حميمية تدل على الاعتذار، خفض عينيه بشكل غير ملحوظ، وبذل مجهودا ورفعهما مرة ثانية لينظر إلى المصور، بطريقة، نظرا إلى أنهما كانتا أكثر اتساعا عن ذي قبل، جعلتهما تلتمعان. «لن أنساها أبدا، ولا أعرف لماذا».

جاءت الفتاة ذات الأسنان الذهبية واندست في ما بينهما، ويداها تتلويان فوق رأسها، ووركاها يدوران، وصوتها الرفيع يصيح بالإسبانية: «آهيلي! آهيلي! إل فانداجو دي لا جوجيرا». كان من المؤكد أن الجندي قد دفعها، لأنها صفعته فجأة. لكن الأمر كان يحدث ببطء شديد. وإلا كيف استغرق الأمر وقتا طويلا من الجندي ليرفع سكينه، وبينما كان يهم برفع يده، كيف أمكن للفتاة الغبية الانتظار بهذه الطريقة قبل أن تصرخ أو تتحني جانبا؟ وعلى الرغم من أن المدية قد طالت ذراعها فقط، فإنها كانت راکعة على الأرض وسط الرمل، وهي تتأوه: «لقد جرحني! يا إلهي! لقد أصابني!» ولأن الرجل الذي كان يرقص مع السعدان العنكبوتي

(*) وردت العبارة بالإسبانية [الترجم].

(*) (*) وردت بالإسبانية [الترجم].

كان قد تركه لينضم بسرعة قدر الإمكان إلى الآخرين عند البار، فقد مضى الحيوان بخطوات قصيرة إلى الفتاة، وبذهول وحيرة لفّ ذراعه الطويلة الممتلئة بالشعر حول رقبتها. لكن المصور آنئذ كان قد اندفع تقريبا وكانت قدماء العاريتان تخطوان بينما كان الجميع يحاولون الوصول إلى الجندي وانتزاع سلاحه. (كان وجه شخص اكتسى بقناع يلمع بالغل الشديد، وله صوت يقول بنبرات خشنة مهتاجة بالإسبانية: «فلينتبه الجميع! لينتبه الجميع!»)

كان قد وقف بالضبط على بعد تسع عشرة خطوة في مكان به شجرة بابايا صغيرة أمام المدخل. لم تكن الشجرة قوية بما فيه الكفاية، فتأرجحت عندما استند إليها. كانت الكلاب في ذلك الوقت تصيح من داخل الحانة. في هذا المكان كان الهواء لطيفا وباردا بعض الشيء، وكان هناك وميض باهت جدا للصباح في السماء وفي المياه خلف رصيف المرفأ. «يجب أن أبدأ السير»، قال لنفسه، بدا من المهم أن يصدق ما قاله لنفسه. كانت الصيحات والصرخات تتعالى داخل الحانة وتتصاعد درجاتها وحدثها، فبدأ الناس ينادي بعضهم بعضا من أبواب أكواخهم. كان رصيف المرفأ خاليا، مجرد ألواح خشبية ولا يوجد درابزين. جر قدميه بعناية بالغة لأنه لم يكن معتادا على السير حافيا، وسار متتبعا ما اعتقد أنه الطريق الذي كان قد سلكه في وقت سابق، خلال الشجيرات عائدا إلى حافة النهر، وكان هناك قارب في مرسى شاطئ طيني به أشجار منجروف.

كان من السهل عليه الصعود على متته، وكذلك فك الحبل، وسهل عليه أيضا - لأن مستوى الماء ارتفع إلى حد كبير منذ

أن ترك القارب - تحريكه عن القاع الطيني حيث كان مستقرا .
لكن بمجرد طفوه بالقارب بين الجذوع والفروع المرئية الآن
تقريبا، واصطدامه بها والتفافه في أول الأمر في مواجهة ضفة
النهر المضطرب المظلم ثم الفراغ الأبيض المتسع لسماء ومياه
مفتوحتين، فهم بشكل غامض أنه لم يكن من الممكن أن يدفع
في طريقه عائدا مرة ثانية إلى الشاطئ الذي أتى منه، نظرا
إلى أن المد كان يواصل ارتفاعه . كانت فكرة مريحة، قرر ذلك،
لأنها كانت تعني أن كل شيء كان يمضي قدما وليس هناك
سبيل للتراجع . بعد دقيقة كان يطفو برفق قرب قاعدة رصيف
المرفأ، وكان الناس يركضون هنا وهناك في الخلاء . استلقى
بسرعة إلى أسفل وتمدد في قاع القارب، وظل هناك، ينظر إلى
أعلى مباشرة في السماء الرمادية، متمنيا أن يبقى بهذه الطريقة
بمعزل عن مجال الرؤية، حتى يصل إلى أبعد من تابياما .

كان النهار على وشك أن يصبح أحد تلك الأيام الاستوائية
الضائعة، حيث لا تكون هناك شمس، ولا رياح، ولا سحب - لأن
السماء بالكامل كانت محاطة بغلاف خائق شديد الاتساع عبارة
عن سحابة واحدة - حيث لا يحدث شيء على الإطلاق باستثناء
اشتداد الحرارة كل ساعة حتى يأتي الغروب . كان الجانب
الشرقي من السماء بالفعل هو الجانب الساخن، مقوسا فوق
المستقع العريض . كان القارب يتحرك بصعوبة، واتسعت القناة
في هذه البحيرة المستقعية العريضة . لا يزال المصور مستلقيا
وهو يتأوه . شيئا فشيئا بدأ الخوف من احتمال رؤية أحد له
يفسح المجال للأمل في أن يدفع تيار مائي القارب إلى الداخل

باتجاه الشاطئ بدلا من الخارج نحو المياه الشاسعة والجزر الصغيرة المقفرة، لأنه في بعض الأحيان - وعلى الرغم من أن بعض المعاناة مضمنة فيه - يكون الاتصال مع الآخرين أفضل من الرعب الناتج عن الوحدة والمجهول. وضع ذراعه على عينيه لحمايتهما من الضوء الرمادي المزعج الذي كان يسقط عليه من السماء. وكانت اليد الأخرى ممددة فوق الرماد المتخلف عن نار ليلة أمس. كان وهو يطفو في الصمت التام في قلب البحيرة الهادئ، لا يشعر بالنشاط بينما كانت ساعات الصباح تنقضي، بل كان على وعي متزايد بالاضطراب الفظيع الذي تحدثه كؤوس الكميابا في رأسه، الاضطراب الذي أعرب عن نفسه مثل كابوس لا معنى له أتاه من الخارج، كابوس لم يستطع إزائه إلا أن يصبح فقط سلبيا بشكل تام. كان عبارة عن ذلك المشهد غير المرئي الذي له منطقة المؤلم والذي انغمس فيه وراح يتتبع طبيعة وجوده الكلي، لكن، من دون إعطائه ولو مرة واحدة رؤية واضحة لما كان ينطوي عليه من أقدار مؤلمة.

في وقت ما قرب منتصف الصباح احتك القارب بأحد الجذور المغمورة تحت السطح، فأخذ يتأرجح في تدويم البحيرة تحت مظلة من النباتات على مقربة من الشاطئ. في هذا المكان كان الذباب الشرس يلسعه، ومن فوقه بين أوراق النباتات في الأعلى، كان أحد الطيور من الفصيلة الناطقة يعلق بشكل عرضي بالإسبانية، مرارا وتكرارا: «إيديجاراجا. إيديجاراجا. إيديجاراجا».

لم يكن هناك عزاء بعينه بالنسبة إليه، فقد كان عن قصد وتصميم شديد في دراما مجهولة تعرض من خلاله، يمكن أن

يقدمه إليه في ذلك الوقت سماعه لأصوات بشرية، أو شعوره بأن القارب قد أمسكته يد شخص ما كان يشق طريقه في الماء إلى جواره. فقط عندما طلع عدة أشخاص على متن القارب وجثوا من حوله بالفعل وهم يثرثرون حتى حرك ذراعه ونظر إليهم شزرا. كانوا خمسة من الشبان، يشبه بعضهم البعض بشكل ملحوظ، قد أحاطوا به. كانت قطرات الماء تسقط عليه من أجسادهم العارية. أغلق عينيه مرة ثانية: كان المشهد غير مرغوب فيه إلى حد كبير جدا. في تلك الأثناء قفز أحدهم من القارب، وغاب فترة قصيرة، ثم عاد بثمررة جوز هند خضراء شق قمته. وبدأ يترك الماء يسقط منها على وجه المصور، وعندئذ اعتدل المصور جالسا بشكل جزئي وشرب ما تبقى من الماء المتساقط منها. حلق فيهم مرة ثانية لمدة دقيقة، ثم قال: «هل أنتم أشقاء؟».

«نعم. نعم»، ردوا معا في صوت واحد بالإسبانية. كان في هذا عزاء له لسبب ما. «أشقاء»، قال بالإسبانية متتهدا، ثم انزلق إلى جوار الرماد ثانية. ثم أضاف بيأس، متمنيا أن يكونوا ما زالوا قادرين على سماعه: «من فضلكم خذوني إلى ريو مارتيلو».

كان فاصلا قصيرا من صفاء الذهن. كانوا الآن يدفعون القارب إلى الخلف نحو الخارج تحت السماء الساخنة، تاركين إياه مستلقيا هناك يتأوه كما يشاء. وفي إحدى اللحظات أحس بأنه يجب عليه أن يحاول أن يشرح لهم أنه سوف يعطي كلا منهم خمسة وسبعين سنتافو على ما يتكبدونه من إزعاج بسببه، لكنهم قهقهوا من الضحك ودفعوه إلى أسفل.

«حذائي!» صرخ. «لا توجد هناك أحذية»، أخبروه. لا يزال مستلقيا.

«ومتى سنصل إلى الشاطئ»، قال وهو يلهث، ممسكا بكاحل أسمر كان بجانب وجهه، «كيف ستأخذونني إلى ريو مارتيلو؟». «لن نذهب إلى أي شاطئ»، أجابوا. «سنمضي عبر المستنقع ثم القناة».

ظل مستلقيا فترة، محاولا عزل نفسه عن الأفكار غير المنطقية التي كانت تضطرب في رأسه. «هل هذا هو الطريق إلى ريو مارتيلو؟» تساءل، وهو يدفع نفسه إلى أعلى قليلا وهو يلهث، محاولا أن يرى ما وراء غابة الأرجل والأذرع السمرء المحيطة به، وشعر بخجل عميق غير مبرر لتقبله الهزيمة مرة أخرى. كانوا يضحكون، ودفعوه برفق إلى أرضية القارب، واستمروا في دفع القارب بطريقة إيقاعية جهة الشرق. «مدخنة المصنع»، قال بعضهم لبعض، وهم يشيرون إلى مكان بعيد. أعاده عقله إلى المنطقة الهادئة عند ضفة النهر حيث تكلم الطائر الصغير، فوق أعلى الأشجار، وسمع مرة ثانية صوت اللهجة العامية. «إيديجاراجا»، قال المصور بصوت عال، مقلدا بشكل متقن ورائع صوت الطائر ونبرته. كان هناك جو من المرح من حوله. أمسك أحد الشبان بذراعه، وهزه برفق. «هل تعرف ذلك الطائر؟» قال: «إنه طائر مضحك جدا. فهو يذهب إلى أعشاش الطيور الأخرى ويرغب في البقاء هناك بداخلها، وعندما تتقاتل معه الطيور الأخرى وتطرده بعيدا، فإنه يجلس فوق الشجرة نفسها هناك ويقول: «إيديجاراجا». وهذه الكلمة تعني: «إيريجاراجو،

نادي أناكوير، لا أحد يحبني». ويردها مرارا وتكرارا، إلى أن تجعله الطيور الأخرى يذهب إلى مكان أكثر بعدا حتى لا يكون في إمكانها سماعه ثانية. لقد قتلها بصورة صحيحة بالضبط، قلها مرة أخرى. «نعم، نعم»، وافقه الآخرون قائلين بالإسبانية، «كررها مرة ثانية!»

لم تكن لدى المصور أي نية لقولها مرة ثانية. خجله من تقبله الهزيمة أقلقه في ذلك الحين بشكل أقل. كان الصعب في وضعه الحالي أن يقلد الطائر بطريقة سليمة تماما من حيث الأداء، لكنه كان يعرف أن عليه أن يقلد الطائر.

عندما أطلق مصنع «أزوكاريرا ريو ماريتلينس» صافرة طويلة لإعلان حلول وقت الظهر، ظل الصوت يتردد برهة فوق المستقع الخالي مثل أثر دخان غير مرئي. «الساعة الآن الثانية عشرة»، قال أحد الإخوة بالإسبانية. جاءت واحدة من فراشات التين، كبيرة ذات لون ذهبي في أسود وقد مرت في خفة وسرعة فوق الماء وحطت فوق قدم المصور العارية. بعدما رفعت وخفضت جناحيها مرتين كانت مرة ثانية في خط سيرها الملتوي، وهي تتحني وتتخفض بسرعة فوق البحيرة، نحو تاياما. «قلها مرة ثانية»، قال الإخوة وهم يرجونه.

الضبع

كان أحد طيور اللقلق يمر فوق بلدة صحراوية في طريقه إلى الشمال. كان ظمآن، فبدأ في البحث عن الماء. وعندما وصل إلى جبل «خندق الغار»، رأى بركة مياه في أسفل الوادي. فهبط إلى أسفل بين الصخور وحطّ عند حافة الماء. ثم اقترب وشرب.

في تلك اللحظة تسلق ضبع إلى أعلى الجبل، ورأى اللقلق وهو يقف في الماء، فقال له: «هل جئت من مسافة بعيدة؟» لم يكن اللقلق قد رأى ضبعا من قبل، ففكر «هذه إذن هي هيئة الضبع». ووقف ينظر إلى الضبع فقد قيل له إنه إذا رش الضبع بعضا من بوله على أحد، فإن هذا الشخص عليه أن يمضي وراء الضبع إلى أي مكان يريده له الضبع.

«سيحل الصيف قريبا، وأنا في طريقي إلى الشمال» قال اللقلق. وفي الوقت نفسه، خطا مبتعدا إلى مسافة داخل البركة، بحيث لا يكون على مقربة من الضبع. كان الماء هنا أعمق، ففقد توازنه تقريبا مما اضطره إلى الرقرفة بجناحيه ليبقى منتصباً. مشى الضبع إلى الجانب الآخر من البركة ونظر إلى اللقلق من هناك.

«أعرف ما يدور في رأسك»، قال الضبع. «إنك تصدق القصة التي تروى عني. هل تعتقد أن لديّ تلك القوة؟ ربما هذا ما كانت عليه الضباع من قبل منذ زمن بعيد. لكنها الآن مثل أي حيوان آخر. كان في إمكاني أن أبللك ببولي من هنا لو شئت. لكن لماذا؟ إذا أردت أن تكون عدوا لي، فاذهب إلى منتصف البركة وامكث هناك».

نظر اللقلق إلى البركة من حوله ولاحظ أنه لم يكن ثمة موضع فيها حيث يمكنه الوقوف ويكون بعيدا عن متناول الضبع. «لقد انتهيت من الشرب»، قال اللقلق. وبسط جناحيه ورفرف بعيدا عن البركة. وعند حافتها جرى بسرعة إلى الأمام وارتفع في الهواء. دار محلقا فوق البركة، وهو ينظر إلى الضبع في الأسفل. «أنت إذن ممن يطلقون عليه الغول»، قال. «العالم ممتلئ بالأشياء الغريبة» أضاف.

نظر الضبع إلى أعلى. كانت عيناه ضيقتين ومعقوفتين. «لقد أحضرنا الله(*) إلى هنا»، قال. «أنت تعرف هذا. أنت الذي تعرف عن الله، ولست أنا».

خَفَضَ اللقلق من تحليقه قليلا. وقال «هذا صحيح. غير أنني مندهش من سماعي ما تقوله أنت. إن لك سمعة سيئة، بالضبط كما قلت أنت نفسك. والسحر ضد مشيئة الله». طأطأ الضبع رأسه، وصاح قائلاً: «إذن أنت لاتزال تعتقد في الأكاذيب!».

«أنا لم يتسن لي بعد رؤية ما بداخل مثانتك»، قال اللقلق. «لكن لماذا يقول الجميع إن في إمكانك أن تفعل بها سحرا؟» «إنني أتساءل لماذا أعطاك الله عقلا؟ إنك لا تعرف بعد كيف تستعمله». لكن الضبع كان يتحدث بصوت منخفض إلى درجة أن اللقلق لم يكن في مكانه سماعه. «لم أسمع كلماتك»، قال اللقلق، وترك نفسه يهبط إلى أسفل.

(*) وردت بالعربية - [الترجم]

نظر الضبع إلى أعلى مرة ثانية. «قلت: لا تقترب مني كثيرا. لربما أرفع قدمي وأغمرك بالسحرا» ضحك، وكان اللقلق قريبا بما فيه الكفاية بحيث رأى أن أسنان الضبع كانت بنية. «ومع ذلك يجب أن يكون هناك سبب ما»، بدأ اللقلق في التحدث ثانية. ثم نظر إلى صخرة عالية فوق الضبع، فحط فوقها. رقد الضبع وراح يحدق فيه. «لماذا يسمونك غولا؟ ما الذي فعلته؟». نظر الضبع إلى اللقلق شزرا وقال، «أنت محظوظ جدا، لن يحاول الناس قتلك أبدا، لأنهم يعتقدون أنك مقدس. إنهم يسمونك القديس والحكيم. وحتى الآن لا تبدو مثل قديس أو حكيم».

«ما الذي تقصده؟» قال اللقلق بسرعة.

«لو كنت تفهم فعلا، لكنت قد عرفت أن السحر ذرة من غبار في مهب الريح، وأن قوة الله فوق كل شيء. ولم تكن لتخاف أبدا».

وقف اللقلق فترة طويلة، وهو يفكر. رفع ساقا وأوقفها منتشية أمامه. ازداد الوادي احمرارا بينما كانت الشمس تتخفض. وكان الضبع جالسا في هدوء وهو يتطلع إلى اللقلق، وينتظر أن يواصل حديثه.

أخيرا أنزل اللقلق ساقه، ثم فتح منقاره، وقال: «تقصد أنه إذا لم يكن هناك سحر، فإن الذي يقترب الإثم هو الذي يعتقد في وجود السحر».

ضحك الضبع. «أنا لم أقل شيئا عن الإثم. لكن أنت الذي قلت، وأنت الحكيم. أنا لست في هذا العالم لأقول لأحد ما

الصواب وما الخطأ. يكفيني العيش من ليلة إلى أخرى، فالجميع يتمنون رؤيتي ميتاً».

رفع اللقلق ساقه مجدداً ووقف يفكر. ارتفع آخر ضوء من النهار في السماء واختفى. غرقت المنحدرات الصخرية في جانب الوادي في الظلام.

بعد فترة قال اللقلق: «لقد منحتني شيئاً ما للتفكير فيه. وهذا حسن. لكن الليل قد حلّ ويجب عليّ أن أواصل طريقي. رفع جناحيه وشرع في التحليق بعيداً عن الصخرة التي كان قد حط فوقها. أصغى الضبع. فسمع جناحي اللقلق يصفقان الهواء في بطن، ثم سمع صوت جسد اللقلق بينما كان يرتطم بالمنحدر الصخري في الجانب الآخر من الوادي. تسلق الضبع الصخور فوجد اللقلق هناك. «لقد تحطم جناحك»، قال. «كان حرياً بك أن تذهب والضوء لا يزال هناك».

«نعم»، قال اللقلق. كان تعيساً وخائفاً.

«تعال معي إلى البيت»، قال الضبع. «هل باستطاعتك أن تمشي؟»

«نعم»، قال اللقلق. وشرعاً يسلكان معاً طريقهما إلى أسفل الوادي.

سرعان ما بلغا كهفاً في جانب الجبل. دخل الضبع أولاً ونادى قائلاً: «أخفض رأسك». وعندما أصبح كلاهما في الداخل تماماً، قال: «الآن بإمكانك أن تقيم رأسك، فالكهف هنا مرتفع». لم يكن في الداخل سوى الظلام. وقف اللقلق لا يحرك ساكناً. «أين أنت؟» تساءل.

«أنا هنا»، أجب الضبع، وهو يضحك.

«لماذا تضحك؟» سأل اللقلق.

«كنت أفكر في أن العالم غريب»، أخبره الضبع. وأضاف «لقد جاء القديس إلى داخل كهفي لأنه يعتقد في السحر».

«أنا لا أفهم»، قال اللقلق.

«أنت مرتبك ومشوش. لكن يمكنك الآن على الأقل أن تصدق أنني مثل أي كائن آخر في العالم».

لم يجبه اللقلق على الفور. فقد شم رائحة العفونة الكريهة للضبع قريبة جدا منه. عندئذ قال متتهدا: «أنت على صواب، بالطبع. ليس هناك قوة فوق قوة الله».

«أنا سعيد»، قال الضبع، وهو يزفر أنفاسه في وجهه. وأردف الضبع يقول «أخيرا فهمت». وانقض بسرعة على رقبة اللقلق وأحدث فيها جرحا. خفق اللقلق وسقط على جانبه.

«أعطاني الله شيئا ما أفضل من السحر»، قال الضبع وهو يهمس. «أعطاني الله عقلا».

استلقى اللقلق ساكنا. حاول أن يقول مرة أخرى: «ليست هناك قوة فوق قوة الله». لكن منقاره انفتح فقط على اتساعه تقريبا في الظلام.

انصرف الضبع. «ستموت خلال دقائق»، قال وهو يلتفت إلى الورا. «سأعود خلال عشرة أيام. وعندئذ ستكون جاهزا».

بعد عشرة أيام عاد الضبع إلى الكهف فوجد اللقلق حيث تركه. لم يجد للنمل من أثر. قال «حسن». والتهم ما شاء ثم غادر الكهف إلى صخرة كبيرة منبسطة في الخارج فوق مدخله.

ووقف هناك لفترة في ضوء القمر، ثم تقيأ .
أكل بعضاً مما تقيأ وظلّ يتمرغ لفترة في ما تبقى من قيئه،
وهو يدعكه بعمق في فروته. عندئذ شكر الله على العينين اللتين
تستطيعان أن تريا الوادي في ضوء القمر، وعلى الأنف الذي في
إمكانه أن يشم رائحة الجيفة في الريح. ظل يتقلب أكثر ثم لعق
الصخرة من تحته. وبعد ذلك استلقى هناك فترة وهو يلهث.
وبعد قليل نهض ومضى في طريقه مترنحاً.

زمن الصداقة

كانت الصعاب تزداد تفاقماً في كل سنة، منذ أن انتهت الحرب. منذ البداية، وعلى الرغم من أنها كانت تعلم بوجود الحرب، فقد قررت الأنسة ويندلينج ألا تعيرها انتباهها. في البداية لم تكن هناك سوى إشاعات هامسة عن الاعتقالات السرية، وكان الناس يقولون: «عدة آلاف من المسلمين قد أُرسِلوا إلى السجن في فرنسا»، وبعد فترة قصيرة بدأ نفر من أصدقائها يختفون، مثل الشاب بشير وعمر بن الأخضر، وكذلك مدير مكتب البريد في تميمون، الذي اختفى ذات صباح، أو هذا ما أُخبرت به، لأنها عندما عادت في الشتاء التالي لم يكونوا موجودين ولم يكن من أثر لهم هناك، ولم ترهم بعد ذلك منذ تلك الفترة. كانت وجوه الناس يعترها التجهم الصامت عندما كانت تحاول التحدث عنهم في الأمر. بعدما بدأت أعمال العنف بشكل جدي، وعلى الرغم من أن الوطنيين قد سببوا إخراج القطارات عن قضبانها وعطلوا خدمة النقل عبر الصحراء في مناسبات عدة، إلا أنه لا يزال بالإمكان الوصول إلى ما وراء المنطقة المضطربة إلى حيث الواحة التي كانت تذهب إليها الأنسة ويندلينج. وهناك في الجنوب، حيث الواحة، كان القتال بعيداً جداً، وفي الصحراء الخالية التي كانت الساعات الطويلة تتقضي فيها ببطء جعلها تبدو أكثر امتداداً، تقريباً كما لو كانت هذه الساعات تتقضي في البحر. إذا افترض في أي وقت من الأوقات أن أصيب رجال هذه الواحة بفيروس السخط عن طريق الشمال البعيد - وكان

هذا غير متصور من وجهة نظرها - عندئذ وعلى الرغم من حقيقة أنها كانت على يقين من أن الحرب لن تعود عليهم بشيء سوى التعاسة، فإنها لم يكن بوسعها إلا أن تتمنى لهم النصر. فقد كانت أراضيتهم وحدهم هي التي يقاتلون من أجلها، وحياتهم وحدهم هي التي سيخسرونها للفوز بالقتال. لكن الناس لم يكونوا يتكلمون عن الحرب حتى ذلك الوقت، فالحياة كانت شاقة بالنسبة إليهم لكنها كانت لاتزال هادئة. وكان كل فرد منهم يعلم بأنها مستمرة في الشمال، وكانوا سعداء جميعا لأن الحرب كانت بعيدة جدا عنهم.

في أثناء فصول الصيف، حيث كانت الأنسة ويندلينج تعمل بالتدريس في مدرسة فرلوفر في برن، كانت تسري عن تلاميذها بحكايات عن الحياة التي كان يحياها الناس في الصحراء الكبرى في أفريقيا. كانت تقول لهم إنه في القرية التي كانت تعيش فيها كان كل شيء يُصنع بواسطة أهالي القرية أنفسهم مما كانت توفره لهم الصحراء، وإنهم كانوا يعيشون في عالم من الأشياء التي كانت تصنع مما كانت تتضججه الأرض وتجد به، من ألياف العشب، وأشجار النخيل وجلود الحيوانات. لم تكن هناك أي أشياء مصنوعة من المعدن. على الرغم من أنها لم تعترف بهذا للأطفال، فلم يعد هذا حقيقيا تماما، نظرا إلى أن النساء في الوقت الحالي قد اعتدن استخدام صفائح الزيت الفارغة لحمل الماء، بدلا من قرب جلد الماعز، وذلك منذ سنوات قليلة مضت. وكانت قد حاولت ثني صديقاتها من نسوة القرية عن هذا الابتكار، وقالت لهن إن اللعب الصفيح يمكن أن تسمم الماء، وكن يوافقنها

الرأي، ويستمررن في استخدامها. «كن كسولات»، قررت، «فقد كانت علب الزيت أكثر سهولة للحمل بالنسبة إليهن».

عندما كانت الشمس تميل نحو الغروب والهواء المحمل برائحة دخان الخشب يرتفع بلسعته الباردة من الواحة في الأسفل إلى مستوى الفندق، كان بإمكانها أن تستشقه داخل غرفتها فتتوقف عن أي شيء كانت تفعله. ثم ترتدي «برنسها» وتصعد السلالم إلى السطح. كانت تفرش البطانية هناك حيث تقوم بأخذ حمام شمس كل صباح، وكانت تستلقي فوقها في مواجهة سماء الجهة الغربية، وهي تشعر بأن حرارة الشمس الغاربة لاتزال تحت جلدها بقوة. وكانت إحدى متع اليوم، أن تشاهد الضوء وهو يتغير في الواحة تحتها، عندما كان الغسق والدخان المنبعث من حرائق المساء يخفيان الوادي تدريجياً. دائماً ما كانت تأتي لحظة يكون فيها كل ما تبقى من هذا عبارة عن شكل غير واضح، هندسي ودقيق، الطينية التي كانت تتألف منها القرية، وكتل بعينها من أشجار النخيل العالية التي كانت تقف منتصبة خارج مداخل القرية. ثم لا تعود البيوت نفسها موجودة بعد، وفي النهاية تختفي حتى قمم أشجار النخيل نفسها، وفي حالة وجود القمر كان كل ما يصبح بالإمكان رؤيته هو السماء المحتضرة، وأطراف الصخور الحادة في صحراء الحمادة، والفرار المتسع والممتد للضباب الذي كان ينتشر فوق الوادي، لكنه لا يصل بعيداً إلى أعلى المنحدرات الصخرية حيث يوجد الفندق.

ربما مرتين كل شتاء كانت مجموعة من نساء القرية تقوم بدعوة الأنسة ويندلينج للذهاب معهن إلى أعلى حيث الأرض

الفسيحة الممتلئة بالكثبان الرملية بحثا عن الحطب. كان الوهج قاسيا بشكل دائم في هذا المكان. ولم يكن هناك من أثر حتى لغصن شجرة أو ساق نبات في أي مكان في الرمال، وعلى الرغم من ذلك فقد كان في مقدور النساء اللائي يتجولن على امتداد القمم عاريات الأقدام أن يحددن أماكن الجذور المطمورة أسفل السطح، وعندئذ كن يتوقفن، ويكشفن الرمال عنها ويستخرجنها. كن يقلن لها، «إن الريح تترك إشارة»، إلا أنها لم تكن متأكدة قط من قدرتها على التعرف على الإشارة، ولم يكن باستطاعتها أن تفهم كيف يمكن أن تكون هناك علاقة بين الجذور المطمورة في الرمال والريح التي في الهواء من فوقها. «ما افتقدناه نحن، لايزالون هم محتفظين به»، كانت تفكر.

كانت رؤيتها الأولى للصحراء وأهلها بمنزلة خبرة ذات شكل مغاير، وبالطبع، بدا لها الآن أنها قبل مجيئها إلى هنا لم تكن على اتصال بالحياة. كانت تؤمن بشكل كامل وثابت أن كل يوم كانت تقضيه هنا يزيد من إجمالي محصلة قدرتها على المقاومة. كانت تحسد المواطنين على الصحة السليمة وقوة البنیان، في الوقت الذي كانت فيه صحتها قوية بالقدر نفسه، لكن لأنها كانت ذات بشرة بيضاء وعلى قدر من التعليم، فقد كانت على اقتناع بالسليقة أن جسمها كان أقل صحة.

كان عمل الفندق كله يقوم به شخص ذو وجه هادئ حزين يدعى بوفيلجا. كان موجودا هناك عندما وصلت لأول مرة منذ عدة سنوات؛ وفي نظر الأنسة ويندلينج أصبح وجوده في الفندق كأنه جزء لا يتجزأ من المكان مثله مثل المنحدرات

الممتدة عبر الوادي. كانت تجلس دائما إلى طاولتها قرب المدفأة وتتناول الغداء ثم تلعب الورق مع نفسها، حتى تتوقف كتل الخشب المشتعلة عن بعث الحرارة في المكان. كان هناك جنديان فرنسيان صغيران جدا من الحصن المقابل يأكلان في حجرة الطعام بالفندق- ويحتسيان كمية كبيرة من الشراب، وكان من المزعج لها أن ترى وجهيهما وهما يتحولان ببطء إلى اللون الأحمر بينما كانا يجلسان هناك. في البداية كان الجنديان يخفضان قبعتيهما لها بينما يهمان بالخروج، وكانا يحاولان إمساك ضحكهما لأطول فترة ممكنة حتى ينتهيا من أن يقولا لها «صباح الخير يا سيدتي»(*)، لكنهما لم يعودا يفعلان هذا في الوقت الراهن. كانت تتابها السعادة عندما يغادران، وتستمتع باللمحة قبل أن تخبو النار، بينما كانت تتأجج بفعل هبات الريح التي كانت تهب إلى أسفل من المدخنة العريضة.

كانت الريح تهب بشكل دائم تقريبا في فترات مبكرة من بعد الظهر، وتعصف بشكل دائم وقوي حتى أنها كانت تزمجر خلال الآلاف من أفرع أشجار النخيل في الواحة في الأسفل، وتصفر أسفل أبواب الفندق كلها، وتغطي على أصوات القرية الأكثر بعدا. في هذه الساعة كانت تلعب بالأوراق لعبة السوليتير، أو تجلس فقط لمشاهدة القطع الخشبية المحترقة وهي تتفتت إلى قطع أصغر أمام عينيها. وكانت تذهب بعد ذلك إلى الشرفة، ذلك المكان المرتفع والمضيء مثل ظهر سفينة عملاقة تبحر عبر الصحراء بعد الظهر، ثم تسرع عائدة إلى

(*) وردت بالفرنسية [المترجم].

غرفتها للحظة لتحضر سترتها وعصاها، وتشرع في السير. في بعض الأحيان كانت تذهب باتجاه الجنوب بمحاذاة وادي النهر، على امتداد سفوح المنحدرات الصخرية الهادئة ثم خلال الأودية الملتوية، إلى قرية مهجورة شُيدت في مكان شديد الحرارة في منعطف في الوادي الضيق. كانت الجدران الصخرية العمودية خلف القرية تعمل على إعادة الحرارة ثانية، لدرجة أن الهواء كان يلهب حلقتها عندما كانت تتنفسه. أو كانت تمضي إلى مكان أكثر بعدا، حيث كانت توجد الكهوف المحفورة على جدرانها رموز أشكال حيوانية.

كانت تعود من الطريق الذي يؤدي إلى القرية، والذي يتوغل عبر الظلال الخضراء في الجزء الكثيف من غابة أشجار النخيل، وكانت تدرك بشكل منتظم وجود المجموعة نفسها من الأولاد الذين كانوا يجلسون في منعطف الطريق، في مكان تمضي فيه قبل أن تصعد مباشرة إلى أعلى التل حيث توجد المحلات والقرية. كانوا يجلسون متريعين فوق الرمل تحت الأفرع الهشة لشجرة طرفاء(*) عملاقة، وهم يتكلمون في هدوء. وعندما كانت تصل إليهم كانت تلقي عليهم التحية، ودائما ما كانوا يردون، ثم يظلون صامتين حتى تمر متجاوزة إياهم، وعندئذ يستأنفون حديثهم. كان بوسعها إلى حد ما أن تتبين أنه لم يكن في حديثهم أي ذكر لها، ومع ذلك فقد بدا لها في بعض الأحيان في هذه السنة أنه بمجرد مرورها بهم، كانت درجات أصواتهم تتغير بخبث وكأنه كان يحدث تبدل في نبرات أصواتهم من مقام إلى

(*) الطرفاء: شجرة قريبة من الأثل [المترجم].

مقام، ومن نبرة إلى أخرى. هل كان موقفهم هذا يقترب من السخرية والاستهزاء؟ لم تكن تعرف، لكن نظرا إلى أن هذه كانت المرة الأولى على مدار السنوات التي قضتها في الصحراء حيث لم تطرح الفكرة نفسها عليها من قبل، فقد أبعدتها بعزم عن ذهنها. «يتطلب الجيل الجديد تكتيكا جديدا إذا أراد المرء إقامة علاقة معهم»، فكرت. «يجب عليّ أن أجد هذا التكتيك». ومع ذلك فقد كانت آسفة لأنه لم تكن ثمة طريق أخرى للوصول إلى القرية إلاّ عبر هذه الطريق الرئيسية التي كانوا يتجمعون فيها دائما، لدرجة أن التوتر الخفيف الذي كان ينجم عن اضطرابها إلى العبور من أمامهم كان يفسد عليها متعة السير.

أدركت في أحد الأيام بصدمة خجل خفي أنها لم تكن تعرف حتى ما كانت عليه وجوه الأولاد. فقد كانت تراهم فقط كمجموعات من بعد؛ وعندما كانت تقترب منهم بدرجة كافية لتحيتهم، كان رأسها منكسا دائما، تنظر إلى الطريق تحت قدميها. حقيقة أنها كانت خائفة من أن تنظر إليهم كانت غير مبررة، وفي الوقت الراهن، عندما كانت تقترب منهم، كانت تحقق بعناية في عيني كل منهم الواحد تلو الآخر. تومئ بالتحية في ارتباك، ثم تواصل طريقها. نعم، كانت وجوههم وقحة، فكرت - لا تشبه وجوه الكبار على الإطلاق. وسمات الوقار التي ترتسم على وجوههم عندما يجفلون، كانت نوعا منحطا من التصنع والافتعال. لكن الشيء المهم بالنسبة إليها أنها قد فازت؛ ولم تعد مشغولة بعد الآن بمرورها اليومي بهم. وببطء تمكنت تدريجيا من التعرف على كل ولد منهم.

لاحظت أن هناك واحدا أصغر من الآخرين، وكان يجلس دائما بعيدا عنهم بعض الشيء، وكان هذا الولد الخجول هو الذي يقف في مطلع كل صباح يتحدث مع بوفيلجا في مطبخ الفندق عندما كانت تدخل. تظاهرت في ذلك اليوم بأنها لم تلاحظه في الفندق، وقالت لبوفيلجا: «أنا ذاهبة لأعمل على الآلة الكاتبة مدة ساعة تقريبا في غرفتي، وبعدئذ يمكنك أن تحضر لترتيب الغرفة». ثم استدارت لتخرج. وبينما كانت تجتاز المدخل ألقت بنظرة سريعة على وجه الولد. كان ينظر إليها، ولم يبعد وجهه عندما تلاقت أعينهما. «كيف حالك؟» قالت. بعد ذلك ربما بنصف ساعة، عندما كانت تكتب خطابها الثاني على الآلة الكاتبة، رفعت رأسها، كان الولد يقف هناك في الشرفة ينظر إليها عبر الباب المفتوح. كان يحدق فيها، ولأن الريح قوية؛ فقد كان بوسعها أن ترى قمم أشجار النخيل وهي تتمايل وتتحنى خلف رأسه.

«إذا كان يرغب في مراقبتي، فلندعه يراقبني»، قالت لنفسها، وقررت ألا تعيره انتباهها. بعد فترة ذهب بعيدا. بينما كان بوفيلجا يقدم لها الغداء، سألته عن الولد. «مثل رجل عجوز»، قال بوفيلجا، «يبلغ من العمر اثنتي عشرة سنة، لكنه شديد الجدية. مثل بعض الرجال، الرجال الكبار»، وابتسم، ثم هز كتفيه وأضاف: «إنها الطريقة التي أرادها الله أن يكون عليها».

«بالطبع»، قالت. وتذكرت الوجه التعييس واليقظ للولد. «الكلب الصغير الذي ينبذه الجميع»، فكرت، «لكنه لا يستسلم».

في الأيام التالية، كان كثيرا ما يأتي إلى الشرفة ويقف يراقبها بينما كانت تطبع على الآلة الكاتبة. في بعض الأحيان كانت تلوّح له، أو تقول: «صباح الخير». ومن دون أن يجيبها يتراجع خطوة إلى الخلف، بحيث يصبح بعيدا عن مرمى بصرها. ثم يستمر في الوقوف حيث كان. أزعجها سلوكه، وفي أحد الأيام عندما فعل هذا، نهضت بسرعة وذهبت إلى الباب. «ماذا في الأمر؟»، سألته، محاولة الابتسام بينما كانت تتكلم.

«أنا لم أفعل شيئا»، قال، وكانت بعينه نظرة عتاب.

«أعرف»، أجابت. «لماذا لا تأتي إلى الداخل؟»

نظر الولد بسرعة في الشرفة من حوله كأنه كان يطلب المساعدة، ثم خفض رأسه وخطا إلى داخل الباب. ووقف ينتظر هناك، ورأسه إلى أسفل، وقد بدا بائسا. أحضرت من بين أمتعتها حقيبة بها حلوى جافة، وأعطته واحدة منها. ثم وجهت إليه بضعة أسئلة، ووجدت أن لغته الفرنسية كانت أفضل بكثير مما كانت تتوقع. «هل يجيد الأولاد الآخرون الفرنسية مثلك؟» سألته.

«كلا، يا سيدتي»، قال، وهو يهزّ رأسه ببطء. كان والدي يعمل جنديا، والجنود يتحدثون الفرنسية بشكل جيد».

حاولت أن تبعد وجهها وتخفي تعبير الاستكار الذي كانت تشعر به، لأنها كانت تزدرى كل ما هو عسكري. «أفهم هذا»، قالت ببعض الحدة، ثم عادت إلى طاولتها وعمدت إلى تغيير الأوراق. «يجب عليّ أن أعمل الآن»، أخبرته بذلك، وأضافت على الفور في صوت أكثر دفئا، «لكن بإمكانك العودة في الغد،

إذا أحببت». ظل منتظرا لحظة، وهو ينظر إليها بلهفة شديدة. ثم ابتسم ببطء، ووضع غلاف قطعة الحلوى، وقد طواه على هيئة مربع صغير، فوق طرف طاولتها. «وداعا، يا سيدتي»، قال، وخرج من الباب. في الصمت المتسع كانت تسمع بصعوبة الصوت المكتوم لقدميه العاريتين فوق أرضية الشرفة. «في هذا الجو البارد»، فكرت. «يا للطفل المسكين! لو أنني سأقدم على شراء شيء له فسيكون صندلا».

كل يوم بعد ذلك، عندما كانت الشمس ترتفع بقدر كاف لإضفاء وجود على هواء الصباح الساكن، كان الشاب يأتي خلسة عبر الشرفة إلى بابها، ويظل واقفا عدة دقائق، ثم يقول بعد ذلك في صوت يفتقر إلى الثقة لدرجة أنه كان الصوت الأكثر انخفاضا وهدوءا وسط الصمت العظيم في الخارج: «صباح الخير، يا سيدتي»، وتدعوه هي إلى الدخول، ويتصافحان في ارتباك، وبعد ذلك يرفع الولد ظهر أصابعه إلى شفتيه، دائما بالبطء نفسه الذي في التعاملات الرسمية. في بعض الأحيان كانت تحاول أن تفهم تعبيره جيدا بينما كان يقوم بهذا الطقس، لتري إن كان بإمكانها أن تكتشف عن طريق المصادفة إن كانت فيه ظلال من السخرية؛ لكنها كانت ترى تعبيرات تدل على ولاء شديد الإقناع لدرجة أنه أفرعها، وكانت تنظر بعيدا على الفور. كانت تحتفظ دائما بقليل من الخبز أو بعض البسكويت في درج دولاب الملابس، وعندما كانت تُخرج الطعام ويتأوله الولد، كانت تسأله عن أخبار العائلات في حي القرية الذي يسكن فيه. وكانت لأجل ترسيخ الانضباط تعرض عليه قطعة واحدة فقط

من الحلوى ما بين يوم وآخر. كان الولد يجلس على الأرض عند المدخل، فوق بطانية قديمة بالية من وبر الجمل، وكان يراقبها بشكل مستمر، ولا يدير رأسه أبدا بعيدا عنها.

كانت ترغب في معرفة اسمه، لكنها كانت تعرف إلى أي مدى كان سكان المنطقة كتومين في ما يتعلق بالأسماء، وأنهم نادرا ما كانوا ييوحون بأسمائهم الحقيقية للأغراب، وكانت تحترم هذه الخصوصية لأنها كانت تعرف أن لها جذورها في دينهم الخاص الذي يرجع إلى ما قبل التاريخ. لذا أحجمت عن سؤاله، وهي واثقة من أنه سيأتي الوقت الذي سيثق فيه بها بدرجة كافية لأن يقوله لها بمحض إرادته. وجاءت تلك اللحظة من دون توقع ذات نهار، بالضبط عندما كان يروي لها عدة أساطير متعلقة بأحد ملوك المسلمين العظام منذ عهد بعيد، والذي كان اسمه سليمان. فجأة توقف الشاب، وأجبر نفسه على أن يحدق فيها بثبات من دون أن يطرف له جفن، ثم قال: «أنا أيضا اسمي سليمان، نفس اسم الملك».

حاولت تعليمه القراءة، لكنه لم يبد قادرا على التعلم. في أحيان كثيرة، عندما كانت تشعر بأنه على وشك أن يربط بين جزأين غير مكتملين من الأفكار والعبارات، الأمر الذي كان سيمكنه في النهاية من استيعاب القاعدة الأساسية، كانت تبدو على وجهه نظرة استسلام وسلبية، ويقطع عن عمد محاولة التدفق من منابعها، ويظل جالسا، وهو يحدق فيها فقط، وبهز رأسه من جانب إلى آخر، ليبين لها أن هذا كان غير ذي جدوى. وفي تلك اللحظات كان من الصعب ألا ينفذ صبرها معه.

قررت في السنة التالية ألا تستمر في الدروس، وأن تستخدم سليمان بدلا من ذلك كمرشد، أو حمال، أو مرافق لها، أو أي دور كانت ترى على الفور أنه أكثر ملاءمة لطبيعته منه كتلميذ. لم يكن يمانع مهما كانت المسافة التي سيمشيانها أو كم التجهيزات التي كان عليه أن يحملها، بل على العكس، كانت الرحلة الطويلة بالنسبة إليه تمثل ما يفوق الحدث، وأي شيء كانت تجعله يحمله كان يحمله بمظهر الرجل الذي تم تكريمه ومنحه جائزة. ربما كان هذا الفصل من أسعد الفصول التي قضتها الأنسة ويندلينج في الصحراء، شتاء الصداقة حيث قاما فيه معا برحلات لا حصر لها إلى أسفل الوادي. بينما كانت الأسابيع تمر كانت الرحلات تتزايد فرصتها، وكانت ساعة الرحيل تتقدم أكثر فأكثر إلى أن جاءت فعلا عقب انتهائها من تناول وجبة الإفطار مباشرة. على مدار اليوم، وبينما كانا مجهدين من السير في الشمس الساطعة المباشرة وفي الظل العارض لأطراف أشجار النخيل المتكسرة التي تتأخم مجرى النهر، ظلت تتحدث إليه بحرارة عاطفية. في بعض الأحيان كان بإمكانها أن ترى أنه كان يشعر وكأنه كان يطلعها في اطمئنان على ما يدور في رأسه، وكانت تسمح له بأن يتحدث ما دام حماسه مستمرا ومتواصلا، وكثيرا ما كانت تنعشه وتجده عندما يخبو في النهاية بأسئلة مختارة بعناية. لكن في العادة كانت هي التي تتحدث بالفعل في أكثر المرات بينما كانت تمشي خلفه. وهي تدق الأرض الحجرية بعصاها المصنوع طرفها من الصلب مع كل مرة كانت تطأ الأرض بقدمها اليمنى، راحت تخبره بتفصيل شديد بقصة حياة هتلر، موضحة له لماذا كان

مكروها من جانب المسيحيين، وقد اعتقدت أن هذا كان ضروريا لأن سليمان كان لديه انطباع مختلف، وأنه كان يتصور بالطبع أن الأوروبيين كانوا يحترمون ويقدرّون إلى حد بعيد هذا الزعيم الذي اختفى نهائيا عن الأنظار، وأن سليمان وبقية الناس من أهل القرية كانوا يعتقدون هذا عن الأوروبيين. كما أنها تحدثت كثيرا عن سويسرا، وكانت تؤكد في كلامها من دون قصد على النظافة والصدق والأمانة والصحة الجيدة لأهل بلدها في شكل حكايات قصيرة من صميم الحياة اليومية. أخبرته عن السيد المسيح، ومارتن لوثر، وغريبالدي.

كانت قد حافظت منذ فترة طويلة على الوعد الأول الذي كانت قد قطعتة على نفسها بأن تشتري له صندلا، وهذا الشراء تلتة عدة شراعات أخرى، فعلى فترات منتظمة نوعا ما كانت تأخذه إلى محل «بن عيسى» لشراء قميص، وبنطلون قطني أسود فضفاض من النوع الذي يرتديه قائدو جمال التشامبا، وأخيرا برنس جديد أبيض، على الرغم من أنها كانت تعرف أن القرية بأكملها سوف تتحدث عن أمر هذه الهدايا الثمينة جدا التي أعطته إياها. وكانت تعرف أيضا أن هذه الهدايا الممنوحة بشكل متكرر هي التي كانت تجعل والد سليمان لا يمنعه عن قضاء الوقت معها. وعلى الرغم من ذلك، وفقا لما كان يرويه سليمان، فقد كان والده يعترض في بعض الأحيان. لكنها كانت واثقة من أن سليمان نفسه لم يكن يرغب في شيء، ولا ينتظر شيئا منها. كل سنة عندما كان يقترب شهر مارس من نهايته تبدأ الحرارة في الاشتداد طوال النهار بشكل مؤلم وحتى الليالي

كانت تصبح خالية من النسيم؛ بعد ذلك، على الرغم من أنها دائماً ما تتطلب مجهوداً شاقاً من الإرادة لتجعل الأنسة نفسها قادرة على الخطوة التي سوف توفر لها اتصالاً من جديد مع العالم الخارجي، كانت تخصص يومين أو ثلاثة لغسل ملابسها والاستعداد للسفر. عندما كان يحين الأسبوع المحدد لمغادرتها، كانت تذهب إلى الحصن وتتصل بالمقهى في كيرزان، وتطلب إلى صاحبه أن يخبر سائق الشاحنة التالية المتجهة إلى الشمال أن يأخذ الطريق الجانبية الفرعية التي تتيح لها أن تستقل هذه الشاحنة في مكان يبعد نحو ثلاثة كيلومترات عن القرية.

عندما عادت هي وسليمان إلى الفندق في فترة ما بعد الظهر من رحلتهم الأخيرة القصيرة إلى أسفل الوادي، كانت الأنسة ويندلينج واقفة في الشرفة تتطلع إلى جبال الرمل البرتقالية خلف الحصن. كان سليمان قد أحضر العلب إلى داخل الغرفة ووضعها على الأرض. استدارت وقالت: «أحضر الصندوق الصغير الكبير». وعندما سحب الصندوق وأخرجه من تحت السرير حمله إليها، وهو يمسح عنه الغبار بكمّ قميصه، تقدمته وصعدت السلالم إلى السطح، وجلسا معا فوق البطانية، وكان وهج الشمس الغاربة يلهب وجهيهما. كانت عدة ذبابات لاتزال تحلق في الهواء، ومن وقت إلى آخر كانت تهاجم رقبتيهما. أعطاهما سليمان علبة البسكويت الصغير وأعطته هي حفنة من الكعك المغطى بالشيكولاتة. «الكثير ودفعة واحدة»

«نعم»، قالت، «أنت تعرف أنني سأعود إلى بلدي في غضون أربعة أيام».

خفض رأسه وراح ينظر إلى البطانية لحظة قبل أن يتمتم مجيباً: «أعرف». وصمت مرة ثانية. كان يشتهي بشكل فيه إحساس بالاضطهاد قائلاً: «يقول بوفيلجا إن الجو حار هنا في فصل الصيف. إنه ليس حاراً! إنه لطيف في بيتنا. إنه يشبه الواحة حيث توجد البركة الكبيرة. ولن تشعري بالحر أبداً هناك».

«يجب عليّ أن أكسب بعض المال، أنت تعرف، فأنا أريد أن أعود في العام المقبل».

قال بحزن: «العام المقبل، يا سيدتي! لا يعرف ما سيحدث في العام المقبل إلا مولانا».

كانت بعض الجمال تزمجر بينما كانت تتمايل فوق الرمل أسفل الحصن، وكان الضوء يتراجع بسرعة. «كل بسكوياتك»، قالت له، وأكلت هي بسكويتها «في العام المقبل سوف نذهب إلى العبادلة بصحبة القائد إن شاء الله» (*).

تتهدد بعمق وقال: «آه، نعم يا سيدتي». لاحظت في البداية غصة التعاطف ثم بعد ذلك، وبعدما أعادت النظر، باستتكار، العذاب الذي أضفى على صوته حدة غير معتادة. كانت سجيته المتألمة هي أقل ما كانت تحبه فيه، هذا الإشفاق المسرحي الباهت على الذات. «سوف تصبح رجلاً في العام المقبل»، قالت بثبات وحزم. كان صوتها قد أضحى أقل يقيناً، وكان محملاً بنبرة افتراض متفائلة: «هل ستتذكر كل الأشياء التي تحدثنا عنها؟» أرسلت له بطاقة بريدية من مارسيليا، وأطلعت تلاميذ فصلها

(*) وردت بالعربية [الترجم].

على الصور الفوتوغرافية التي التقطها أحدهما للآخر، والصور الخاصة بالقائد. كان الأطفال منبهرين بعمامة القائد الضخمة، «هل هو بدوي؟» سأل أحدهم.

عندما غادرت مكتب السفارة الفرنسية كانت تعرف أن هذه كانت السنة الأخيرة التي ستعود فيها إلى الصحراء. لم يكن فقط العداء الرسمي من جانب الموظف المسؤول أو الارتياح المعبر عنه بشكل سافر: بل كانت هذه هي المرة الوحيدة التي جعلها فيها تجيب عن قائمة من الأسئلة التي وجدتتها مفزعة. فقد أراد أن يعرف أي موضوعات تدرّسها في مدرسة فرلوفر، وإن كانت قد عملت من قبل كصحافية، وعلى وجه التحديد في أي مكان من المفترض أن تقضي يومها بعد وصولها إلى الصحراء. ردت عليه بشكل استفزازي حاسم وسريع قائلة: «أذهب إلى حيث أشعر بالرغبة في الذهاب. لا أضع خططا». لكنها أتت بالكاد على ذكر اسم الواحة. كانت تعرف أن الرجال الفرنسيين لم يكونوا يكونون أي احترام للسيدات السويسريات الكبار في السن اللاتي يلبسن الجوارب الصوفية؛ فكان هذا يجعلهم ببساطة أكثر خسة في نظرهم. ومع ذلك، فقد كانوا هم من يتحكمون في الصحراء.

كان اليوم الذي دخلت فيه السفينة إلى الميناء الغربي لأفريقيا يوما ما طارا. كانت تعرف أن طرقات المدينة الرمادية المنحدرة المزودة بشرفات كانت هناك في الظلام في المقدمة، إلا أنها كانت غير مرئية. كانت الملابس الأوروبية البالية لعمال رصيف الميناء مشبعة بمياه الأمطار. في ما بعد، بدت لها المدينة المبتلة عن آخرها بمياه المطر غريبة ومزعجة، وبدا الناس الذين يمرون

على امتداد الشوارع غير سعداء. كان التغيير، حتى عن السنة الماضية، ضخماً، وقد جعلها الذهاب والجلوس في مقهى كبير واسع وبارد، حيث كانت ترغب في تناول القهوة عقب العشاء، تشعر بالحزن، ولذا عادت إلى الفندق الذي كانت تنزل فيه ونامت. في اليوم التالي استقلت القطار إلى «بريجوكس». ظل المطر يسقط معظم اليوم. وفي بريجوكس استأجرت غرفة في أحد الفنادق قرب المحطة، ولم تبرحها، وهي تنصت إلى صوت قعقعة المطر في أحد المزاريب أسفل نافذتها. «سيكون هذا المكان نموذجاً مثالياً للجحيم»، هذا ما كتبه في تلك الليلة إلى صديقة لها في بازل قبل أن تذهب لتنام. «مثال كامل للتفسخ الاجتماعي تم تحقيقه عن طريق فرض التهجين الثقافي. تم إفساد العامة والخط من قدرتهم وخلق عداوات عن طريق استغلال الأجيال بطريقة لا رحمة فيها. سأستقل قطار السكة الحديد الضيقة الصغير المتجه إلى الجنوب غدا صباحاً إلى حيث الأرض الأكثر سعادة، وأنا واثقة من أن صديقتي الشمس ستطلع في بعض الأوقات أثناء اليوم، تحياتي القلبية وسلامي إلى العزيزة ماريا».

بينما كان القطار يزحف متقدماً صوب الجنوب، إلى أعلى أرض الهضبة الواسعة المرتفعة، كانت السحب تختص وقد بسطت الشمس سطوتها على الريف. كانت الأنسة ويندلينج تجلس بانتباه بجانب نافذة متسخة، وهي تشعر بالحزن المتزايد يغلفها. طوال الفترة التي كان المطر يسقط فيها، كانت تتصور أن المطر من بين أسباب اكتئابها، فقد كان ضوء السحاب الرمادي

يضي معنى غير مألوف على المنظر عن طريق تغييره للأشكال والمسافات. وقد استوعبت الآن أن معالم وتضاريس الصحراء الأكثر ألفة وتمييزا كانت على وشك ألا تصبح أكثر إدراكا ووعيا من جانبها؛ لا لسبب سوى أن هذه كانت آخر زيارة لها.

بعد يومين، عندما توقفت الشاحنة لإنزالها، كان بوفيلجا واقفا في الشمس بجانب إحدى الصخور وهو يلوح لها، وكان معه أحد الرجال من القرية لمساعدته في حمل الأمتعة. بمجرد انطلاق الشاحنة وتلاشي سحابة الغبار الأصفر التي خلفتها عبر صحراء الحمادة، كان هناك صمت، ولم يبد أن ثمة صوتا بإمكانه أن يغطي على صوت أحذيتهم وهي تسحق الأرض.

«كيف حال سليمان؟» سألته. كان بوفيلجا غير محدد وغير واضح في إجابته. «إنه بخير»، قال، وأضاف، «يقولون إنه حاول الهرب. لكنه لم يصل إلى مكان بعيد جدا». قد تكون الإشاعة حقيقية، وربما تكون غير صحيحة؛ على أي حال فقد قررت ألا تأتي على ذكرها إلا إذا ذكرها سليمان بنفسه أولا.

كانت تشعر براحة غير عادية عندما اقتربوا من حافة المنحدرات الصخرية وتمكنت من رؤية القرية عبر الوادي، لكن ليس قبل أن قامت بجولات في البيوت حيث يعيش أصدقائها، لتناقش معهم مشكلاتهم وتترك بعض الحبوب وأقراص الدواء الدوائية هنا وبعض والحلوى هناك، حتى اقتنعت بأنه لم يحدث تغيير مهم في الواحة في أثناء غيابها. ذهبت إلى بيت عائلة سليمان، ولم يكن سليمان موجودا هناك. «قل له أن يأتي ليراني»، قالت لوالده، بينما كانت تغادر البيت.

في صباح اليوم الثالث لوصولها ظهر سليمان، وظلّ واقفاً هناك في المدخل وهو يبتسم. وبمجرد أن حيته أجلسته وجعلته يتناول القهوة معها، وأخذت تمطره بوابل من الأسئلة عن الحياة في القرية في أثناء فترة وجودها في أوروبا. أخبرها سليمان أن بعضاً من أصدقائه قد ذهبوا ليصبحوا من الوطنيين، وأنهم يقتلون الفرنسيين مثل الذباب. تحطم قلبها لما سمعته لكنها لم تقل شيئاً. بينما كانت تراقبه وهو يبتسم، كانت مبتهجة بشدة لفكرة أن سليمان كان منفتحاً ويسهل الوصول إلى أعماقه، وعلى الرغم من كل شيء، كان بإمكانها أن تثبت أن بالإمكان تكوين أصدقاء حقيقيين صادقين ممن هم أصغر سناً. لكن بينما كانت تقول له: «كم أنا سعيدة لرؤيتك، يا سليمان»، تذكرت أن وقتها معاً أصبح محدوداً، فاعتري وجهها تعبير من الألم بينما كانت تختتم عبارتها. «يجب عليّ ألا أنطق له بكلمة عن هذا الموضوع»، قررت. فإذا ظلّ سليمان، على الأقل، يعيش في الوهم غير المحدد عن الزمن الممتد في المستقبل، فسوف يحتفظ بطريقة ما بهالة البراءة والنقاء التي له، وسوف تشعر هي بعذاب أقل في أثناء الوقت الذي يقضيانه معاً.

نزلاً معاً في أحد الأيام إلى الوادي لرؤية القائد، ومناقشته في مخطط الرحلة الطويلة إلى العبادلة. وفي اليوم التالي عند الفجر انطلقا لزيارة ضريح مولاي «علي بن سعيد». حيث كان هناك ينبوع ماء ساخن. كان المكان عبارة عن واحة صغيرة على مشارف قمة كثيب من الكثبان الرملية، وكان هناك ما يقرب من خمسين نخلة حول المقام المتهدم. وهناك في ظلال الصخور

أسفل الحوائط الصخرية كان هناك صهريج متهدم يتدفق الماء الفائز فيه. فرش البطاطين فوق الرمل في مكان مجاور للصريح، أسفل شجرة طرفاء صغيرة، وتناولوا غداءهما. وقبل أن يشرعا في الأكل، شربا حفنات قليلة من الماء، الذي قال عنه سليمان إنه معروف بقداسته. كان سعف النخيل يصدر أصوات خشخشة وهسيس في الريح فوق رأسيهما.

«أرسل الله الريح لأجلنا كي تجعلنا نشعر بالبرودة بينما نأكل»، قال سليمان عندما انتهى من تناول تمراته.

«كانت الريح هنا بشكل دائم»، ردت هي بلا مبالاة، «وستكون هنا دائما».

وهي تراقب سليمان وهو يقف في الجانب من الصهريج الخرب ويتخذ المظهر التقليدي لشخص على وشك أن تلتقط له صورة، خطرت في رأسها فكرة. سوف تقوم لأجل ليلة عيد الميلاد المجيد، والتي ستحل في غضون الأسبوعين القادمين، بعمل منظر لميلاد المسيح. وسوف تدعو سليمان ليأكل معها وهما جالسان بجانب المدفأة، وعندما ينتصف الليل سوف تأخذه وترىها له.

بعدما انتهت من تصوير سليمان، لما أغراضهما ورحلا في الاتجاه المعاكس لريح بعد الظهيرة الساخنة صوب القرية. في بعض الأحيان كان الرمل يندفع بقوة، ويسرع وجهيهما بأهدابه الدقيقة غير المرئية. كانت الأنسة ويندلينج تتقدم المسيرة في هذه المرة، وكانا يسيران بسرعة. كانت صورة منظر لميلاد المسيح، المضاء بواسطة الشموع، قد خطرت لها عدة مرات

وهي في طريق عودتها فوق الصخور المترامية في الصحراء الرملية الواسعة، وجعلتها تشعر بحزن يفوق الوصف، لأنها لن تتمكن من ربط هذا بحقيقة أن كل شيء كان في طريقه إلى الانتهاء. وصلا إلى بقعة في شمال القرية حيث كانت الصحراء الصخرية المترامية الأطراف يقطعها من طرف إلى آخر نهر الوادي المتدفق. عندما تسلقا ببطء إلى أعلى قمة الرمل الناعم، وجدت نفسها تهمس: «إن هذا هو الشيء الصائب الذي يتعين القيام به». وفكرت، «صائب، ليست الكلمة المناسبة»، ولم تستطع أن تجد كلمة أحسن منها. كانت ستقدم على عمل لوحة ميلاد المسيح لأنها كانت تحب ليلة الميلاد، ولأنها أرادت أن يشاركها سليمان هذه الليلة. وصلا إلى الفندق بعد الغروب بوقت قصير، وقامت بإرسال سليمان إلى بيته لكي تجلس لتخطط مشروعها على الورق.

أدركت فقط عندما شرعت بالفعل في وضع تصميم منظر الميلاد مقدار العمل الذي سوف يتعين بذله. في وقت مبكر من صباح اليوم التالي طلبت من بوفيلجا أن يعثر لها على صندوق خشبي قديم. وقبل أن يمر نصف ساعة على انهماكها في العمل، سمعت صوت سليمان يتحدث في المطبخ، فدفعت بسرعة كل شيء تحت السرير وخرجت إلى الشرفة.

«سليمان، أنا مشغولة جدا، تعال بعد الظهر»، قالت، وبعد ظهر ذلك اليوم قالت له إنه نظرا إلى أنها ستصبح مشغولة في كل صباح حتى إلى ما بعد يوم الاحتفال بميلاد يسوع الابن، فإنهما لن يتمكنوا من القيام بأي مشاوير طويلة في أثناء تلك

الفترة. تلقى سليمان الخبر بتجهم، وقال: «أعرف. أنت تستعدين لليوم المقدس. أنا أفهم هذا».

«عندما يجيء اليوم المقدس، سنعمل وليمة».

«إذا أراد الله»، قال.

«أنا آسفة»، قالت وهي تبتسم.

هزّ سليمان كتفيه وقال لها «إلى اللقاء إذن».

كانا لا يزالان يسييران بعد كل ظهيرة في الواحة أو يتناولان الشاي على السطح، لكن فترات الصباح كانت تقضيها في غرفتها تقوم بأعمال الخياطة، والدق والنحت. بمجرد انتهائها من بناء المنصة الخشبية، كان عليها أن تعتمد إلى تشكيل الشخصيات. أحضرت كتلة كبيرة من طمي النهر إلى غرفتها. وتمكنت في غضون يومين من تنفيذ تمثال العذراء الذي سرها شكله النهائي. ومن قطعة قماش صغيرة من الموسلين شكلت خيمة متقنة لإيواء الأم والطفل في عش من ريش الدجاج الأبيض الصغير، وشقت بشكل طولي بعض أوراق إبرية من شجرة طرفاء مهمة وصنعت منها سجادة جيدة لتضعها داخل الخيمة. ثم سكبت الرمل خارج الخيمة وغرست فيه بعمق أرجل الجمال الطويلة، كان أحد الجمال يسير خلف الآخر فوق أحد الكثبان، وكان يجلس فوق كل واحد منها بشكل مستقيم رجل ماجوس يرتدي جلبابا أبيض تتدلى أطرافه الطويلة المدببة على جانبي الجمل. سيأتي الرجال الماجوس(*) محملين بأجولة اللوز وشيكولاتة الليكوير الصغيرة جدا والملفوفة في الورق الفضي الملون. عندما انتهت من تنفيذ

(*) إشارة إلى الماجوس الثلاثة الذين قادتهم النجمة التي ظهرت في الشرق إلى مهد يسوع في بيت لحم [المترجم].

لوحة الميلاد، وضعتها على الأرض في منتصف الغرفة وورست أكوام اليوسفي والتمر أمامها، بالإضافة إلى صف من الشموع خلفها، وشمعة واحدة على كل جانب في المقدمة منها، سوف تبدو مثل لوحة دينية إسلامية ملونة مطبوعة حجريا . كانت تأمل أن يكون المنظر مميزا بالنسبة إلى سليمان، فعندئذ من الممكن أن يقتنع بسهولة أكثر بالحقيقة الشاعرية للمشهد . أرادت فقط أن توحى له بأن الله الذي كان سليمان مرتبطا معه بعلاقة حميمة هو نفسه الإله الذي يعبد النصارى . ولم تكن لتحاول أبدا أن تعبر له عن هذه الفكرة عن طريق الكلمات .

ستكون هناك مفاجأة إضافية في هذه الأمسية وهي الفلاش الجديد الملحق بكاميرتها، والذي لم يكن سليمان قد رآه حتى تلك اللحظة . اعتزمت أن تلتقط الكثير من الصور لمنظر الميلاد ولسليمان وهو ينظر إليها، وسوف تكبر هذه الصور لتريها لتلاميذها . كما ذهبت واشترت عمامة جديدة لسليمان، لأنه حتى الوقت الراهن ولما يزيد على سنة لم يكن يرتدي عمامة . وكانت هذه العمامة لرجل بالغ، وكانت رائعة جدا : عشرة أمتار من أنعم الأقطان المصرية .

في اليوم الذي سبق يوم عيد الميلاد ظلت الأنسة ويندلينج مستغرقة في النوم، فقد خدعتها السماء الملبدة بالغيوم . في كل شتاء كانت تمر على الواحة بضعة أيام مظلمة، وكانت تلك الأيام نادرة، لكن هذا اليوم كان أحدها . بينما كانت لاتزال مستلقية في السرير، سمعت هدير الريح، وعندما نهضت لتطل من النافذة لم تجد أثرا للعالم في الخارج - لا يوجد سوى ضباب وردي رمادي

خافت كان يخفي أو يطمس معالم كل شيء. وكان الرمل المدوم يتردّد في موجات بلا توقف أمام الزجاج، وقد اتخذ شكل كتل رملية على أرضية الشرفة. عندما ذهبت لتناول إفطارها، كانت ترتدي برنسها وتضع قلنسوته حول وجهها. كان صوت الريح العاصف عندما خرجت إلى الشرفة قد أصابها بأثر اصطدام ناتج عن شيء صلب، وكان الرمل يصدر صريرا على الأرضية الخرسانية تحت حذائها. كان بوفيلجا قد أحكم إغلاق الضلّفات الخشبية في حجرة الطعام، قام بتحيتها بطريقة حماسية من داخل الحجرة المظلمة، وكان سعيدا بوجودها هناك.

«يوم سيئ جدا لاحتفالك، للأسف، يا آنسة»، أبدى ملاحظته بينما كان يضع إبريق القهوة على المائدة.

«الاحتفال غدا»، قالت، «إنه يبدأ الليلة».

«أعرف. أعرف». كان نافذ الصبر في ما يتعلق بولائم واحتفالات النصارى لأن الساعات التي تبدأ فيها وتنتهي كانت تؤدى مراسمها بطريقة غير متقنة بالمرّة. أعياد المسلمين تبدأ في وقت محدد، إمّا في وقت الغروب أو قبل الشروق بساعة، أو عندما يظهر الهلال لأول مرة بشكل واضح في الجهة الغربية من السماء في الشفق. لكن النصارى يبدأون أعيادهم متى شعروا بأنه يجب عليهم بدؤها.

قضت فترة الصباح في غرفتها تكتب خطابات. وعند الظهر كان الجو في الخارج أكثر قتامة ولا يزال محملا بالرمال، وكانت الريح تهزّ قمم الفندق فوق صخرته المقام عليها كما لو أنها سوف تطوح به من فوق قمم أشجار النخيل التي تحته إلى حيث قاع

النهر. نهضت عدة مرات وذهبت إلى النافذة لتحقق في الخارج حيث الفراغ القرنفلي خلف الشرفة. كانت العواصف تجعلها تشعر بالسعادة، وعلى الرغم من ذلك تمنى لو أن هذه العاصفة كان بإمكانها المجيء بعد عيد الميلاد. كانت قد تخيلت ليلة صحراوية صافية - باردة، تسطع فيها النجوم، وتتبع الكلاب من الواحة. حتى الآن قد تكون هذه هي تلك الليلة الجميلة، فلا يزال هناك متسع من الوقت، فكرت، بينما كانت ترتدي برنسها من فوق رأسها لتذهب لتناول الغداء.

كانت المدفأة، بسبب الرياح، نعمة غير أكيدة، فإضافة إلى الحرارة التي كانت تبعثها، وإلى أنها كانت المصدر الوحيد للضوء في حجرة الطعام، إلا أن الدخان الذي كانت تبعثه بقوة كان يوسع عيني الأنسة وحلقها. كانت الضلقات الخشبية تققع وهي ترتطم بالنوافذ وتقرعها بعنف مرارا وتكرارا، وقد غطى صوتها على صوت الريح نفسها.

خرجت الأنسة ويندلينج على الفور من حجرة الطعام بمجرد انتهائها من الأكل، وأسهرت عائدة إلى غرفتها وجلست في ظلمة بعد الظهر التي كانت تتقضي ببطء، بينما كانت مستمرة في كتابة خطاباتها وهي تنتظر أن يخبر ضوء النهار تماما، كان سليمان سيأتي في تمام الساعة الثامنة. سيكون هناك متسع من الوقت يكفي لحمل كل شيء إلى حجرة الطعام قبل أن يحضر، وكذلك لإنارة لوحة الميلاد في الجزء البعيد المظلم غير المستغل فيها والذي كان من المستبعد أن يذهب إليه بوفيلجا، لكن عندما هممت بأن تفعل هذا، وجدت أن الريح كانت أقوى بكثير مما

تخيلت. كررت الرحلة بين الغرفة وحجرة الطعام مرارا وتكرارا، وهي تحمل كل قطعة من اللوحة ملفوفة بعناية في برنسها. وفي كل مرة كانت تمر أمام المطبخ كانت تتوقع أن يفتح بوفيلجا الباب ويكتشف أمرها. ولم تكن راغبة في أن يكون بوفيلجا موجودا هناك عندما تطلع سليمان على لوحة الميلاد، بإمكانه أن يراها في صباح اليوم التالي عند الإفطار.

نجحت الأنسة ويندلينج، محتمية بضوضاء العاصفة، في نقل جميع القطع إلى الركن البعيد المظلم في حجرة الطعام من دون أن ينتبه بوفيلجا. قبل العشاء بفترة طويلة كانت لوحة الميلاد على أتم الاستعداد، لا ينقصها سوى إشعال الشموع كي تصبح حية ومتوهجة تماما. تركت علبة أعواد الثقاب على المائدة بجانب اللوحة، وأسرعت عائدة إلى غرفتها لترتيب شعرها وتغيير ملابسها. كان الرمل قد تسلل مخترقا ملابسها وأصبح الآن في كل مكان، بل وتسلل إلى أسفل ملابسها الداخلية مباشرة والتصق بجلدها مثل السكر. كانت ساعتها تشير إلى ما بعد الثامنة بعدة دقائق عندما مضت إلى خارج غرفتها.

لم يكن هناك سوى مكان مخصص لشخص واحد على المائدة. انتظرت، بينما كانت الضلقات الخشبية ترتج وتلتصق بالجدار، حتى ظهر بوفيلجا حاملا سلطانية الحساء.

«يا لها من ليلة سيئة»، قال.

«لقد نسيت أن تجهز مكانا لسليمان»، قالت له. إلا أنه لم يعرها انتباهه، وصاح بصوت عال «إنه غبي!» وبدأ في صب الحساء.

«انتظري!» صاحت، «سليمان آت، ويجب عليّ ألا أكل حتى يجيء».

لا يزال بوفيلجا غير متفهم. «أراد أن يدخل إلى حجرة الطعام، وهو يعرف أن هذا ممنوع في وقت تناول العشاء»، قال. «لكنني دعوته!»، قالت وهي تنظر إلى طبق الحساء الوحيد الموضوع على المائدة، ثم أكملت قائلة: «قل له أن يدخل، وأعد له طبقاً آخر».

كان بوفيلجا صامتا. وقام بوضع المغرفة في السلطانية، «أين هو؟» سألته، ومن دون أن تنتظر منه إجابة واصلت قائلة: «ألم أخبرك أنه كان سيتناول عشاءه معي الليلة؟» ثم ارتابت فجأة في أن تكون رغبتها السرية قد جعلتها تهمل إخبار بوفيلجا بدعوة سليمان.

«إنك لم تخبريني بأي شيء»، قال لها وأردف: «ليس لدي علم، لقد أرسلته إلى بيته، لكنه سيعود بعد العشاء».

«آه، بوفيلجا!» صاحت، «أنت تعرف أن سليمان لا يكذب أبداً». خفض بصره ونظر إلى وجهها بنوع من اللوم. «أنا لا أعرف شيئاً عن خطط الأنسة»، قال في حزن. وجعلها هذا تعتقد، لحظة خاطفة، أنه قد اكتشف أمر لوحة الميلاد، لكنها قررت أنه لو كان يعرف شيئاً لكان قد تكلم من دون ريب. «نعم. نعم. أعرف. كان يجب عليّ أن أخبرك، إنه خطئي أنا».

«هذا صحيح، يا آنسة»، قال. لاحظت الأنسة ويندلينج وهو يقدم لها بقية أصناف الطعام الصمت الوقور الذي كان عليه،

إلا أنها وهي لاتزال تشعر ببعض الاستياء منه، لم تحته على أن يقطع هذا الصمت. فقط عند نهاية الوجبة، عندما دفعت كرسيها إلى الخلف بعيدا عن المائدة وجلست تنعم النظر في أشكال اللهب في المدفأة، قرر بوفيلجا أن يتكلم، «هل ستتناول الأنسة القهوة؟».

«أرغب في تناول القليل»، قالت، وهي تحاول أن تجعل صوتها محملا بنبرة حماسية، «حسنا»(*)، تمتم بوفيلجا، وتركها في الحجرة بمفردها. وعندما عاد بوفيلجا حاملا القهوة، كان سليمان في صحبته، ولأحظت الأنسة أنهما كانا يضحكان، وكأنه ليس هناك سوء تفاهم بشأن موضوع العشاء. وقف سليمان لحظة عند الباب، وهو يدق الأرض بقدميه وينفض الرمل عن برنسه. وعندما تقدم كي يأخذ يدها، صرخت قائلة: «آه، يا سليمان، إنه خطئي أنا، لقد نسيت أن أخبر بوفيلجا. إن هذا فظيع!».

«ليس هناك خطأ، يا سيدتي، فهذا احتفال»، قال سليمان في رصانة ووقار.

«نعم، هذا احتفال»، قالت مرردة، «ولا تزال الريح تعصف. انصت!».

لم يشرب سليمان القهوة، ولكن بوفيلجا شرب بناء على ضغط منها، تركها تصب له فنجانا، وشربه وهو واقف قرب المدفأة. شكت الأنسة ويندلينج في أن يكون مسرورا بشكل خفي لأن سليمان لم يتمكن من تناول العشاء معها. عندما انتهى من تناول

(*) وردت بالفرنسية [المترجم].

قهوته، تمنى لهما ليلة سعيدة وذهب إلى السرير في حجرته الصغيرة المجاورة للمطبخ.

ظلاً جالساً فترة يشاهدان النار، دون أن يتحدثا. كانت الريح تسرع وهي تمر في الخلاء بالخارج، وكانت تصفق الضلقات الخشبية التي ما انفكت تصدر طرقاتها. كانت الأنسة ويندلينج مرتاحة البال، فحتى لو كان الجزء الأول من الاحتفالية قد سار على نحو خاطئ، فلا يزال بالإمكان أن تكون بقية الليلة مبهجة مرضية.

انتظرت الأنسة ويندلينج حتى تأكدت من أن بوفيلجا قد ذهب إلى السرير فعلاً، ثم تناولت حقيبتها وأخرجت منها كيساً بلاستيكيًا صغيراً ممتلئاً بشيكولاتة الكريمة، حيث وضعت على المائدة.

«كل»، قالت من دون اهتمام، وأخذت منه قطعة لنفسها. مد سليمان يده بقليل من التردد وأخذ الكيس. عندما كانت الشيكولاتة في فمه، شرعت الأنسة في التحدث. كانت تعتزم أن تخبره بقصة ميلاد السيد المسيح، وهي موضوع كانت قد تطرقت إليه بالفعل مرات كثيرة في أثناء رحلاتهما، لكن بشكل عابر فقط. أحست هذه المرة أنه ينبغي عليها أن تخبره بالقصة كاملة. وتوقعت منه أن يقاطعها عندما يكتشف أنها قصة دينية، لكنه فقط أبقى عينيه الخاليتين من المعنى مسلطتين عليها وهو يمضغ بطريقة آلية، مبيناً لها بين الحين والآخر أنه يتابعها عن طريق إيماءات من رأسه. بدأت تستغرق في ما كانت تقوله، وأخذت في استخدام ذراعيها

لتصدر بهما إشارات كبيرة. تناول سليمان قطعة أخرى من الشيكولاتة وواصل الاستماع.

ظلت الأنسة تتكلم ساعة أو أكثر، وهي مدركة، كما لو من بُعد فصاحتها الخاصة. عندما أخبرته عن بيت لحم كانت تصف بالفعل قرية سليمان، وكان بيت يوسف النجار ومريم هو البيت الموجود في الأسفل عند القصر(*) حيث ولد سليمان. تقوس سماء الليل فوق «أويد زوسفانا»، وسطعت نجومه على صحراء الحمادة الباردة. وعبر الصحراء المترامية الأطراف جاء الماجوس الثلاثة فوق جمالهم يرتدون البرانس والعمامات، وتوقفوا فوق قمة آخر كثيب رملي كبير ليتطلعوا إلى الوادي حيث كانت تمتد القرية المظلمة. وعندما انتهت الأنسة ويندلينج من قصتها، تمخطت.

بدا سليمان في حالة تقترب من الغيبوبة. ألقت بنظرة سريعة عليه، وتوقعت منه أن يتكلم، لكن لأنه لم يفعل شيئاً، فقد نظرت إليه بعناية أكثر. كانت عيناه تبعثان على القلق، عينا خاليتان من التعبير، وعلى الرغم من أنهما كانتا مثبتتين على وجهها، فقد كان بإمكانها أن تقول إنه كان ينظر إلى شيء ما أبعد كثيراً منها. تنهدت، لم تكن تريد اتخاذ قرار يؤدي إلى إفاقة. فرضية أنها كانت ترغب في إمتاعه، إن لم تكن مدركة جداً لاستحالتها، كانت تعني أن الولد بطريقة ما قد أسرته وجذبه القصة الشعرية، وأنه كان يستعرضها في خياله. «بالتأكيد لا يمكن أن يكون هذا هو الأمر»، قررت، كان الأكثر ترجيحاً

(*) وردت بالعربية [المترجم].

أنه قد توقف منذ بعض الوقت عن الإنصات لكلماتها، وأنه كان جالسا هناك وحسب، وأنه قد أدرك بطريقة غامضة أنها قد وصلت إلى نهاية القصة.

بعد ذلك تحدث سليمان: «أنت محقة، كان ملك الماجوس». التقطت الأنسة ويندلينج أنفاسها وانحنت إلى الأمام، لكنه واصل قائلا: «وبعد ذلك أرسل الشيطان حية ذات رأسين، وقام يسوع بقتلها. كان الشيطان غاضبا من يسوع. وقال له الشيطان: «لماذا قتلت صديقتي؟ هل كان من المحتمل أنها أرادت أن تؤذيك؟» وقال له يسوع: «لقد عرفت من أين جاءت». وكان الشيطان مرتديا برنسا أسود. هذا صحيح»، أضاف، بينما رأى على وجهها تعبيراً اعتبره دلالة على عدم التصديق.

اعتدلت الأنسة، جلست مستقيمة وقالت: «سليمان، ما الذي تتحدث عنه؟ ليست هناك قصص مثل هذه عن يسوع. ولا عن سيدنا عيسى أيضا». لم تكن متأكدة من دقة تصريحها الأخير عن سيدنا عيسى، كان من الممكن، هكذا افترضت، أن توجد مثل هذه الأساطير بين هؤلاء الناس. «أنت تعرف أن تلك مجرد قصص وأنها لا تمت إلى الحقيقة بصلة».

لم يتمكن سليمان من سماعها لأنه كان قد شرع بالفعل في التحدث قائلا: «أنا لا أتحدث عن سيدنا عيسى»، قال بثبات وصرامة. أنا أتحدث عن يسوع، نبي النصارى. الجميع يعرفون أن الشيطان أرسل له حية ذات رأسين».

أنصت الأنسة لصوت الريح للحظة، «آه»، قالت، وتناولت قطعة أخرى من الشيكولاتة، وهي لا تعتزم التطرق في النقاش

إلى حدود أبعد من هذا. بعد ذلك بفترة قصيرة فتشت في حقيبتها مرة ثانية وأخرجت منها العمامة، التي كانت ملفوفة في منديل ورق كبير من نسيج رقيق أحمر في أبيض.

«هذه هدية لك»، قالت وهي تتاولها له. أمسك بها سليمان بطريقة آلية، ووضعها على حجره وظل يحدق فيها. «ألن تقوم بفتحها؟» سألته.

أوما برأسه مرتين ومزق الورق الخفيف فاتحا إياه. عندما رأى لفة من القطن الأبيض ابتسم. بعدما رأت الحياة تدب أخيرا في وجهه، رفعت نفسها إلى أعلى، وصرخت بقوة «دعنا نضعها على رأسك!». أعطاها سليمان طرفا من طرفيها، شدته بإحكام عن آخره بعدما سارت حتى وصلت إلى باب الحجرة. بعد ذلك رفع سليمان الطرف الآخر بيده إلى جبهته، وظل يدور ببطء مرارا وتكرارا، وهو يقترب منها في أثناء دورانه، وهو يرتب ويسوي هيئة العمامة وهو يلفها حول رأسه. «رائع!» صاحت. اقترب سليمان من صف النوافذ المظلمة لكي يتطلع إلى نفسه والعمامة في زجاجها.

«هل بوسعك أن ترى؟» سألته.

«نعم. بإمكانني أن أرى جانبيها»، قال لها، وأضاف، «إنها جميلة جدا».

تقدمت إلى الأمام نحو منتصف الحجرة. «أريد أن ألتقط صورة لك، يا سليمان»، قالت، فرأت نظرة حيرة فورية بدت على وجهه. «هل بإمكانك أن تسدي لي صنيعا؟ اذهب إلى غرفتي وأحضر لي الكاميرا».

«في الليل؟ هل بإمكانك أن تلتقطي صورة في الليل؟»
أومأت بالموافقة، وهي تبتسم بشكل غامض، وأضافت
«وأحضر لي الصندوق الأصفر من فوق السرير».
أبقى سليمان العمامة فوق رأسه، وارتدى برنسه، وأخذ
كشافها الضوئي ومضى إلى الخارج، تاركا الريح تصفق الباب
خلفه. تمت الأنسة ويندلينج ألا يكون الصوت قد أيقظ
بوفيلجا، لأنها راحت تنصت للحظة في حين لم يكن هناك
من صوت سوى هزيم الهواء المندفع عبر الممر في الخارج.
ثم جرت إلى الركن البعيد في الحجرة وأشعلت عود ثقاب،
وراحت بسرعة تشعل جميع الشموع المحيطة حول منظر
الميلاد، وعدّلت من وضع أحد الجمال في الرمل ثم عادت
مرة ثانية إلى الركن قرب المدفأة. لم يكن في مقدورها أن
تتصور أن الشموع يمكن أن تبعث بالكثير جدا من الضوء.
وفي الوقت الحالي صار الطرف الآخر من الحجرة أكثر
إضاءة من الطرف الذي كانت تقف فيه. على الفور انفتح
الباب فجأة ورجع سليمان وهو يحمل الكاميرا وقد علقها
على كتفه. وضع الكاميرا بعناية فوق المائدة، وقال لها: «ليس
هناك صندوق أصفر على السرير». ثم التقطت عيناه بسرعة
خاطفة الخفقان الإضافي غير المألوف للضوء المرتمي على
الجدران البعيدة، فتقدم إلى منتصف الحجرة. رأت الأنسة
ويندلينج أن هذه هي اللحظة المناسبة، «تعال»، قالت وأمسكت
ذراع سليمان وجذبتة برقة قرب الركن إلى حيث كانت لوحة
الميلاد مرئية في شكلها النهائي، وهي تلمع وتتوهج بفعل ضوء

الشموع المرتعش الساقط عليها . لم يقل سليمان شيئا ، توقف عن السير ووقف ساكنا تماما . وبعد لحظة من الصمت ، جذبت ذراعه بتردد ، وشجعته قائلة : « تعال وانظر » . واصلا السير نحو لوحة الميلاد ، وعندما وصلا تولد لدى الأنسة ويندلينج انطباع بأنها لو لم تكن موجودة هناك لكان سليمان قد قام بمد يده ولس المنظر ، وربما كان سيهم برفع الطفل يسوع المكسو باللون الذهبي من سريره المصنوع من ريش الدجاج . لكنه كان واقفا بشكل هادئ ، وهو ينظر إليها . وفي النهاية قال : « هل أحضرت كل هذا من سويسرا ؟ » .

« بالطبع لا ! » ، كان الأمر محبطا لها بعض الشيء فقد كان من الواجب عليه أن يتعرف على الصحراء في الصورة ، وأنه كان يجب عليه أيضا أن يحس بأن تلك الأشياء كانت من بيئته ، وأنها ليست مستوردة . « لقد نفذتها هنا » ، قالت . ثم انتظرت لحظة وسألته : « هل أعجبتك ؟ » .

« آه ، نعم » ، قال بانفعال . « إنها جميلة . اعتقدت أنها جاءت من سويسرا » .

ولكي تتأكد من أنه قد تسنى له فهم الموضوع ، بدأت في التعريف بالشخصيات الواحدة تلو الأخرى ، واتخذ صوتهام مثل هذه التغير في التعبير غير المعتاد النابع عن الاحترام لدرجة أنه رفع بصره إليها بدهشة في إحدى المرات . كان الأمر كما لو أنها كانت تراها هي أيضا للمرة الأولى . « ووصل الما جوس الثلاثة إلى مكان بعيد خارج الصحراء الصخرية المترامية الأطراف لرؤية الطفل » .

«لماذا وضعت كل هذا اللوز هناك؟»، سأل سليمان، وهو يلمس بعضه بسبابته.

«إنها هدايا ليعسوع الصغير».

«لكن ما الذي ستفعلينه بها بعد ذلك؟»، تابع.

«نأكلها، ربما، في ما بعد»، قالت بشكل مقتضب. «خذ واحدة إذا أحببت. تقول إنه لم يكن هناك صندوق أصفر على السرير؟» كانت ترغب في التقاط بعض الصور بينما كانت الشموع لاتزال على القدر نفسه من الارتفاع المتساوي.

«لم يكن هناك سوى السترة وبعض الأوراق، يا سيدتي».

تركته عند اللوحة، ثم اجتازت الحجرة وارتدت برنسها. كان الظلام في الممر كاملا، ولم تكن هناك علامة على أن بوفيلجا كان مستيقظا. كانت تعرف أن غرفتها في حالة كبيرة من الفوضى، فأطلقت شعاع الكشاف هنا وهناك فوق الأرضية قبل أن تدلف إليها. في خضم مزيج الأشياء المبعثرة في كل مكان فوق أرضية الغرفة الصغيرة بدا أن هناك فرصة صغيرة للعثور على أي شيء. كان البصيص الضعيف يضيء، بشكل متتابع، الأشكال الخالية من المعنى الناجمة عن تكوين الأشياء المختلفة الواحد فوق الآخر، تحرك الضوء على امتداد السرير، وخلف الستار الرقيق المهلهل لخزانة الملابس. توقفت فجأة ووجهت الشعاع إلى أسفل السرير. كان الصندوق أمام وجهها، كانت قد وضعتة بجانب لوحة الميلاد.

«لا بد أنني قد أخطأت»، فكرت، وهي تجري خلال الممر. أجبرت نفسها على أن تبطئ من خطواتها السريعة إلى سير

عادي، دخلت إلى حجرة الطعام وأغلقت الباب خلفها بحرص. كان سليمان راكعا على ركبتيه في منتصف الحجرة، وفي يده شيء صغير. لاحظت بارتياح أنه كان يسلي نفسه. «أنا آسفة فقد استغرق ذلك مني وقتا طويلا جدا»، أعلنت في قوة. «لقد نسيت المكان الذي وضعته فيه». كانت تنزع البرنس من فوق رأسها، وقامت بتعليقه الآن على مسمار قرب المدفأة، ثم التقطت الكاميرا والصندوق الأصفر، ومشت بخطى واسعة لتتضم إليه. ربما كان وميض إحساس بذنب غير واضح في تعبيرات وجهه، عندما رفع بصره إلى أعلى، هو الذي جعل عينيها تشردان على امتداد الأرضية نحو شيء آخر كان موجودا على مسافة قريبة، شيء ما شبيه بذلك الذي كان ممسكا به في يده. كان هذا الشيء الملقى في الجوار أحد الرجال الماجوس، وقد تمزق من عند مفصل وركبيه عن مطيته. وكان الرجل الماجوسي الذي في يد سليمان سليما، إلا أن الجمل كان قد فقد رأسه وجزءا كبيرا من رقبتة.

«سليمان! ما الذي تفعله؟» صرخت بغضب واضح. «ما الذي فعلته بلوحة الميلاد؟» تقدمت مقترية من الركن وألقت بنظرة نحوها. لم يكن هناك في الواقع ما هو أكثر من صف الشموع وكومة من الرمال المبعثرة وقد اختلط بها قشر اليوسفي ونوى البلح، وكانت مربعات الورق المفضض ذات اللون الأرجواني والبرتقالي مطوية بعناية ومغروسة هنا وهناك في الرمل. وكان الرجال الماجوس الثلاثة قد جُندوا في معركة سليمان التي أقامها فوق الأرضية، وتم تدمير الخيمة في الحملة العسكرية لانتزاع اللوز المكوم داخلها، وتم نهب شيكولاتة «الليكوز من الأجولة التي

كانت تحتوي عليها . لم تكن هناك علامة في أي مكان تدل على أثر ليسوع الطفل أو ملابسه المصنوعة من قماش اللاميه الذهبي . شعرت بالدموع تطفّر من عينيها . ثم ضحكت باقتضاب ، وقالت : « حسنا ، لقد انتهيت ، أليس كذلك ؟ » .

« نعم ، يا سيدتي » ، قال بهدوء . « هل ستلتقطين الصورة الآن ؟ » ثم نهض على قدميه ووضع الجمل الممزق على الأرضية في الرمل إلى جوار الانقراض والأطلال الأخرى .
تكلمت الأنسة ويندلينج بهدوء واتزان قائلة : « كنت أرغب في التقاط صورة لمنظر الميلاد » .

انتظر سليمان للحظة ، كما لو كان يستمع إلى صوت بعيد . ثم قال : « هل يجب عليّ أن أرتدي برنسي ؟ » .

« لا » ، وبدأت تخرج الفلاش الملحق بالكاميرا . وعندما انتهت من تجهيزه ، التقطت الصورة قبل أن يتاح له وقت كاف لاتخاذ الوضع المناسب للتصوير . رأت أن دهشته نفسها إزاء الضوء الساطع المفاجئ قد طالت وامتدت وتحولت إلى مفاجأة من أن الأمر قد تم بالفعل ، ثم تحولت إلى نوع من الاستياء لكون التصوير قد تم في غفلة منه ، غير أنها تظاهرت بأنها لم تر شيئا ، وراحت تحكم غلق غطاء الكاميرا . كان سليمان يراقبها وهي تجمع أشياءها وترتبها . « هل انتهى الأمر ؟ » ، قال بإحباط .
« نعم » ، أجابت . « ستكون صورة جيدة جدا » .

« إن شاء الله » ، قال سليمان بالعربية .

لم تعمد هذه المرة إلى ترديد عبارته الأخيرة بعده . « أتمنى أن تكون قد استمتعت بالاحتفال » ، قالت له .

ابتسم سليمان ابتسامة عريضة. «آه، نعم، يا سيدتي. استمتعت
أيما استمتاع. شكرا لك».

جعلته يخرج بعيدا إلى ساحة الجمال وأغلقت مزلاج الباب.
وعادت بسرعة إلى غرفتها، وتمنت لو كانت هذه الليلة صافية
مثل الليالي الأخرى، حيث كان بإمكانها الوقوف في التراس
والتطلع إلى الكثران الرملية والنجوم، أو الجلوس فوق السطح
وسماع نباح الكلاب، لأنها على الرغم من تأخر الوقت، لم تكن
بها رغبة في النعاس. أخلت سريرها من كل الأشياء التي كانت
ملقاة عليه، واستلقت فوقه، وهي على يقين من أنها ستظل
مستلقية لفترة طويلة من دون نوم، بسبب الصدمة التي ألمت
بها نتيجة للفوضى التي أحدثها سليمان في أثناء الدقائق
القليلة التي غابت فيها عنه. على مدار الفصول التي مرت على
صداقتهما اعتبرت أن تفكيرها فيه كان باعتباره مثلها أو قريبا
جدا إلى نفسها، على الرغم من أنها كانت تعرف أن سليمان لم
يكن قريبا إلى نفسها في المرة الأولى التي التقت فيها. وهي الآن
ترى كيف أنها خدعت نفسها وسقطت في ذلك الغرور الخطير
الباطل والزائف في قلب ذلك الوهم: فقد افترضت بطريقة ما
أن مرافقته وصداقته لها، بطريقة تلقائية، كانت شيئا جيدا إلى
أقصى حد بالنسبة إليه، لدرجة أنه كان سيمر بعملية تحسن
وتطور لا يمكن التفاوضي عنها، نتيجة لمعرفته بها. وفي غمرة
رغبتها في رؤيتها له وهو يتغير، كانت قد بدأت تتسوى ما كان
عليه سليمان بالفعل في الأصل. «لن أتمكن من فهمه أبدا».
فكرت بشكل يائس، وهي واثقة من هذا كل الثقة لأنها أحست

بأن اقترابها الشديد منه لم يتح لها الفرصة أبدا لأن تكون قادرة على ملاحظته من دون تحيز.

«هذه هي الصحراء»، قالت لنفسها. الطعام هنا ليس للزينة؛ فالغرض منه هو الأكل. لقد قمت بتقديم الطعام، وقام هو بتناوله. وأي نقاش سيليقي باللوم على هذا ويدين الولد يمكن أن يكون خاطئاً في النهاية. ولذا كانت ممددة هناك وهي تتهم نفسها، «لقد كان الأمر مثالياً بدرجة متقدمة وراقياً إلى حد كبير جداً»، فكرت بإمعان، «وليس مجرد رغبة أو ميل إلى الشفقة». وفي النهاية غرقت في النوم على صوت الريح.

عندما استيقظت في الفجر رأت أن اليوم سيصبح يوماً آخر مظلماً. كانت الريح قد هدأت. نهضت وأغلقت النافذة. كانت سماء الصباح الباكر مليدة بالغيوم. فعادت إلى سريرها وراحت في النوم. كان الوقت متأخراً عن المعتاد عندما نهضت عن سريرها، وارتدت ثيابها ودخلت إلى حجرة الطعام. كان وجه بوفيلجا خالياً من التعبير بشكل غريب عندما ألقى عليها تحية الصباح. فافترضت أن هذا كان بسبب ذكرى سوء التفاهم الذي وقع في الليلة الماضية والتي لم تفارقه بعد، أو من المحتمل أنه كان متضايقاً للاضطراب إلى تنظيف بقايا منظر الميلاد. بمجرد أن جلست وبسطت فوطتها فوق حجرها، اعتدل بشكل كاف ليقول لها: «احتفال سعيد».

«شكراً لك، قل لي يا بوفيلجا»، واصلت وقد تغيرت نبرة صوتها، «عندما أحضرت سليمان إلى هنا في الليلة الماضية بعد تناول العشاء، هل كنت تعرف أين كان؟ هل أخبرك بمكانه؟».

«إنه ولد غبي»، قال بوفيلجا، «قلت له أن يذهب إلى البيت ويتناول طعامه ويعود في وقت لاحق. هل تعتقدين أنه قد فعل ذلك؟ أبداً. فقد ظل طوال الوقت يتجول في أرجاء الفناء، خارج باب المطبخ، في الظلام».

«لقد فهمت!» صاحت الأنسة ويندلينج في فرح، «وبالتالي لم يتناول أي عشاء على الإطلاق».

«لم يكن لدي شيء لأقدمه له»، بدأ بوفيلجا، وقد تحفز للدفاع عن نفسه.

«لم يكن عليك بالطبع»، قالت بصرامة. «فقد كان ينبغي عليه أن يذهب إلى البيت ويتناول طعامه».

«آه، أترين؟» ابتسم بوفيلجا ابتسامة عريضة، وأضاف: «هذا هو ما قلت له أن يفعله!».

راحت القصة كلها تتجسد في ذهنها على النحو التالي: ليس من المستبعد أن يكون سليمان قد أخبره والده وهو واقف بعيداً عنه أنه سيتناول طعامه في الفندق مع السيدة السويسرية، وأغلب الظن أن الرجل العجوز قد أتى ببعض الإشارات الدالة على الاحتقار لها، ثم غادر سليمان البيت. ولم يكن هناك مجال للتفكير في العودة إلى البيت ومواجهة السخيرية من جانب عائلته، عندما تم منعه من الدخول إلى حجرة الطعام، «يا للولد المسكين»، تمتعت.

«قائد الشرطة يرغب في رؤيتك»، قال بوفيلجا، بطريقة من طرقه الفجة في الكلام والتي يلجأ فيها إلى استخدام عنصر المفاجأة. أصابتها الدهشة، نظرا إلى أن القائد، العام تلو الآخر،

ثم تصدر عنه أي بادرة تدل على أنه كان على دراية بوجودها،
غالفندق والحصن كانا مثل مدينتين منفصلتين. «ربما بسبب
الاحتفال»، قال بوفيلجا مقترحا، ووجهه يخفي حقيقة ما يخبئه.
«ربما»، قالت بارتباك.

وعندما فرغت من تناول إفطارها، سارت إلى الجهة المقابلة
حيث بوابات الحصن. بدا أن الحارس كان في انتظارها، وكان
أحد الجنديين الفرنسيين الشابين يطلي أحد الكراسي في الفناء
الداخلي للحصن. ألقى الجندي الشاب عليها التحية، وقال لها إن
القائد في مكتبه. صعدت درجات السلم الطويلة وتوقفت لحظة
في أعلاها، وألقت بنظرة إلى أسفل على الوادي ولاحظت، في
الضوء الرمادي غير المعتاد، إلى أي مدى كان الوادي مختلفا
تماما عما هو عليه في العادة، في هذا اليوم المعتم.

جاءها صوت من الداخل يناديهما: «تفضلني بالدخول إذا
سمحت!» (*) ففتحت الباب ودخلت إلى الحجرة. كان القائد
جالسا خلف مكتبه، تولد لديها شعور قوي غير محبب لأنه سبق
لها الوقوف في موقف مشابه لهذا في مناسبة أخرى، وفي مكان
آخر. واقتتعت فجأة أنها كانت تعرف ما كان على وشك أن يقوله.
أمسكت الأنسة ويندلينج بظهر الكرسي الخالي المواجه للمكتب.
«تفضلني بالجلوس، يا آنسة ويندلينج»، قال، وهو ينهض عن مقعده
بشكل جزئي، وأشار بذراعه ثم جلس بسرعة مرة ثانية.

كانت هناك عدة خرائط طبوغرافية معلقة على الحائط
خلفه، وعليها علامات بالطباشير الأرجواني والأخضر. نظر

(*) وردت العبارة بالفرنسية [المترجم].

القائد إلى مكتبه ثم إليها، وقال في صوت واضح: «إنه لمن سوء الحظ أن أضطر إلى استدعائك إلى هنا في هذه الإجازة». جلست الأنسة ويندلينج على الكرسي، ومالت إلى الأمام، وقد بدا أنها على وشك أن تسند مرفقها إلى مكتبه، لكنها بدلا من ذلك وضعت إحدى ساقيهما فوق الأخرى وعقدت ذراعيها إلى صدرها بإحكام. «نعم؟» قالت، في توتر، وهي تنتظر الرسالة. وعلى الفور جاءت الرسالة التي كانت على دراية مسبقة بها، وعلى الرغم من ذلك، فقد كانت ممتنة له. قال لها بوضوح إن المنطقة بأكملها قد أُغلقت بالنسبة إلى المدنيين، وأن هذا الأمر ينطبق على المواطنين الفرنسيين بالإضافة إلى الأجانب، ولذلك يجب ألا تشعر بتحامل تجاهها. وقد قيلت الجملة الأخيرة مصحوبة بمحاولة رسم ابتسامة تدل على الاستياء والتسليم بالأمر الواقع. «هذا يعني أنه يجب عليك أن تستقلي الشاحنة غدا في الصباح»، وقال القائد مواصلا كلامه: «لقد تم إخطار السائق بالفعل برحلتك. ربما في عام آخر عندما ينتهي الاضطراب...» (لماذا يقول ذلك؟) فكرت، في حين أنه يعرف أن هذه هي النهاية، وأن وقت الصداقة قد انتهى؟) نهض القائد ومدّ يده إليها.

لم يكن بوسعها أن تتذكر خروجها من حجرة المكتب وهبوطها السلم الطويل إلى الفناء الداخلي، إلا أنها كانت تقف الآن خارج البوابة التي يقف عليها الحارس بجوار سور الحصن، ويدها على جبينها. «بالفعل، لقد جاء سريعا جدا»، فكرت. وخطر لها أنه لن يتاح لها وقت كاف للقيام بالإصلاح من شأن سليمان

وتحسينه لذلك فقد كان حقيقيا فعلا أنها لن تتمكن من فهمه أبدا. تقدمت إلى حاجز الشرفة المنخفض لتتظر للحظة إلى أسفل حيث حافة الواحة، ثم عادت إلى غرفتها لتشرع في حزم أمتعتها. ظلت طوال اليوم تعمل في غرفتها، تخرج الصناديق، وهي تجبر نفسها على أن تعمل تركيزها فقط على القرارات التي كانت تتخذها في ما يتعلق بما كان يتعين عليها أن تأخذه معها أو تتركه بصفة نهائية.

في وقت الغداء أخذ بوفيلجا يتلأأ قرب كرسيها، ثم قال: «آه، يا أنسة، كم من الأعوام قضيناها معا، وانتهت الآن!». «نعم»، فكرت، لكن لم يكن ثمة شيء للقيام به في ما يتعلق بهذا الشأن. أزعجها رثاؤه أو تفجعه وجعلها عصبية وجافة معه. ثم أحسست بالذنب على نحو كامل، فقالت ببطء وهي تنظر إليه مباشرة: «أنا حزينة جدا، يا بوفيلجا». تتهد قائلًا: «نعم، يا أنسة، أعرف!».

وعند مغيب الشمس زحفت السحب الكثيفة القائمة بعيدا عبر الصحراء، وكانت السماء الغربية صافية بشكل جزئي. كانت الأنسة ويندلينج قد انتهت من حزم جميع أمتعتها. خرجت إلى الشرفة، وشاهدت الكتبان الرملية القرنفلية المتوهجة، ثم صعدت السلالم إلى السطح لتشاهد الغروب. كانت السماء مخططة بمجموعات كبيرة من السحب شديدة الاحمرار بلون النار. تركت نظرتها المحدقة تتبع بطريقة آلية التواءات وتعرجات وادي النهر الذي راح يضيع نفسه في صحراء الحمادة المظلمة في اتجاه الجنوب. «إن هذا في الماضي»، ذكرت نفسها، كان هذا عهدا جديدا بالفعل. بدت الصحراء هناك في الخارج كما

كانت تبدو عليه دائما . لكن السماء ، المفتقرة للتناسق ، بين اللونين الأحمر والأسود ، كانت مثل الإعلانات اليدوية التي انتشرت فوقها مباشرة ، تعلن قدوم الحرب .

كانت خيانة ، هكذا فكرت ، وراحت تهبط السلالم العالية شديدة الانحدار ، وتنقل يدها على امتداد الحائط الطيني الخشن المألوف لتحافظ على ثباتها وتوازنها . كان الفرنسيون بالطبع هم المتهمين . لكن بعيدا عن هذا كانت هي على اقتناع غير مقبول بأن الريف ذاته قد تأمر في الخيانة ، بما أنه كان ينتظر ليتحول إلى ساحة للصراع . دخلت إلى غرفتها وأنارت المصباح الزيتي الصغير ، وجلست ، وأبقت يديها فوق المصباح لتدفئتهما . من ناحية أخرى كان هناك تغيير ، فلم يعد الناس راغبين في الاستمرار في العيش في العالم الذي عرفوه . وضغط الماضي أصبح عظيما جدا ، وتحطمت محارته الواقية .

بعد الظهر قامت بإرسال بوفيلجا لينقل الخبر إلى سليمان ، ويطلب منه أن يحضر إلى الفندق في الفجر . في أثناء وجبة العشاء راحت تناقش بشكل دقيق تفاصيل المغادرة والسفر . وعندما حاول بوفيلجا التطرق في المحادثة إلى اتجاهات عاطفية ، لم ترد عليه . كانت مواساته لا تطلق ، وكانت هي غير معتادة على التعبير عن قنوطها . عندما وصلت إلى غرفتها ذهبت من فورها إلى السرير . وظلت الكلاب تتبع حتى منتصف الليل .

كان الطقس باردا في الصباح . كانت يدها تؤلمها عندما راحت تجمع أغراضها المبتلة من حوض الغسل فوق المنضدة ، وبطريقة ما دفعت شظية على نحو عميق تحت ظفر إبهامها . أخرجت

جزءاً منها بواسطة إبرة، لكن تبقى الجزء الأكبر منها. مضت إلى الخارج قبل الإفطار.

ووقفت في أرض قاحلة بين الفندق والحصن، ونظرت إلى أسفل إلى وجه الريف البريء. ومضخة الجازولين المقفلة بالقفل، والمبهجة في طلائها الجديد باللونين الأحمر والبرتقالي، واللافتة للانتباه في ضوء الشمس المبكر النقي. وقد بدت لها لبرهة الشيء الوحيد الحقيقي في المشهد. استدارت إلى الوراء. فوق الكتلة المظلمة غير المتناسقة لأشجار النخيل ارتفعت القرية بشرفاتها، هادئة في الصباح تحت ستار دخان الخشب. أغلقت عينها للحظة، ثم دخلت إلى الفندق.

كان في مقدورها أن تشعر بنفسها وهي جالسة ساكنة فوق كرسيها بينما كانت تشرب قهوتها، وكانت تعرف أنها كانت متحفظة ورسمية في تعاملها مع بوفيلجا لكنها كانت متأكدة من أن تلك هي الطريقة الوحيدة التي كانت تجعلها قادرة على الاستمرار. وبمجرد أن جاء لإخبارها أن سليمان قد وصل جالبا معه الحمار وصاحبه لحمل أمتعتها، شكرته ووضعت فنجان قهوتها على المنضدة. «هل ترغبين في المزيد؟»، قال بوفيلجا. «كلا»، أجابت. «تناولي فنجانا آخر يا آنسة»، حثها. «إنه جيد في الصباح البارد». وصب فنجانا آخر لها فشربت بعضاً منه. كان هناك صوت طرق على البوابة. كان أحد الجنديين الشابين قد أرسل بعربة جيب ليقوم بتوصيلها إلى نقطة توقف الشاحنة على الطريق.

«لن أستطيع!» صاحت، وهي تفكر في سليمان والحمار. أوضح الجندي أنه لا يقوم بعمل تطوعي، وأنه قد صدر إليه أمر بهذا.

كان سليمان واقفا بجوار الحمار خارج البوابة. وعندما شرعت في التحدث مع سليمان صاح الجندي: «هل يريد هذا الصبي المجيء معنا؟ بإمكانه أن يأتي أيضا، إذا أحب». جرى سليمان ليحضر الأمتعة وأسرعت الأنسة ويندليج لتسوي حسابها. «لا تتعجلي»، صاح الجندي إليها، «هناك فسحة من الوقت». كان بوفيلجا واقفا في مدخل المطبخ. خطر لها للمرة الأولى أن تتساءل عما سيحدث له، فعند إغلاق الفندق سيصبح بلا عمل. عندما انتهت من تسوية حسابها وأعطته «بقشيشا» كان أكبر بكثير مما بوسعها أن تمنحه، أمسكت بكلتا يديه في يدها وقالت: «عزيزي بوفيلجا، سوف يرى أحدا الآخر قريبا جدا». «آه، نعم»، صرخ بوفيلجا وهو يحاول أن يبتسم. «قريبا جدا، يا آنسة».

أعطت سائق الحمار بعض المال، وصعدت إلى العربة الجيب بجوار الجندي، وكان سليمان قد انتهى من وضع الأمتعة ووقف خلف العربة، يركل الإطارات. «هل أحضرت كل شيء؟»، نادى عليه. «كل شيء؟» كانت ترغب في رؤية كل شيء بنفسها، لكنها كرهت الرجوع إلى الغرفة. كان بوفيلجا قد اختفى، وعاد الآن مسرعا وهو يلهث حاملا كومة من المجلات القديمة. «حسنا، لا، لا، أنا لا أريدها»، قالت. كانت العربة قد تحركت بالفعل إلى الأمام باتجاه أسفل التل. وفي غضون وقت كان بالنسبة إليها قصيرا جدا كانوا قد وصلوا إلى منطقة الصخور. عندما حاولت الأنسة ويندلينج رفع حقيبة يدها بدأت الدموع تطفر من عينيها بسبب الألم الذي سببته بقية الشظية تحت ظفر إبهامها، فتركت

نفسها تتفجر في البكاء. لمحها سليمان فأصابته الدهشة، «لقد أصبت يدي»، قالت له مفسرة، «ليس الأمر خطيرا».

تم رص الحقائق في الظل. كان الجندي الفرنسي جالسا فوق صخرة قرب العرية في مواجهة الأنسة ويندلينج، ومن وقت إلى آخر كان ينعم النظر في الأفق من خلفها بحثا عن أثر للشاحنة. كان سليمان يتفحص العرية الجيب من جميع الجهات، وفي النهاية جلس على مقربة منها. لم يقل أحدهما للآخر الكثير. لم تكن متأكدة إن كان هذا بسبب الجندي، أو لأن إبهامها كان يؤلمها جدا بشكل مستمر، لكنها كانت جالسة في هدوء تنتظر، ولا ترغب في التحدث.

كان قد مر وقت طويل قبل أن يتم سماع صوت موتور الشاحنة. وعندما كانت الشاحنة لاتزال بعيدة ولا تعدو كونها سحابة من الغبار بين السماء والأرض، كان الجندي قد نهض على قدميه وراح يراقبها، وبعد فترة قصيرة نهض سليمان وقال: «لقد وصلت، يا سيدتي». ثم انحنى واقترب بوجهه بشدة من وجهها وهمس إليها «أريد أن أذهب معك إلى» كولون - بشار^(*). وعندما لم ترد عليه، لأنها كانت ترى بالكامل قصة صداقتهما تتري أمامها رويدا رويدا، بدءا من نهايتها وحتى بدايتها، قال لها في صوت أعلى، وبإلحاح كبير: «من فضلك، يا سيدتي».

ترددت الأنسة ويندلينج لحظة فقط. رفعت رأسها ونظرت بتفرس في وجه سليمان الأسمر الأملس الذي كان قريبا جدا منها، وقالت «بالطبع، يا سليمان». كان من الواضح أنه لم يكن

(*) مدينة في غرب الجزائر [المترجم].

يتوقع أن يسمع هذا، وانتقلت البهجة التي غمرته إليها، فابتسمت بينما كانت تشاهده وهو يجري إلى كومة الحقائق وراح ينقلها من الظل إلى حيث ضوء الشمس ليضعها على هيئة صف في الغبار بجانب الطريق الوعرة.

في ما بعد، عندما كانوا ينطلقون بسرعة على امتداد الحمادة، هي في المقدمة إلى جوار السائق وسليمان مقرفصا في الخلف مع دسنة من الرجال والغنم، راحت تنظر بعين الاعتبار إلى ما قامت به من عمل غير مسؤول بسماعها له بالقيام بهذه الرحلة العبثية بصحبته على طول الطريق إلى كولون - بشار. ومع ذلك، كانت تعرف أنها تريد أن تعطي قصتهما نهاية كهذه. كانت بين الحين والآخر تلتفت بشكل جزئي في مقعدها لتتظر بسرعة عبر الزجاج المتسخ، وكان سليمان جالسا هناك في الغبار والدخان، يضحك مثل الآخرين، وقلنسوة برنسه تغطي معظم وجهه.

كانت الدنيا تمطر في كولون - بشار، وكانت الشوارع عبارة عن برك كبيرة تنعكس على صفحتها السماء الملبدة بالغيوم. في الجراج تمكنا من العثور على ولد زنجي فظ ليساعدهما على نقل الأمتعة إلى محطة السكة الحديد. كان إبهامها يؤلمها بدرجة أقل قليلا.

«إنها بلدة باردة»، قال لها سليمان بينما كانا يهبطان إلى الشارع الرئيسي. في المحطة أودعا الحقائق في الأمانات، ثم ذهبا إلى الخارج ووقفا يشاهدان إحدى السيارات التي كان يجري إنزالها من قطار بضائع مفتوح: كان سقف السيارة لا يزال مغطى بالثلج الأبيض الذي تساقط فوقه من السهول المرتفعة.

كان النهار داكنا، وكانت الريح تحدث أمواجا في أسطح الماء في الأراضي الجرداء المغمورة به. ولأنه لم يكن بإمكان قطار الأنسة ويندلينج أن يغادر حتى وقت متأخر من بعد الظهر، فقد ذهبوا معا إلى المطعم وجلسوا فترة طويلة يتناولان الغداء.

«هل ستعود بالفعل إلى بيتك غدا؟»، سألته في قلق في إحدى المرات، بينما كانا يتناولان الفاكهة. «أنت تعرف أننا قمنا بعمل مزعج جدا لأبيك وأمك. وأنهما لن يسامحاني أبدا». بدا وكأن ستارا قد سقط على وجه سليمان. «لا يهم»، قال باقتضاب.

بعد الغداء سارا في الحديقة وشاهدا النسور في أقفاصها. بدأت الريح تجلب مطرا خفيفا. وأصبح طين الطريق أكثر عمقا. عادا إلى وسط البلدة وجلسا في شرفة مقهى حديث واسع وردي. كانت الطاولة الموضوعة في مؤخرة الشرفة محمية بشكل جزئي من الريح المحملة بالمياه، كانا في مواجهة بقعة فارغة تناثرت بها قمامة ملقاة. وكان في الجوار، ممددا مثل عظام أحد الجمال التي تسقط على الطريق، بقايا حافلة قديمة صدئة. وكانت نخلة طويلة مقطوعة حديثا ملقاة بشكل قطري بطول رقعة الأرض الكبيرة. التفتت الأنسة ويندلينج لتتظر إلى الألياف البرتقالية المبتلة في جذع النخلة المقطوعة، وشعرت بشفقة كاملة لا جدوى منها نحو الشجرة. «سأطلب كوكا كولا»، قالت معلنة. وقال سليمان إنه يرغب هو أيضا في واحدة.

ظلا جالسين هناك فترة طويلة. مال المطر الخفيف خلال الهواء إلى خارج الأروقة المقنطرة، وراح يرتطم بالأرض في صمت. كانت قد توقعت أن يقترب منها الشحاذون، لكن لم

يصل أحد منهم، ونظرا إلى أن الوقت قد حان لمغادرة المقهى والذهاب إلى المحطة فقد كانت ممتة لرؤية أن اليوم قد انصرم بسهولة شديدة. فتحت محفظتها، وأخرجت منها ثلاثة آلاف فرنك، وأعطتها لسليمان وهي تقول: «سيكون هذا المبلغ كافيا لكل شيء. لكن يجب عليك أن تشتري تذكرة العودة إلى قريتك اليوم، عندما تغادر محطة السكة الحديد. كن شديد الحرص عليها».

وضع سليمان المال في ملابسه، وأعاد تسويه برنسه، ثم شكرها. «هل فهمت يا سليمان»، قالت، ثم احتجزته بيدها لتتمهله، لأنه بدا على وشك أن ينهض عن الطاولة. «لن أعطيك أي نقود أخرى الآن، لأنني في حاجة إلى ما معي لرحلتي. لكن عندما أصل إلى سويسرا سأرسل لك القليل، من وقت إلى آخر. ليس كثيرا، القليل».

كان وجهه قد سيطرت عليه علامات الذعر، وكانت هي في حيرة من أمرها.

«إنك لم تأخذي عنواني»، قال لها.

«لا. لكنني سأرسلها على عنوان بيت بوفيلجا»، قالت، ظلنا منها أن هذا سوف يرضيه. مال نحوها، وعيناه تشعان قوة وتركيزا، وقال في حسم: «لا، يا سيدتي. لا، لدي عنوانك، وسأرسل إليك عنواني. وعندما يصلك، يمكنك أن تكتبي لي عليه».

لم يبد أن هذا الأمر يستحق الجدل بشأنه. طوال فترة بعد الظهر لم يؤلها إبهامها كثيرا جدا، لكن الآن، وبينما كان النهار على وشك الانتهاء، بدأ يؤلها بشدة، مرة ثانية. أرادت أن تنهض،

وتبحث عن النادل لتعطيه حسابه. لا يزال المطر الخفيف يهب، وكانت المحطة بعيدة نوعاً ما، إلا أنها رأت أن سليمان كان لديه شيء ما أكثر ليقوله. مال سليمان في كرسيه إلى الأمام ونظر إلى الأرض، «سيدتي»، بدأ. «نعم؟» قالت.

«عندما تكونين في بلدك وتفكرين فيّ لن تكوني سعيدة. هذا صحيح، أليس كذلك؟».

«سأكون حزينة جداً»، أجابت وهي تنهض.

نهض سليمان ببطء، وصمت برهة قبل أن يواصل كلامه قائلاً: «حزينة لأنني أكلت الطعام من اللوحة. كان هذا سيئاً جداً. سامحيني».

صاحت صارخة في نبرة قوية أفزعته «لا لا لا!». صرخت مرة ثانية: «كان هذا شيئاً جيداً!» وأحست بعضلات وجهها وشفثتها تنقلص إلى تكشيرات توحى بالبكاء، فأمسكت بذراع سليمان بقوة ونظرت إلى وجهه: «آه، يا صغيري المسكين!» وراحت تتشجج، ثم غطت وجهها بكلتا يديها. وشعرت بسليمان وهو يلمس كمّها في رقة ورفق. مرت شاحنة في الشارع الرئيسي، فهزّت الأرض. وبصعوبة بالغة ابتعدت وراحت تفتش في حقيبتها عن منديل. «تعال»، قالت، ثم تنحنحت، وأضافت: «ناد على النادل».

وصلا إلى المحطة مبتلين وهما يشعران بالبرد. كان القطار يجري ترتيب عرباته وتجهيزه، ولم يكن مسموحاً للركاب بالاتجاه إلى الرصيف فجلسوا على الأرضية في الداخل. بينما كانت الأنسة ويندلينج تشتري تذكرتها ذهب سليمان ليحضر الحقائق من الأمانات. كانت قد مضت على ذهابه فترة طويلة. وعندما

عاد كان برنسه مطروحا على ظهره فوق كتفيه، وابتسامة فخر وانتصار عريضة على شفتيه، والحقائب الثلاثة مرصوصة فوق رأسه. وكان رجل يرتدي سترة وبنطلونا أوروبيين باليين يسير خلفه حاملا بقية الأمتعة. عندما اقترب منها أكثر رأت الرجل يحمل قصاصة ورقية بين أسنانه.

كانت مقصورة القطار القديمة تبعث برائحة ورنيش. كان بوسعها أن ترى عبر النافذة، فوق بعض الأراضي الجرداء البعيدة في اتجاه الغرب، بضعة خيوط من السماء البيضاء الممتلئة بالمياه. أراد سليمان أن يغطي المقاعد بالأمتعة، حتى لا يجيء أحد ويجلس في المقصورة. «لا»، قالت. «ضعها على الأرفف». كان هناك ركاب قليلون جدا في عربة القطار. عندما تم الانتهاء من وضع كل شيء في موضعه الصحيح، وقف الحمال خارج المقصورة في الممر، ولاحظت أنه لا يزال ممسكا بقصاصة الورق بين أسنانه. عمد إلى عد العملات المعدنية التي أعطته إياها ووضعها في جيبه. ثم بسرعة أعطى الورقة إلى سليمان، وانصرف.

مالَت الأنسة ويندلينج إلى أمام قليلا، وراحت تتفحص وتتنظر إلى وجهها في المرأة الصغيرة التي كانت ممتدة بالطول على ظهر المقعد المقابل لها. لم يكن هناك ضوء كاف، وكان المصباح الزيتي فوقها يضيء السقف فقط، وكانت قاعدته تلقي بظل واهن على كل ما تحتها. فجأة اهتز القطار وصدرت عنه سلسلة من الأصوات الصاخبة. أخذت رأس سليمان بين يديها وقبلته في منتصف جبينه. «من فضلك انزل من القطار»، قالت له.

«بإمكاننا التحدث من هنا»، وأشارت إلى النافذة وبدأت تجذب الحزام الجلدي الذي في أسفل النافذة لتفتح زجاجها.

بدأ سليمان صغيراً في ظلمة الرصيف، وهو يحدق فيها إلى أعلى بينما مالت هي إلى الخارج. ثم بدأ القطار في التحرك. اعتقدت في ثقة أن القطار سيتحرك عدة أقدام فقط ثم يتوقف بعد ذلك، لكنه واصل تقدمه ببطء. راح سليمان يسير معه، محافظاً على محاذاته للنافذة التي تقف فيها. وفي يده الورقة التي أعطاه إياها الحمال. رفعها إلى أعلى ليناولها إليها، وهو يصيح: «هذا هو عنواني! أرسله على هذا العنوان!».

أخذت الورقة، وظلت تلوح له بينما كان القطار يسرع، وواصلت الصياح: «إلى اللقاء!» استمر سليمان في المشي بسرعة بمحاذاة النافذة، وظل يزيد من خطواته حتى صار يجري، ثم انتهى الرصيف فجأة ولم يعد هناك المزيد منه. انحنت هي إلى الخارج أكثر، وهي تنظر إلى خلف القطار، وتلوح لسليمان، حتى اختفى في الظلام والمطر. التمتع لسان برتقالي من اللهب عند القضيب، ووسع الدخان فتحت أنفها. سحبت النافذة إلى أعلى، ونظرت بسرعة إلى قصاصة الورق التي في يدها، ثم جلست. ظل القطار يهزها يمناً ويسرة، وهي تواصل التحديق في الورقة، على الرغم من أنها أصبحت الآن في الظل والعمّة. وتذكرت اليوم الأول، منذ فترة طويلة، عندما كان الطفل سليمان يقف خارج الباب يراقبها، ويتراجع عن مجال رؤيتها في كل مرة كانت تحاول فيها أن تنظر إليه. كانت الكلمات المكتوبة له على عجل بواسطة الحمال على قصاصة الورق هي عنوانه من دون شك،

غير أن العنوان كان في كولون - بشار. «قالوا إنه حاول الهرب. لكنه لم يذهب بعيدا جدا». كانت كل جزئية من تفاصيل سلوكه عندما استرجعتها بوضوح تبين طبيعته ونمط سلوكه لها. «إنه صغير جدا لكي يكون جنديا»، قالت لنفسها. «لن يأخذوه إلى الجندية»، لكنها كانت تعرف أنهم سوف يفعلون.

كان إبهامها ساخنا ومتورما، وبدا في بعض الأحيان أن خفقان إبهامها كان متزامنا تقريبا مع اهتزاز العربة من جانب إلى آخر. نظرت إلى البقع القليلة الباقية من الضوء في السماء، كانت هذه البقع بلا لون. «كان سيقدم على فعلته هذه إن أجلا أو عاجلا»، قالت محاولة أن تقنع نفسها.

«ربما في عام آخر»، قال القائد. رأت ابتسامتها اليائسة الملتوية في زجاج النافذة المعتم المجاور لوجهها. ربما سيكون سليمان من بين المحظوظين، أول الجنود الذين يسقطون في المعركة. «لو كان الموت هو الشيء الوحيد المؤكد تماما في زمن الحرب»، فكرت بامتعاض، «فلن يكون الحزن والنحيب مؤلما جدا». بدأ القطار، رحلة الصعود الطويلة إلى أعلى قمة الهضبة، وهو يتمايل ويصدر صوتا كالأنين.

بعد الظهيرة مع أنتيوس

أنت أردت رؤيتي؟ ما قالوه لك صحيح. اسمي. «نتيوز». وينادونني بالعملاق الأفريقي منذ بدأت القتال. ما الذي أستطيع أن أفعله لك؟ هل رأيت البلدة؟ إنها ليست بالمكان السيئ. أنت محظوظ فالرياح لا تهب هذه الأيام. لدينا رياح سيئة، تعبر من هنا، لكن من دونها تكون الشمس شديدة الحرارة. أرجوس؟ لم أسمع هذا الاسم من قبل. لم يسبق لي أبدا الذهاب إلى الجانب الآخر.

رجل يدعى إيراكلي؟ نعم، نعم، كان موجودا هنا. كان هذا منذ زمن بعيد. إنني أتذكره. حتى أننا قمنا بالتعارك معا. قتلني! هل هذا هو ما قاله لهم عني عند عودته إلى هناك؟ فهمت. وعندما جئت أنت إلى هناك سمعت أنني مازلت على قيد الحياة، ولذلك أردت مقابلتي؟ نعم.

لم لا نجلس في هذا المكان؟ يوجد ينبوع في الساحة به أبرد مياه في البلدة. أنت تسأل عن إيراكلي. لا، لم يواجه مشكلات هنا، ما عدا خسارته معركته. لماذا يرغب أحد في مضايقته؟ رجل بمفرده. أنت لم تره من قبل. سوف تدعه يمضي في سبيله. لن تضايقه. فقط الهمجيون هم الذين يهاجمون غريبا يمشي بمفرده. يقتلونه ثم يتقاتلون على مؤثره الذي يستر عورته. نحن ندع الناس يمضون في طريقهم من دون كلمة من جانبنا. إنهم يجيئون من جانب ويعبرون إلى الآخر في حال سبيلهم. هذه هي الطريقة التي نفضلها. مسالة وصداقة مع كل شخص. لدينا

قول سائر: لا تؤذ إنسانا إلا إذا عرفت أن بإمكانك قتله، وعندئذ
اقتله بسرعة. في الجزء العلوي حيث موطني الأصلي نحن قساة
وخشنون أكثر من هؤلاء الموجودين هنا في الجزء السفلي على
الساحل. لدينا حياة أكثر مشقة وقسوة، لكننا أصحاء بدنيا أكثر.
انظر إليّ، ستجدني تقريبا من سن والدك. لو أنني عشت حياتي
كلها تحت هنا في الساحل لما كانت حالتي العامة مثلما هي عليه
الآن. ومع ذلك فأنا لا شيء بالمقارنة بما كنت عليه منذ عشرين
عاما. في تلك الأيام كنت أذهب إلى كل احتفال وأقدم العروض
للناس. فأرفع ثورا بيد واحدة وأضربه بين قرنيه باليد الأخرى،
ليسقط صريعا. الناس يحبون رؤية هذا. في بعض الأحيان كنت
أكسر عوارض خشبية برأسي، وكان هذا أمرا مألوفا جدا وشائعا
أيضا، لكن الثور كان من الطقوس الدينية، وبالطبع، كان الثور هو
ما يود الناس رؤيته أكثر من غيره من العروض. لم يوجد هناك
أحد لم يسمع عني.

هل تأخذ بعضا من حبات الجوز؟ أنا أكلها طوال اليوم. أحصل
عليها من العمق من داخل الغابة. هناك أشجار فوق، أكبر من أي
أشجار رأيته أنت من قبل.

كان هذا على الأقل منذ عشرين عاما مضت حين جاء مارا من
هنا، لكنني أتذكره، أتذكره جيدا. ليس لأنه كان جيدا إلى درجة
ما كمقاتل، لكن لأنه كان مجنونا جدا. ليس بإمكانك الحيلولة
دون تذكرك رجلا مجنونا مثل إيراكلي.

لديّ المزيد من حبات الجوز. لديّ ملء جوال، جوال مملوء
عن آخره. هذا صحيح، النكهة المميزة ليست بالمرّة مثل أي شيء

آخر. أنا أفترض أنكم ليس لديكم مثل هذه النكهة في الجانب الآخر.

لن أكون سعيداً إلا إذا اصطحبتك إلى فوق حيث الغابة، إذا رغبت في رؤيتها. إنها ليست بعيدة. ألا تمنع في القليل من التسلق إلى أعلى؟

بالطبع لم ينشئ أي صداقات هنا، غير أن رجلاً مثله ليس في استطاعته تكوين صداقات؛ كان ممتلئاً جداً بكثير من الأفكار العظيمة عن نفسه حتى أنه لم يكن يرانا على الإطلاق. كان يعتقد أننا جميعاً همجيون، وعلى استعداد لآزدراد قصصه بسذاجة. حتى قبل القتال كان كل فرد يضحك منه. قوي، نعم، لكنه ليس مقاتلاً جيداً. مفرط بشناعة في تفاخره، وكذاب فضليع. وجاهل.

سوف نستدير هنا ونصعد هذا الطريق. إنه يتحدث طوال الوقت. إذا صدقته، فلن تجد هناك شيئاً لا يمكنه القيام به، ويقوم به أفضل من أي شخص آخر.

سوف ترى مشاهد ممتعة في الطريق. حافة العالم. أي أحاسيس ستخلقها فيك، هنا في نهاية المطاف أنت الذي تعودت على أن تكون في الوسط نهاية المطاف؟ لا بد من أنها إحساسات مختلفة.

جاء إيراکلي إلى المدينة من دون أن يلحظه أحد. لا بد من أنه كان معه القليل من النقود، لأنه كان قد بدأ في مصاحبة رجلين أو ثلاثة، كنت على معرفة بهم، وكان يقابلهم كل يوم ويدفع لهم ثمن مشروباتهم. لقد حدثوني عنه، وذهبت برفقتهم ذات يوم

فقط لأرى كيف يبدو، وليس لمقابلته. أدركت على الفور أنه لم يكن جيدا. ليس جيدا كمقاتل، وكرجل. حتى أنني لم آخذه بجديّة كافية كغريم للتحدي. كيف لك أن تأخذ رجلا على محمل الجد عندما تكون له لحيّة تبدو مثل الصوف الذي يغطي الخراف؟ ظل بالقرب من البلدة لفترة ورآني وأنا أقتل القليل من الثيران. وقد قاتلت لمباراة أو مباراتين أيضا في أثناء وجوده هنا، وبدا أنه قد جاء كل مرة لمراقبتي. الشيء الثاني الذي عرفته هو أنه دعاني إلى مصارعته. كان هو من رغب في المباراة. كان هذا صعب التصديق. وماذا أيضا، قالوا لي إنه كان يريد أن تأجيل هذه المباراة لأنني لم أكن بعد في مستوى الشخص الذي يعرض عليه التحدي للنزال. وكان من المستحيل أن يقبل عقلي ذلك البتّة.

كل هذه الأرض التي تراها فوق هنا في الأعلى هي ملك لي. هذه الأرض وأيضا الغابة الموجودة إلى أعلى. أنا أتجنب أي شخص. أحب السير والتجوال، ولا أرغب في رؤية الناس في أثناء سيرتي، رؤيتي لهم تجعلني عصيبا. كنت قد اعتدت قتال أي شخص أقابله. على الأقل كان ذلك في البداية.

عندما كنت صبيّا صغيرا في قريتي كنت أحب الذهاب متأخرا بعد الظهيرة إلى صخرة كبيرة، وأجلس عليها وأنظر إلى أسفل الوادي وأتظاهر بأن الأعداء قادمون. أدعهم يصلون إلى نقطة محددة، وعندئذ أبدأ في دحرجة الصخور إلى أسفل الجبل لأتمكن من إصابتهم. كنت أقتلهم في كل مرة. وقد أمسك بي والدي ذات مرة ونلت عقابي. من المحتمل أنني قد أصبت

بعض الخراف أو الماعز، أو حتى بعض الرجال هناك في أسفل. لكنني لم أمت على يد إيراكلي، كما يمكنك أن ترى، لا يهم ما يقوله إيراكلي. أريدك أن تنظر إلى أشجاري. انظر إلى حجم جذع هذه الشجرة. تتبعه إلى أعلى، أعلى، أعلى، إلى حيث تبدأ الأغصان الأولى. هل سبق لك أن رأيت أشجارا بهذه الضخامة في أي مكان؟

عندما تقدمت في العمر قليلا تعلمت كيف أصرع العجل الصغير، وفي ما بعد الثور. في ذلك الوقت كنت قد بدأت ممارسة القتال. لم أخسر حتى الآن بعد. لقد نسوا أن اسمي كان «نتيوز» وبدأوا ينادونني بـ «العملاق». ليس بسبب حجمي، بالطبع. أنا لست شديد الضخامة. لكن لأن أحدا لم يهزمي في أي مباراة. جاءوا من كل الأماكن المحيطة بنا، وبعد ذلك من أماكن بعيدة. أنت تعرف ما يفعلونه عندما يسمعون عن مقاتل لم يخسر أبدا. إنهم لا يصدقون بطريقة أو بأخرى أنهم سوف يفشلون في التمكن من هزيمته. وهو ما كان عليه الأمر مع إيراكلي. لم أقابله حتى موعد المصارعة، لكنني سمعت كل شيء عنه من أصدقائي. قال لهم إنه قد درسني، وإنه يعرف كيف يهزمي. لم يقل كيف كان سيفعل هذا. حتى أنني لم أفلق على الإطلاق في أن أعرف ما الذي اعتقد أن في مقدوره القيام به حتى بعد انتهاء المصارعة.

لا، أنا لست ميتا. أنا مازلت البطل. في إمكان أي شخص هنا أن يخبرك. إنه لمن السيئ جدا أنك لم تقابل إيراكلي بنفسك. لن تدهش كثيرا. ستدرك أن كل ما قاله عندما عاد إلى وطنه لا

يعدو أن يكون ما أراد هو أن يحكيه، ولا شيء أكثر من هذا. إنه لا يستطيع قول الحقيقة إن أراد أن يقولها.

هل أنت متعب؟ إنه تسلق مرهق، إن لم تكن معتادا عليه. المصارعة نفسها؟ تلك المعركة لم تدم طويلا. كان مشغولا جدا محاولا تطبيق النظام الذي تدرب عليه جيدا. كان نظامه أن يرجع القهقري أولا، ثم يقترب مني وفقط يضع يديه عليّ ويتوقف عن فعل أي شيء. لم أقو على فهم ما الذي كان يحاول فعله. كان الحشد من العامة يسخرون. فكرت لدقيقة: إنه من النوع الذي يجد متعته بهذه الطريقة، يمرر يده فوق صدر غريمه ويعتصر خصره. إنه الآن لا يحبها لأنني ضحكت وصرخت في الحشد. كان غاية في الجدية طوال الوقت. وأنا كنت مخطئا على كل حال. هل نسير بسرعة أكبر من اللازم؟ وأنت تحمل هذا الجراب الثقيل على خصرك. بإمكاننا المضي ببطء مثلما تريد. ليس هناك وجه للاستعجال.

هذه فكرة جيدة. لم لا نجلس لدقيقة ونستريح؟ هل تشعر بأنك على ما يرام؟ لا. لا شيء. اعتقدت أنك تبدو شاحبا قليلا. ربما يكون الضوء. الشمس لا تصل إلى هنا في الأسفل أبدا. كان هذا فقط بعد المصارعة حيث أخبرني أصدقائي بما أراد إيراكلي أن يفعله. بدلا من محاولة طرحي، كان الأحقق المخبول يحاول أن يرفعني عن الأرض ويحملني في الهواء! ليس إلى الحد الذي يُمكنه من إلقاءي بطريقة جيدة، لكن فقط لمجرد رفعني إلى فوق. إنه من الصعب التصديق، أليس كذلك؟ لكن هذا هو ما كان يدور في عقله. كان هذا هو نظامه العظيم. لماذا؟ لا

تسألني «لماذا». أنا أفريقي. لا أعرف ما الذي يدور في عقول أهل بلدك.

خذ المزيد من الجوز. لا، لا. إنها لن تؤذيك. إنه الهواء. إقليمتنا لا يناسب أناسا من الجانب الآخر. بينما كان يحاول التفكير كيف يرفعني أجهزت عليه، وسحبوه بعيدا.

هل سنمضي قدما أم أنك ترغب في الانتظار قليلا في هذا المكان؟ هل مازلت غير قادر على التنفس؟ هنا في الغابة لا يتوافر هواء.

ألا تعتقد أنه يجب علينا الانتظار قليلا؟ بالطبع، إذا أردت الماضي، يمكننا السير ببطء. دعني أساعدك على النهوض. إنه مؤسف جدا عدم قدرتنا على بلوغ مسافة أبعد، الأشجار الكبيرة توجد في أعلى هذا الاتجاه.

نعم، سَحَبوه بعيدا، وظل ثلاثة أيام راقدا على حصيرة قبل أن يغادر المكان هنا. في النهاية ترنح وهو يعرج بقدميه إلى خارج البلدة مثل الكلب، مصحوبا بضحكات الجميع عليه على امتداد الطريق. تستطيع أن تعلق بي. لن أدعك تسقط. أنت تسير بصورة جيدة. فقط حافظ على تقدمك. لم ينظر إلى اليمين أو اليسار في طريقه إلى خارج البلدة. لا بد من أنك سعيد لاعتلائك الجبال.

اهدأ. أولا القدم الأولى، ثم القدم الأخرى. أنا لا أدري إلى أين أذهب. أخشى ألا يكون هناك ماء في المكان. سوف نحصل على قليل منه بمجرد وصولنا إلى البلدة. سوف تكون على ما يرام. أعتقد أنه قفل عائدا من حيث جاء. لم نره هنا ثانية على أي حال.

هل يبدو أننا سرنا مسافة طويلة؟ إنها دقائق قليلة فقط.
تستطيع أن تميز الطريق لكنك لا تعرف أين أنت؟ لم يجب عليك
أن تعرف أين أنت؟ إنها ليست غابتك. اهدأ. خذ خطوة، ثم
خطوة، ثم خطوة.

أنت على صواب. إنها الصخرة حيث كنا جالسين منذ دقائق
قليلة مضت. كنت أتساءل إن كنت ستتمكن أنت من ملاحظتها.
بالطبع أنا أعرف طريقي! اعتقدت أنه من الأفضل لك أن
تستريح مرة ثانية قبل أن نبدأ سيرنا إلى البلدة. هذا صحيح،
فقط استلق هناك، في ذلك المكان. ستكون بحالة جيدة بمجرد
أن تتال قسطا قليلا من النوم. المكان هادئ تماما هنا.

لا، إنك لم تتم لفترة طويلة. بم تشعر الآن؟ جيد. كنت أعرف
أن قليلا من النوم سوف يجعلك في حالة جيدة. أنت لست
معتادا على الهواء هنا. أنا لا أعتقد أنك كنت تحمل شيئا.
ليس هناك داع لتقطب بين عينيك هكذا. أنت لا تعتقد أنني
أخذته، أعتقد هذا؟

كنت أظن أننا كنا أصدقاء. لقد عاملتك كصديق. والآن أنت
ترد إلي صنيعي.

أنا لن أصحبك إلى أي مكان. انزل إلى البلدة وحدك. أنا
زاهب في الاتجاه المضاد.

عد إلى بلدتك واحك لهم عني. يمكنك السير بصورة جيدة.
فقط استمر في تقدمك.
واخرج من الغابة بسرعة!

مجنوب(*)

الرجل الذي كان يقضي ليلائه نائما في المقاهي أو تحت الأشجار أو حيثما اتفق أن يشعر بالنوم، تجول ذات صباح خلال شوارع البلدة. وقد وصل في تجواله إلى ساحة السوق، حيث كان مجنوب عجوز يرتدي أسمالا بالية يتقاذف مرحا أمام العامة، وهو يصرخ ويطلق النبوءات في الهواء. وقف الرجل يراقبه حتى انتهى العجوز من جمع المال الذي أعطاه له الناس. فأذهلته رؤيته لمقدار المال الذي جمعه المجنون، ولأنه لم يكن لديه شيء آخر ليفعله، قرر أن يتبعه.

قبل أن يخرج من السوق تقريبا تنبه إلى أن هناك مجموعة من الأولاد الصغار كانوا يسرعون من تحت الأقواس للسير بحذاء المجنوب، الذي واصل السير في طريقه إلى الأمام، ينشد ويرتل وهو يلوح بصولجانه، وبين الفينة والأخرى كان يهدد الأطفال الذين كانوا يقتربون منه بشدة. كان يسير خلف المجنوب على مبعدة منه، ورأى العجوز وهو يدخل إلى عدة محلات، ويخرج في كل مرة بأوراق نقدية في يده، كان يعطيها على الفور إلى أحد الأولاد الصغار.

عندئذ خطر له أنه كان هناك الكثير ليتعلمه من هذا المجنوب. كل ما كان عليه عمله هو دراسة سلوك العجوز والإنصات بعناية إلى الكلمات التي كان يتلفظ بها. ثم مع الممارسة سيصبح في إمكانه القيام بنفس الإشارات والإيماءات والصياح بالكلمات

(*) وردت بالعربية [المترجم].

نفسها. بدأ يبحث عن المجذوب كل يوم ويتعقبه حيثما ذهب في البلدة. بعد شهر من تعقبه له قرر أنه قد أصبح على أتم الاستعداد لوضع معرفته موضع التطبيق.

سافر إلى الجنوب إلى مدينة أخرى لم يكن قد ذهب إليها من قبل. وهناك استأجر حجرة رخيصة جدا عند الجزر وبعيدة من وسط المدينة. ومن سوق الأشياء المستعملة اشترى جلبابا(*) قديما باليا، ثم مضى إلى الحدادين ووقف يشاهدهم بينما كانوا يصنعون له صولجانا طويلا مثل الذي كان يحمله المجذوب.

في اليوم التالي، بعد أن تمرن لفترة من الوقت، ذهب إلى البلدة وجلس في الطريق عند الساحة الخارجية لأكبر مسجد فيها. لبرهة فقط كان ينظر إلى الناس الذي يمرون بعيدا. ببطء بدأ في رفع ذراعيه إلى السماء، ثم اصطنع إشارات بهما. لم يلتفت إليه أحد من المارة. طمأنه هذا، لأنه كان يعني أن تتكره كان ناجحا. عندما شرع في إطلاق الكلمات نظر المارة تجاهه، لكنهم بدوا كأنهم عاجزون عن رؤيته، وكانوا ينتظرون فقط للاستماع لما كان يقوله. كان يصيح لبعض الوقت بعبارات قصيرة من القرآن الكريم. وهو يحرك عينيه في حركة دائرية وقد ترك العمامة تسقط على وجهه. بعدما صرخ متوقدا بكلمتي النار والدم عدة مرات خفض ذراعيه ثم أحنى رأسه، ولم ينبس بكلمة. كان الناس ينصرفون، لكن ليس قبل أن يقذف إليه الكثير منهم بعملات معدنية أمامه على الأرض.

(*) وردت بالعربية [المترجم].

جرب في الأيام التالية أجزاء أخرى من المدينة. لم يكن مكان جلوسه مهما. فقد كان الناس كرماء معه بنفس الدرجة في كل مكان آخر. لم يكن يريد المخاطرة بالدخول إلى المحلات والمقاهي حتى أصبح على يقين من أن المدينة اعتادت على وجوده. في يوم من الأيام اندفع بشكل هائج عبر الشوارع، وهو يرفع صولجانه إلى السماء ويصرخ: «سيدي رحال هنا! يقول لكم سيدي رحال تهيأوا لعذاب النار!» كان الهدف من هذا إطلاق اسم على نفسه ليتذكره أهل البلدة.

بدأ في الوقوف في مداخل المحلات. إذا سمع شخصا ما يشير إليه على أنه سيدي رحال، يخطو إلى الداخل، وينظر بحدة إلى صاحب المحل، ومن دون أن ينطق بكلمة، يمد يده، ليعطيه الرجل مالا، فيستدير وينصرف خارجا.

لسبب ما لم يكن الأطفال يتبعونه. كان سيفغدو سعيدا لو أن مجموعة منهم كانوا برفقته، مثل المجذوب العجوز، لكنه بمجرد أن يتحدث معهم، كانوا يخافون ويفرون مبتعدين. إن الأمر هكذا أكثر هدوءا، قال لنفسه، لكنه في قرارة نفسه كان منزعجا جدا. ومع ذلك، فقد جنى نقودا أكثر مما اعتقد أن في مقدوره كسبه. بمرور الوقت هطلت الأمطار الأولى، وكان قد جمع مقدارا كبيرا من المال، فترك صولجانه وجلبابه البالي في حجرته عند المجزر، ودفع إلى المالك إيجار عدة أشهر مقدما. وانتظر حتى حلّ الليل، ثم أغلق الباب خلفه واستقل إحدى الحافلات عائدا إلى مدينته الأصلية. في البداية اشترى تشكيلة متنوعة من الملابس. عندما أصبح حسن الهندام خرج ويبحث عن منزل مناسب، وسرعان ما وجده.

كان صغيرا وكان ما تبقى لديه من مال كافيا لتسديد ثمن المنزل. أثث حجرتين واستعد لقضاء الشتاء وهو يأكل ويدخن مع جميع أصدقائه القدامى.

عندما سألوه أين كان طوال الصيف الماضي، تحدث عن حفاوة وكرم أخيه الثري الذي يسكن في «تازة»^(*). كان صبره قد نفذ بالفعل انتظارا لتوقف الأمطار. عندئذ تأكد بما لا يدع مجالا للشك من أنه قد استمتع بالفعل بمهنته الجديدة.

انتهى فصل الشتاء أخيرا. فحزم حقيبته وأخبر أصدقاءه بأنه ذاهب في رحلة عمل. ومضى إلى حجرته في تلك البلدة الأخرى. كان جلاببه وصولجانه هناك حيث تركهما.

تعرف عليه في تلك السنة عدد أكبر من الناس. وأصبح أكثر جرأة فصار يدخل المحلات من دون أن يتوقف عند المداخل. كان أصحاب المحلات متلهفين إلى إظهار تقواهم أمام الزبائن، فكانوا يعطونه دائما المزيد من المال أكثر مما كان يعطيه المارة. وفي أحد الأيام قرر إجراء اختبار. أوقف سيارة أجرة، وعندما ركب جأر: «يجب عليّ الذهاب إلى ضريح سيدي العربي! بسرعة!» السائق الذي كان يعلم أنه لن يحصل على أجرته، وافق رغم ذلك، وانطلق صوب الطريق إلى بستان أشجار زيتون يقع فوق تل بعيد عن البلدة.

أخبر سائق السيارة الأجرة بأن ينتظر وقفز إلى الخارج. ثم بدأ في التسلق لمسافة طويلة إلى أعلى التل في اتجاه الضريح. نفذ صبر السائق فانصرف. في طريق عودته إلى البلدة أخطأ

(*) مدينة في شمال المغرب [الترجم].

منعطفًا واصطدم بإحدى الأشجار. وعندما سمحوا له بالخروج من المستشفى أذاع بين الناس أن سيدي رحال هو السبب في انحراف السيارة عن الطريق. تحدث بعض الرجال في هذا الأمر لفترة من الوقت، وتذكروا المجاذيب الآخرين الريانيين الذين كانوا يصبون لعناتهم أو يضعون سحرهم في محركات وفرامل السيارات. غدا اسم سيدي رحال على السنة كل الناس، وأنصت الناس باحترام لثرثرته ولغوّه.

جمع في ذلك الصيف مالا أكثر من السنة الماضية. فعاد إلى مدينته واشترى منزلاً أكبر ليقيم فيه، بينما أجّر منزله القديم. وفي كل سنة كان يشتري المزيد من المنازل والأراضي، حتى غدا واضحاً في النهاية أنه قد أصبح بالفعل غنياً جداً.

عندما بدأت الأمطار الأولى في الهطول كان يخبر أصدقاءه بعزمه على السفر إلى الخارج. ثم يرحل سرا، ولا يدع أحداً يودعه. كان مسروراً بنمط حياته، وبالحظ السعيد الذي حالفه في أن يكون قادراً على الاستمرار في هذا النمط. كان يفترض أن الله لا يمانع إذا هو تظاهر بكونه واحداً من مجاذبيه المتدينين. كان المال فقط هو المكافأة التي يحصل عليها من جراء منح الناس فرصة ممارسة إحسانهم.

في أحد فصول الشتاء وصلت حكومة جديدة إلى السلطة وأعلنت أنه سيتم إخلاء الشوارع من جميع الشحاذين. تحدث عن هذا الموضوع مع أصدقائه، واعتبر الجميع أن هذا شيء ممتاز. ووافقهم على رأيهم، لكن الأخبار حرمتهم من النوم في الليل. أن يخاطر بفقدان كل شيء عند عودته، وهذا بالضبط

هو ما كان يريد أن يفعله، كان أمرا مستحيلا. فاستسلم بحزن لقضاء الصيف في بلدته.

لم تكد الأسابيع الأولى من فصل الربيع تمضي حتى أدرك كم كان قريبا إلى قلبه، الخروج في الليل واستقلال الحافلة في ليلة رائعة مرصعة بالنجوم والمضي إلى المدينة الأخرى، وراح يتأمل مدى الارتياح الذي كان يغمره في كل مرة لكونه قادرا على نسيان كل شيء والعيش كما لو كان سيدي رحال. لقد بدأ يفهم الآن أن حياته كانت ممتعة فقط لأنه كان على دراية بأنه في لحظة معينة سيتركها ليحيا حياته الأخرى.

عندما أصبح الطقس حارا بدأ يشعر بالتوتر بشكل متزايد. وراح يشعر بالملل وفقد شهيته للطعام. وعندما لاحظ أصدقاءه التغيير الذي طرأ عليه، نصحوه بالسفر، مثلما كان يفعل دائما. قالوا له إن الناس يعرفون أنهم سوف يموتون لو توقفوا عن ممارسة ما اعتادوا عليه. كان يستلقي في أثناء الليل وهو يشعر بالقلق، وحينئذ عقد العزم بينه وبين نفسه على العودة سرا. وبمجرد اتخاذ القرار أحس بأنه عاد أفضل حالا بكثير. كان كما لو أنه حتى ذلك الحين في سبات عميق، واستيقظ منه فجأة: فأعلن لأصدقائه أنه سيسافر إلى خارج البلدة.

في تلك الليلة أغلق منزله واستقل الحافلة. وفي اليوم التالي مضى يهرول في فرح خلال الشوارع ليجلس في مكانه الأثير بالقرب من المسجد. نظر إليه بعض المارة وعلقوا في ما بينهم قائلين: «لقد عاد مرة ثانية، برغم كل شيء، ألا ترى؟».

قضى النهار كله جالسا هناك في هدوء، يجمع المال. عند نهاية عصر ذلك اليوم، ونظرا إلى أن الطقس كان شديد الحرارة، انحدر إلى نهر خارج بوابات البلدة، للاستحمام. لمح بينما كان يخلع ملابسه، خلف بعض شجيرات الدفلى، ثلاثة من رجال الشرطة ورآهم يهبطون نحوه باتجاه ضفة النهر. ومن دون انتظار أمسك بخفيه، وطرح جلبابه على كتفه، وبدأ يعدو.

كان بين الحين والآخر يتخبط في المياه، وفي أحيان أخرى ينزلق في الطين فيسقط. كان باستطاعته سماع الرجال وهم يصيحون في أثره. لم يطارده لمسافة بعيدة جدا، لأنهم كانوا قد انفجروا في فاصل من الضحك. ولأنه لم يكن على دراية بهذا، فقد واصل عدوه، على امتداد النهر، حتى تقطعت أنفاسه فكان عليه أن يتوقف. ارتدى جلبابه وانتعل خفيه، وراح يفكر: لا يمكنني أن أرجع إلى البلدة، أو إلى أي بلدة أخرى، بهذه الملابس.

واصل سيره بخطوات أبطأ. عندما حلّ المساء شعر بالجوع، لكن لم يكن هناك أناس أو بيوت على مرمى البصر. فنام تحت شجرة، يغطيه فقط جلبابه البالي.

كان جوعه قد ازداد في صباح اليوم التالي. نهض، واستحم في النهر، ومضى في طريقه ثانية. سار طوال ذلك اليوم تحت الشمس الحارقة. في وقت متأخر من بعد الظهر جلس ليستريح. شرب القليل من ماء النهر ونظر من حوله إلى الخلاء. فرأى فوق التل من خلفه ضريحا محطما على نحو جزئي.

عندما استراح، تسلق نحو المبنى. كان هناك قبر بالداخل، في وسط حجرة ذات قبة كبيرة. جلس وراح ينصت. كانت

الديكة تتصايح، وسمع النباح العارض للكلاب. تخيل نفسه يجري إلى القرية، ويصرخ في أول رجل يقابله قائلاً: «أعطني كسرة خبز، إكراما لمولاي عبدالقادر!» أغلق عينيه.

عندما استيقظ كان في وقت الشفق تقريبا. خارج باب الحجرة وقفت مجموعة من الأولاد الصغار، يراقبونه. عندما رأوه يستيقظ، ضحكوا وركز بعضهم بعضا. قذف إليه أحد الأولاد بقطعة خبز جافة، فسقطت بجواره. وسرعان ما صاحوا قائلين: «إنه يأكل الخبز! إنه يأكل الخبز!».

راحوا يلهون بهذه الطريقة لفترة من الوقت، يقذفون إليه بحفئات من التراب وحتى نباتات مجتثة من الأرض وقطع من الخبز. كان بوسعه أن يقرأ في عيونهم الدهشة، والخبث، والاحتقار، ووميضا ثابتا من لذة التملك عبر هذه العواطف المتباينة والمتبدلة. فكر في المجذوب العجوز، فسرت رعشة خلال جسده. فجأة انصرف الأولاد. سمع صرخات صاخبة على بعد مسافة بينما كانوا يتسابقون عائدين إلى القرية.

منحه الخبز بعض العافية. فنام حيث كان، وقبل أن ينبلج ضوء الصباح رحل ثانية على امتداد النهر، وهو يشكر الله على أن سمح له باجتياز القرية من دون أن يُمكن أحدا من رؤيته. فهم أن الأطفال قد انصرفوا عنه فقط لأنهم تبينوا أنه لم يكن مستعدا لهم، حتى يمكن أن يجعلوا منه لعبة في أيديهم. فكر في هذا بشكل متزايد، وتمنى بشكل أكثر حرارة ألا يعرف ما الذي يكون عليه المجذوب الحقيقي.

بينما كان ينعطف بعد الظهر مع مجرى النهر، أصبح فجأة إزاء بلدة. قادته حاجته اليائسة إلى الطعام إلى السوق مباشرة. ولم يلتفت إلى تحديد الناس إليه، دخل إلى دكان صغير وطلب سلطانية حساء. وعندما انتهى منها دفع الثمن، ودخل إلى دكان آخر لتناول طبق يخنة. في المكان الثالث أكل لحمًا مشويًا على الفحم. ثم قصد سوق الخبز لشراء رغيفين ليحملهما معه. وبينما كان يدفع ثمنهما، ربت شرطي على كتفه وسأله عن أوراق إثبات شخصيته. لم تكن معه أوراق. ولم يكن هناك ما يقال. سجنوه في قسم الشرطة في حجرة صغيرة كريهة الرائحة في سرداب المبنى. قضى في ذلك المكان عدة أيام وليال من العذاب. عندما أخرجوه بعد انقضاء تلك المدة واستجوبوه، لم يقو على إخبارهم بالحقيقة وبدلاً من ذلك تجهم قائلاً: «أنا سيدي رحال».

أوثقوا يديه ودفعوه في مؤخرة شاحنة. بعد ذلك في المستشفى اقتادوه إلى زنزانة رطبة حيث يوجد بها رجال يحدقون ويرتعدون ويصرخون. تحمل ذلك الوضع لمدة أسبوع، ثم قرر أن يطلع المسؤولين على اسمه الحقيقي. لكن عندما كان يطلب أن يأخذوه إليهم، كان الحراس يضحكون فقط، وكانوا يقولون في بعض الأحيان: «في الأسبوع القادم»، لكنهم في العادة، لم يردوا على الإطلاق.

مرت الشهور. كان يعيش خلالها مع المجانين، إلى أن جاء وقت لم يعد يخطر في باله على الإطلاق، الذهاب إلى المسؤولين لإخبارهم بحقيقته. وفي النهاية توقف عن التفكير في الأمر.

علال(*)

كان قد ولدَ في الفندق الذي كانت أمه تعمل به . كان الفندق يضم ثلاث غرف مظلمة تطل على فناء خلف البار . في الورا كانت هناك باحة أخرى أصغر فيها العديد من الأبواب . وهناك حيث كان الخدم يعيشون ، أمضى علال طفولته .

كان اليوناني الذي يمتلك الفندق قد طرد أم علال . حيث كان مستاء منها لأنها ، كانت فتاة في الرابعة عشرة من عمرها ، وجرؤت على إنجاب طفل بينما كانت تعمل عنده . لم تقل من كان الأب ، وأغضبه تفكيره في أنه لم يكن أي فائدة من الوضع بينما كانت الفرصة متاحة لديه . أعطى الفتاة أجر ثلاثة أشهر وطلب منها أن تذهب إلى بيت أسرتها في مراكش . ونظرا إلى أن الطباخ وزوجته قد أحبا الفتاة وعرضا عليها أن تبقى معهما لفترة من الوقت ، فقد وافق اليوناني حتى يكبر الطفل بدرجة كافية تسمح بتحمل مشاق السفر . بقيت الفتاة في الباحة الخلفية بضعة أشهر مع الطباخ وزوجته ، ثم اختفت في أحد الأيام تاركة الطفل وراءها . ولم يسمع أحد عنها بعد ذلك .

بمجرد أن صار علال كبيرا بدرجة تمكنه من حمل الأشياء دفع به الزوجان إلى العمل . ولم تمض فترة طويلة قبل أن يتمكن من إحضار دلو من مياه البئر التي تقع خلف الفندق . لم يكن لدى الطباخ وزوجته أولاد ، لذلك فقد كان علال يلعب بمفرده .

عندما أصبح أكبر بعض الشيء بدأ في التجول فوق الهضبة

(*) وردت بالعربية [الترجم].

العارية في الخارج. ولم يكن هناك شيء في الأعالي سوى الثكنات، وكانت محاطة بسور عال مصمت من الطوب الأحمر. وكل ما عدا ذلك كان موجودا تحت في الوادي: البلدة، والحدائق، والنهر الذي يخترق في اتجاه الجنوب الآلاف من أشجار النخيل. كان بمقدوره أن يجلس في بقعة أو على صخرة عالية بعيدة فتتسنى له رؤية الناس في الأسفل وهم يسيرون في أزقة البلدة. لم تسبق له زيارة المكان إلا في ما بعد فرأى ما كان عليه أهلها. ولأن أمه كانت قد تركته ورحلت فقد أطلق عليه الناس ابن الحرام، وكانوا يسخرون عندما ينظرون إليه. وبدا له بهذه الطريقة أنهم كانوا يأملون في تحويله إلى خيال، كي لا يضطروا إلى التفكير فيه ككائن موجود وواقعي ينبض بالحياة. هكذا كان ينتظر بخوف وترقب الوقت الذي سيضططر فيه إلى الذهاب في كل صباح إلى البلدة لكي يعمل. فقد كان حتى الوقت الراهن يساعد في أعمال المطبخ ويقوم بتقديم الخدمات للضباط في الثكنات، كما كان يخدم بعض السائقين العابرين الذين كانوا يمرون بالمنطقة، وفي المقابل كان يحصل على بعض البقشيش في المطعم، وطعام وسكن مجاني في حجرة صغيرة بمسكن الخدم، لكن اليوناني لم يكن يعطيه راتبا. في النهاية عندما بلغ سنا أصبح فيها مثل هذا الوضع مخزيا، ذهب من تلقاء نفسه إلى البلدة في الأسفل وبدأ يعمل، بصحبة أولاد آخرين من مثل سنه، في مساعدة الناس في صنع قوالب الطوب اللبن لاستخدامها في بناء منازلهم.

كان العيش في البلدة يشبه إلى حد كبير ما كان قد تخيل أنه سيكون عليه. أقام لمدة سنتين في حجرة خلف محل حدادة،

يعيش حياة خالية من الشجار ويدّخر أي مال لم يكن مضطرا إلى إنفاقه على نفسه ليبقى على قيد الحياة. وظل حتى ذلك الوقت بعيدا عن عقد أي صداقات، فضلا عن أنه وطّد داخله كراهية كاملة لأهل البلدة، الذين لم يسمحوا له أبدا أن ينسى أنه كان ابن خطيئة، وبالتالي فهو ليس كالأخرين، بل مجرد «مسخوط»(*) - ملعون. ثم وجد بيتا صغيرا، ليس أكثر من كوخ، في بساتين النخيل خارج البلدة. كان الإيجار زهيدا ولم يكن هناك من يقطن في الجوار. فذهب للعيش هناك، حيث كان الصوت الوحيد المسموع هو صوت الريح خلال الأشجار، وكان يتجنب أهل البلدة بقدر المستطاع.

ذات مساء في فصل الصيف الحار، وبعد الغروب بوقت قصير، كان علال يمشي تحت الأقواس التي كانت تواجه الميدان الرئيسي للبلدة. وعلى بعد خطوات قليلة أمامه كان هناك رجل عجوز يرتدي عمامة بيضاء يحاول أن ينقل جوالا ثقيلا من إحدى كتفيه إلى كتفه الآخر. وفجأة سقط الجوال على الأرض، وراح علال يحرق بينما كان شكلان داكنان ينسلان من خارج الجوال واختفيا في الظلال. انقض الرجل العجوز على الجوال وأغلق طرفه الأعلى، وفي الوقت نفسه بدأ يصيح قائلا: «فتشوا عن الثعابين! ساعدوني في العثور على الثعابين!»

التفت أناس كثيرون بسرعة إلى المكان ثم قفلوا عائدين من حيث أتوا. ووقف آخرون عن بعد، وهم يراقبون. وصرخت قلة منهم في الرجل العجوز: «اعثر بسرعة على ثعابينك وأبعدها

(*) وردت بالعربية [الترجم].

عن هذا المكان! لماذا جئت بها إلى هنا؟ إننا لا نريد ثعابين في هذه البلدة!»

كان الرجل العجوز يقفز هنا وهناك جيئةً وذهاباً، ثم التفت إلى علال قائلاً: «راقب هذا من أجلي لدقيقة، يا بني». وأشار إلى الجوال الملقى على الأرض عند قدمه، والتقط الرجل العجوز سلة كان يحملها، وذهب بسرعة إلى ركن قريب في الزقاق. وقف علال في مكانه حيث كان. ولم يمر أحد.

لم تمض فترة طويلة حتى عاد الرجل العجوز، وهو يلهث ظافراً. وعندما رآه المارة الواقفون في الميدان مرة ثانية، بدأوا يصيحون، لكن هذه المرة كانوا يصيحون في علال: «دل ذلك البرّاني» على الطريق إلى خارج البلدة! فليس لديه أي حق في حمل تلك الأشياء هنا. إلى الخارج! إلى الخارج!»

التقط علال الجوال الكبير وقال للرجل العجوز، «اتبعني». غادرا الميدان ومضيا عبر الأزقة حتى أصبحا على مشارف البلدة. عندئذ رفع الرجل العجوز بصره إلى أعلى، فرأى أشجار النخيل الداكنة في مقابل منظر السماء الشاحبة في الأمام، فالتفت إلى الولد بجانبه.

فقال له علال مرة ثانية، «اتبعني»، وانعطف إلى اليسار على امتداد طريق وعر أفضى إلى بيته. فوقف الرجل العجوز متحيراً.

«بإمكانك أن تبقى معي الليلة»، قال له علال.

«وهذان؟» قال الرجل العجوز وهو يشير إلى الجوال في بادئ الأمر ثم إلى السلة بعد ذلك. «يجب ألا يفارقاني».

ابتسم علال ابتسامة عريضة وقال: «بإمكانك أخذهما معك». وبينما كانا يجلسان في البيت نظر علال إلى الجوال والسلة، وقال: «أنا لست مثل بقية الناس هنا». عندما سمع الرجل العجوز الكلمات التي نطق بها شعر بأنه على ما يرام. وصدرت عنه إيماءة ساخطة، وقال: «إنهم يخشون السير عبر الميدان بسبب الثعابين. لقد رأيتهم». حكَّ الشيخ العجوز ذقنه، ثم قال: «إن الثعابين مثل البشر». «عليك أن تحاول التعرف عليها وعندئذ يمكنك أن تكون صديقا لها».

تردد علال قبل أن يسأل: «هل سبق لك أن أخرجتها؟» «بشكل دائم»، قال الرجل العجوز بحماس. «فليس من المستحسن أن تظل في الداخل بهذه الطريقة. يتعين أن تكون في صحة جيدة عندما أصل بها إلى تارودانت(*)، وإلا فإن الرجل هناك لن يشتريها مني».

وبدأ يحكي قصة طويلة عن حياته كصياد للثعابين، ويشرح أنه في كل عام يسافر إلى تارودانت لرؤية ذلك الرجل الذي يشتريها منه لصالح «العيساويين» حواة الثعابين في مراكش. أعدَّ علال الشاي بينما كان يستمع إلى قصته، ثم أحضر سلطانية بها معجون الكيف لتناولها مع الشاي. في ما بعد، عندما كانا يجلسان من دون تكلف وسط دخان الغليون، ضحك الرجل العجوز ضحكة خافتة، فالتفت علال ونظر إليه.

«هل من الممكن أن أخرج الثعابين؟»

(*) مدينة في جنوب غرب المغرب [المترجم].

«حسنا».

«لكن يجب عليك أن تجلس وتبقى هادئاً في مكانك. قَرِّب المصباح».

فلك الرجل العجوز الجوال، وهزه قليلاً، ثم عاد إلى حيث كان جالساً. عندئذ أخذ علال يراقب في صمت تلك الأجسام الطويلة وهي تتحرك إلى الخارج بحذر في اتجاه الضوء. كانت هناك ثعابين أخرى بين ثعابين الكوبرا منقوشة بزخارف شديدة الدقة والبراعة بحيث بدت كأن فتانا رسمها ولونها. كانت هناك حية حمراء ذهبية، تتلوى بكسل في منتصف الأرضية، وجدها علال جميلة بشكل استثنائي. وبينما كان يحدق فيها، شعر برغبة قوية في امتلاكها لنفسه وأن يحتفظ بها بشكل دائم.

بدأ الرجل العجوز يواصل حديثه قائلاً، «لقد قضيت حياتي كلها مع الثعابين. بإمكانني أن أخبرك ببعض الأشياء عنها. هل تعرف أنك إذا أعطيتها المعجون فإن بإمكانك أن تجعلها تفعل كل ما تريد أنت، ومن دون أن تنطق لها بكلمة؟ أقسم بالله!»

ارتسمت ملامح الشك على وجه علال. إنه لم يشكك في مدى صحة عبارة الرجل، بل في مدى قدرته على الاستفادة منها، ولأن فكرة الاحتفاظ بالثعبان في ذلك الوقت هي بالفعل التي كانت تجول في رأسه، فقد رأى أن كل ما عليه أن يفعله أن ينفذها على وجه السرعة، نظراً إلى أن الرجل العجوز سوف يرحل في الصباح. وشعر فجأة بضجر عظيم يستبد به.

«أبعداً حتى أتمكن من طهو العشاء»، قال هامساً. ثم جلس متعجباً من السهولة التي التقط بها الرجل العجوز كل ثعبان

منها من رأسه لإعادته إلى الجوال. وللمرة الثانية أسقط اثنين من الثعابين في السلة، وكان أحد هذين الثعابين، كما لاحظ علال، الثعبان ذو اللون الأحمر. وتخيل أن بإمكانه أن يرى لمعان حراشفه من خلال غطاء السلة.

بينما كان جالسا يعكف على إعداد الوجبة حاول علال أن يفكر في أمور أخرى. لكن، نظرا إلى أن مشهد الثعبان ظل عالقا في ذهنه على الرغم من كل شيء، بدأ في تدبر طريقة للحصول عليه. وبينما كان مقرفضا عند النار في أحد الأركان، خلط بعض معجون الكيف في سلطانية اللبن ووضعها جانبا.

واصل الرجل العجوز حديثه، «كان من حسن الحظ أنني تمكنت من العثور على الثعابين بهذه الطريقة، وفي وسط البلدة. لا يمكن أن تكون على يقين أبدا من الكيفية التي يتصرف بها الناس عندما يكتشفون أنك تحمل ثعابين. في أحد الأيام في القلعة أخذوها مني كلها وقتلوها، الواحد تلو الآخر، أمام عيني. حصيلة سنة من العمل. كنت مضطرا إلى العودة إلى بلدي وبدء كل شيء مرة أخرى».

عندما كانا يتناولان طعامهما، لاحظ علال أن ضيفه ينتابه النوم. «كيف ستسير الأمور؟» تساءل علال. لم تكن هناك طريقة مسبقة لأن يعرف على وجه التحديد، ما الذي يجب أن يفعله، كما أن مشهد قيامه بالإمساك بالثعبان كان يفزعه. «بوسعه أن يقتلني»، ففكر.

بمجرد انتهائهما من الطعام، واحتسائهما الشاي وتدخين بضع سباسي من الكيف، استلقى الرجل العجوز فوق الأرض

وقال لعلال إنه كان يرغب في أن ينام. فنهض علال وقال له، «من هنا!»، وقاده إلى حصيرته الخاصة في حجرة النوم. تمدد الرجل العجوز وراح في النوم بسرعة.

خلال نصف الساعة التي أعقبت نومه ذهب علال عدة مرات إلى حجرة النوم وتفرس في ما بداخلها، لكن لا الجسد في برنسه ولا الرأس المغطى بالعمامة صدرت عنهما أي حركة تذكر.

أخرج أولا بطانيته، وبعدما عقد ثلاثة من أطرافها معاً، بسطها على الأرض وجعل الطرف الرابع منها في مواجهة السلة. ثم وضع سلطانية اللبن ومعجون الكيف فوق البطانية. بينما كان يفك الرباط عن غطاء السلة سعل الرجل العجوز. وقف علال ثابتاً، منتظراً سماع الصوت الأجش مرة ثانية. هبّ نسيم خفيف، فجعل أفرع أشجار النخيل يحتك بعضها ببعض محدثاً صوتاً خشناً، لكن لم يكن هناك صوت آخر من حجرة النوم. تسلل إلى الجانب البعيد من الحجرة وجلس مقرصاً عند الحائط، ونظره مثبت على السلة من دون أن يحيد عنها.

خُيِّل إليه أكثر من مرة أن الغطاء قد تحرك قليلاً، لكن في كل مرة كان يعترف بأنه كان مخطئاً. ثم أمسك أنفاسه. فقد كان هناك ظل يتحرك عند قاعدة السلة. لقد تسلل أحد الثعابين إلى الخارج من الطرف الآخر. وظل منتظراً فترة قبل أن يواصل تقدمه نحو مصدر الضوء، لكن حينما كان يفعل هذا، نطق علال بالشكر والحمد؛ فقد كان هو الثعبان الأحمر الذهبي.

عندما قرر الثعبان في النهاية التوجه إلى السلطانية، لف دورة كاملة حول حافتها، وهو ينظر إليها من جميع الجهات، قبل

أن يخفض رأسه نحو اللبن. كان علال يراقب، وهو يخشى من أن تزعج الرائحة الغريبة لمعجون الكيف الثعبان فينفر منها. ظل الثعبان هناك من دون أن يتحرك.

انتظر نصف ساعة أو أكثر. ظل الثعبان في المكان نفسه ولم يتحرك عنه، ورأسه ممدد في السلطانية. من وقت إلى آخر كان علال يلقي بنظرة سريعة على السلة ليتأكد من أن الثعبان الآخر لا يزال راقدا في داخلها. واصل النسيم إحداث الاحتكاك بأفروع أشجار النخيل معا. وعندما رأى علال أن الوقت قد حان، نهض ببطء، وهو يراقب السلة، حيث كان من الواضح أن الثعبان لا يزال راقدا فيها، فانهى ولملم أطراف البطانية الثلاثة معا. ثم رفع الطرف الرابع منها، حيث انزلق كل من الثعبان والسلطانية إلى داخل قاع الكيس المرتجل. تحرك الثعبان قليلا، لكن علال لم يعتقد أن هذا كان بدافع الغضب. كان يعرف على وجه التحديد أين سيخفيه: بين الصخور عند قاع النهر الذي جفت مياهه.

فتح الباب وهو ممسك بالبطانية أمامه وخرج تحت ضوء النجوم. لم يكن المكان بعيدا عن الطريق الممتد عبر مجموعة من أشجار النخيل العالية، ثم انعطف إلى اليسار إلى داخل الوادي. وهناك في مكان ما بين الجلاميد، حيث يمكن أن تكون الحزمة غير مرئية، دسها بعناية، ثم عاد مسرعا إلى البيت. كان الرجل العجوز مستغرقا في النوم.

لم يكن هناك سبيل للتأكد من أن الثعبان الآخر لا يزال هناك في السلة، لذلك التقط علال برنسه ومضى إلى الخارج. ثم أغلق الباب خلفه واستلقى على الأرض لينام.

قبل أن تشرق الشمس كان الرجل العجوز قد استيقظ، وظل ممدا في الحجرة وهو يسعل. نهض علال منتفضا، ومضى إلى الداخل، ثم شرع في إشعال النار في الموقد. بعد دقيقة سمع الرجل العجوز يصرخ: «لقد هربا مرة ثانية! تسللا إلى خارج السلة! ابق في مكانك وسأعثر عليهما!»

لم تمض فترة طويلة قبل أن يهتمهم الرجل العجوز في رضى صارخا: «عثرت على الثعبان الأسود!» لم يرفع علال بصره عن الركن حيث كان جاثيا، فاقترب منه الرجل العجوز وهو يلوح بالكوبرا. «يجب عليّ أن أعثر الآن على الثعبان الآخر».

وضع الثعبان في مكانه المعتاد وواصل البحث. عندما اتقدت النار في المجرمة، التفت علال ناحيته وقال: «هل تريد مني أن أساعدك في البحث عنه؟»

«كلا، كلا! ابق حيث أنت».

قام علال بغلي الماء وأعد الشاي، والرجل العجوز لا يزال يزحف على ركبتيه، وهو يرفع الصناديق ويدفع الأجولة بعيدا عن أماكنها. انحلت عمامته وجرى العرق على وجهه. «تعال لتشرب الشاي»، قال علال.

لم يبد أن الرجل العجوز قد سمعه في المرة الأولى. بعد ذلك نهض ودخل إلى الحجرة، حيث أعاد لف عمامته. وعندما خرج جلس بجوار علال، وتناولوا إفطارهما.

«إن الثعابين ذكية جدا»، قال الرجل العجوز. «بإمكانها أن تتسل وتدخل في أماكن لا وجود لها على الإطلاق. لقد حركت كل شيء في هذا البيت».

بعدما فرغا من تناول الطعام، ذهبا إلى الخارج وراحا يبحثان عن الثعبان في ما بين جذوع أشجار النخيل النامية بالقرب من البيت. عندما اقتنع الرجل العجوز بأن الثعبان قد ضاع، عاد بحزن إلى البيت.

وفي النهاية قال: «كان هذا الثعبان جيدا. والآن عليّ أن أذهب إلى تارودانت».

ودع أحدهما الآخر وأخذ الرجل العجوز جواله وسلته وسار في الممر نحو الطريق السريع.

طوال اليوم، بينما كان علال في عمله، كان منشغلا بالتفكير في الثعبان، لكنه لم يكن قادرا على الوصول إليه حتى حان موعد الغروب فذهب إلى الصخور في الوادي وأخرج البطانية. وحملها عائدا إلى البيت في حال عالية من الانفعال.

وقبل أن يفك البطانية، ملأ طبقا عريضا بمزيج من اللبن ومعجون الكيف، ثم وضعه على الأرض. وأكل هو نفسه ملء ثلاث ملاعق من المعجون ثم جلس يشاهد ويراقب، وهو ينقر بأصابعه على طاولة الشاي الخشبية الواطئة. حدث كل شيء بالضبط كما كان يأمل. خرج الثعبان ببطء من عمق البطانية، وبسرعة شديدة وجد طريقه إلى الطبق حيث أخذ يشرب الخليط. واصل علال النقر بأصابعه طوال الفترة التي كان الثعبان يشرب فيها، وعندما انتهى الثعبان ورفع رأسه لينظر إليه، توقف الفتى عن النقر، فزحف الثعبان عائدا إلى البطانية.

في وقت لاحق من ذلك المساء وضع علال المزيد من اللبن في الطبق، وراح ينقر ثانية على الطاولة. بعد فترة قصيرة من الوقت

برز رأس الثعبان، وفي النهاية ظهر الثعبان بالكامل، وتكرر نمط الأداء نفسه مرة ثانية.

في خلال تلك الليلة وكل ليلة تلتها، كان علال يجلس مع الثعبان، وهو يحاول بصبر لا حدود له أن يجعل الثعبان صديقا له. لم يحاول أن يلمسه قط، لكنه بعد فترة قصيرة أصبح قادرا على استدعائه، وإبقائه أمامه بقدر ما يحب، فقط بمجرد النقر على الطاولة، ثم يصرفه وقتما يشاء. وقد استخدم معجون الكيف طوال الأسبوع الأول أو نحو ذلك، ثم جرب هذا الروتين من دونه. وفي النهاية كانت النتيجة واحدة. ومنذ ذلك الوقت لم يعد يطعمه سوى اللبن والبيض فقط.

وذات مرة بينما كان صديقه ممددا وهو يتلوى برشاقة أمامه، بدأ يفكر في الرجل العجوز، فتمكنت منه فكرة طردت كل الأشياء الأخرى من ذهنه. لم يكن هناك أي معجون كيف في البيت لعدة أسابيع، فقرر أن يعد بعضا منه. اشترى المكونات في اليوم التالي، وبعدما انتهى من عمله في البلدة، أعد المعجون. وعندما فرغ من إعدادهِ، خلط كمية كبيرة منه مع اللبن في سلطانية ووضعها على الأرض ليأكل الثعبان. ثم أكل هو نفسه أربع ملاعق، وتناول بعدها بضع رشقات من الشاي.

خلع ملابسه بسرعة، وحرك الطاولة حتى يتسنى له الوصول إليها من دون عناء، وتمدد عاريا فوق الحصيرة بجوار الباب. في هذه المرة واصل الطرق على المائدة، حتى بعدما انتهى الثعبان

من شرب اللبن. ظل الثعبان ثابتاً، وهو ينظر إليه، كما لو أنه لم يعد هناك شك في أن النقر المألوف كان يصدر عن ذلك الجسم البني الممدد أمامه.

وعندما لاحظ علال أنه حتى بعد انقضاء فترة طويلة بقي الثعبان في مكانه، وهو يحدق فيه بعينه الحجريتين الصفراوين، بدأ علال يقول له مرارا وتكرارا: «تعال هنا». كان يعرف أنه ليس بإمكانه أن يسمع صوته، لكنه كان يعتقد أن بمقدوره أن يحس بما في ذهنه عندما كان يستحثه على هذا. «بإمكانك أن تجعلها تقوم بما تريد، ومن دون أن تقول كلمة»، كان الرجل العجوز قد أخبره بهذا من قبل.

على الرغم من أن الثعبان لم يتحرك، فقد استمر علال في تكرار أمره، لأنه كان يعرف أنه سوف يأتي إليه. وبعد انتظار آخر طويل، خفض الثعبان رأسه فجأة وبدأ في التحرك نحوه. وصل الثعبان إلى وركه وانزلق بمحاذاة ساقه بطولها. ثم صعد فوق ساقه وظل ممددا لبعض الوقت فوق صدره. كان جسده ثقيلًا وفاترا، وكانت حراشفه ناعمة ملساء على نحو رائع. بعد فترة من الوقت توقف، وتكوّر في ذلك المكان بين رأسه وكتفه.

بمرور الوقت استحوذ معجون الكيف على عقل علال كلية. استلقى في حالة من البهجة الخالصة، وهو يشعر برأس الثعبان قبالة رأسه، ولم يعد يفكر في شيء إلا أنه والثعبان كانا معا. كانت الأشكال التي تتشكل وتذوب خلف جفنيه قد بدت مماثلة لتلك الأشكال التي كانت تغطي ظهر الثعبان. بين الحين والآخر كانت تلك الأشكال تدور معا في حركة كبيرة محمومة إلى أعلى ثم تتبعثر

منحلة إلى شظايا سرعان ما كانت تتحول إلى عين كبيرة صفراء،
منقسمة عند المنتصف بوساطة بؤبؤ العين الرأسي الضيق الذي
كان ينبض على إيقاع نبضاته. بعد ذلك كانت العين تتراجع، خلال
تحول وتبدل الظلال وضوء الشمس، حتى بقيت فقط الأشكال
المزينة لحراشف الثعبان، وهي تتدفع محتشدة بإصرار متجدد
بينما كانت تتدمج ثم تتفصل. وفي النهاية عادت العين من جديد،
بشكل كبير جدا هذه المرة بحيث بدت من دون أي حواف حولها،
وكان البؤبؤ قد اتسع ليشكل ثقباً واسعاً تقريبا بحيث يسمح له
بالدخول فيه. وبينما كان يحدق داخل هذا السواد، أدرك أنه كان
ينجذب ببطء نحو الفتحة. وضع يديه بحيث تلامسان السطح
اللامع المصقول للعين على كلا الجانبين، وبينما كان يفعل هذا
شعر بأنه ينجذب إلى داخلها. انزلق في الفتحة وابتلعه الظلام.
عندما استيقظ علال أحس بأنه قد عاد من مكان ما بعيد
جدا. فتح عينيه فرأى، على مقربة شديدة منه، ما يشبه خصر
وحش ضخم، مغطى بشعر خشن صلب. كان هناك اهتزاز متكرر
في الهواء، مثل رعد بعيد يتحرك بطريقة التفاضلية عند حواف
السماء. تنهد، أو تخيل أنه تنهد؛ لأن تنفسه لم يند عنه أي
صوت. ثم حرّك رأسه قليلا، محاولا أن يرى ما وراء كتلة الشعر
المحاذية له. بعد ذلك رأى الأذن، وأدرك أنه كان ينظر إلى رأسه
هو من الخارج. لم يكن يتوقع هذا، كان يأمل فقط في أن يقترب
صديقه ويشاركه عقله. لكن الأمر لم يبد له غريبا على الإطلاق،
فقط قال لنفسه إنه كان يرى في هذه اللحظة بعيني الثعبان،
بدلاً من عينيه هو.

فهم الآن لماذا كان الثعبان حذرا منه: فقد كان الفتى من هذا المكان يبدو مخلوقا بشعا، بكتل الشعر المجعد على رأسه وتتفسه الذي كان يتردد داخله مثل عاصفة مفرطة البعد.

بسط نفسه وانساب عبر الأرضية إلى الحجرة. كانت هناك ثغرة في الجدار الطيني بدرجة تسمح له بالخروج. وعندما دفع نفسه خلالها، تمدد بالكامل على الأرض في ضوء القمر الشفاف، وهو يحرق في غرابة المشهد، حيث لم تكن الظلال ظلالة.

زحف بمحاذاة جانب البيت ومضى في الطريق صاعدا نحو البلدة، مبتهجا بإحساس الحرية المختلف عن أي إحساس آخر أحس به من قبل. لم يكن هناك إحساس بأن له جسدا، لأنه كان مضمنا تماما في الجلد الذي كان يغطيه. كان من الرائع أن يداعب الأرض بمعدته الطويلة الممتدة بينما كان يتحرك على امتداد الطريق الصامت، وهو يشم رائحة العروق الحادة لنبات الشيح في الريح. عندما ارتفع صوت المؤذن من المسجد في سماء القرية، لم يكن بإمكانه أن يسمعه، أو يعرف أن الليل سينتهي في غضون هذه الساعة.

عندما لمح رجلا أمامه، ترك الطريق واختبأ وراء صخرة حتى زال الخطر. لكن هناك بينما كان يقترب من البلدة بدأ الكثيرون من الناس يتواجدون، حتى أنه ترك نفسه يهبط نحو «الساقية»، ذلك المصرف العميق الذي يوجد بمحاذاة الطريق. وفي ذلك المكان كانت الأشجار وكتل النباتات الميتة تعوق تقدمه. كان ما زال يجاهد على امتداد أرض الساقية، وهو يدفع نفسه حول

الصخور وبين كتل الأغصان الجافة الملبدة التي خلفتها المياه، عندما بدأ الفجر يبرز.

قدوم النهار جعله يشعر بالقلق والتعاسة. تسلق إلى أعلى ضفة الساقية ورفع رأسه ليتفحص الطريق. رآه رجل كان يمر به، فوقف برهة ساكنا تماما، ثم استدار وجرى إلى الخلف من حيث أتى. لم ينتظر علال فقد كان يريد الوصول إلى البيت الآن بأسرع وقت ممكن.

بمجرد أن أحس بصوت ارتطام حجر بالأرض في مكان ما خلفه، ألقى بنفسه على الفور من فوق حافة الساقية وزحف إلى أسفل الضفة. كان على دراية بالتضاريس في هذا المكان، فحيث كان الطريق يقطع الوادي، كانت هناك ماسورتان للصرف الصحي ليستا بعيدتين إحداها عن الأخرى. كان هناك رجل يقف أمامه على مسافة ممسكا بجاروف، وهو يحدق إلى أسفل في الساقية. فواصل علال التحرك، وهو يدرك أن عليه أن يصل إلى ماسورة الصرف الصحي الأولى قبل أن يتمكن الرجل من الوصول إليه والتمكن منه.

كانت أرضية النفق الممتد أسفل الطريق مضلعة بتموجات رملية صغيرة. وكان هواء الماسورة التي يتحرك خلالها له رائحة جبليّة. ثمة أماكن في هذا المكان كان بإمكانه الاختباء فيها، لكنه واصل التحرك، وسرعان ما وصل إلى الطرف الآخر من ماسورة الصرف الصحي. ثم واصل تحركه إلى الماسورة الثانية فمضى تحت الطريق في اتجاه آخر، إلى أن برز مرة ثانية وسط الساقية. كان كثيرون من الرجال خلفه وقد تجمعوا عند مدخل

الماسورة الأولى، وكان أحدهم جاثيا على ركبتيه ورأسه وكففيه في داخل الفتحة.

انطلق الآن إلى البيت في خط مستقيم عبر الأرض المنبسطة، وقد أبقي عينيه مثبتتين في حذر على كتل أشجار النخيل المجاورة لهذه الأرض المنبسطة. كانت الشمس قد أشرقت، وبدأت الأحجار تعكس ظلالات طويلة مائلة إلى الزرقة. فجأة ظهر ولد صغير من خلف جذوع أشجار النخيل في الجوار، رآه الولد، ففتح عينيه على اتساعهما وفغر فمه من شدة الرعب. فقد كان الولد على مقربة شديدة من علال إلى درجة أنه اندفع إليه مباشرة ولدغه في قدمه. جرى الولد بخطوات واسعة في انفعال نحو مجموعة الرجال عند الساقية.

أسرع علال نحو البيت، ولم ينظر إلى الخلف إلا عندما وصل إلى الفتحة الموجودة في الطوب اللبن. كان عدة رجال يركضون نحوه من بين الأشجار. فاندس بسرعة إلى داخل حجرة النوم. كان الجسد الأسمر لا يزال ممددا بالقرب من الباب. ولم يكن هناك متسع من الوقت، وكان علال في حاجة إلى بعض الوقت ليعود إلى الجسد، ليتمدد على مقربة من رأسه ويقول له: تعال هنا.

بينما كان يحدق في الحجرة حيث يرقد الجسد، كان هناك طرق عنيف على الباب. كان الفتى قد وقف على قدميه عند أول الطريق، كما لو كان زنبركا قد تحرر فجأة، ورأى علال في يأس تعبير الرعب الكامل على وجهه، وكيف أن عينيه لا عقل خلفهما. وقف الولد يلهث، وقبضتاه مضمومتان. انفتح الباب

وحدّق بعض الرجال إلى داخل البيت. ثم خفض الفتى رأسه وهو يصرخ ثم اندفع إلى الخارج عبر فتحة الباب. تمكن أحد الرجال من الخروج بهدف الإمساك به، لكن توازنه اختل وسقط على الأرض. استداروا بعد لحظة وبدأوا يركضون خلف الشكل العاري خلال بستان أشجار النخيل.

حتى عندما كانوا، يفقدون أثره، من وقت إلى آخر، كان بوسعهم سماع صراخه، وعندئذ كانوا يتمكنون من رؤيته، بين جذوع أشجار النخيل، وهو لا يزال يعدو. وفي النهاية تعثر وسقط على وجهه، عندئذ تمكنوا من الإمساك به، وتقييده، وستر عريه، ثم اصطحابه بعيدا، لإرساله في أحد الأيام بعد ذلك مباشرة إلى المستشفى في برشيد.

بعد ظهر ذلك اليوم عادت المجموعة نفسها من الرجال إلى البيت لاستئناف البحث الذي كانوا قد عزموا عليه في وقت سابق. كان علال ممددا في حجرة النوم، ناعسا. عندما استيقظ، كانوا قد أصبحوا بالفعل في الداخل. فالتفت وانسل إلى الفتحة، فرأى رجلا كان ينتظر هناك خارج البيت، وفي يده هراوة.

انطلق الغضب الذي كان يعتل في قلبه دائما، وانفجر في تلك اللحظة، وكما لو أن جسده كان سوطا، قفز إلى خارج الحجرة. كان الرجال الذين على مقربة منه يزحفون على أيديهم وركبهم، فشعر علال بالغبطة والسرور وهو يفرس نابيه في اثنين منهم قبل أن يتمكن الثالث من فصل رأسه بضربة فأس.

العين

منذ عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة جاء إلى هنا رجل للعيش في طنجة، كان من الأفضل له أن يبقى بعيدا عنها. فما حدث له لم تكن له يد فيه من دون شك، على الرغم من التلميحات الهامسة للمقيمين هنا من السكان المتحدثين بالإنجليزية. عادة ما تصدر عن هؤلاء الناس ردود أفعال مشابهة لتلك التي تصدر عن جماعات بدائية بعينها، عندما تحل البلية بفرد من أفرادها، فإن الآخرين يتفقون على عدم مد يد العون إليه، فلا يفعلون شيئا سوى النأي والجلوس للفرجة، وهم على يقين من أنه هو من أنزل المعاناة والشقاء على نفسه، وبالتالي يصبح هذا الشخص في المنطقة المحرمة، وغير صالح لتلقي المساعدة. في حالة هذا الرجل على وجه التحديد، أظن، أنه لم يكن باستطاعة أحد أن يساعده، ومع ذلك، كان استنكار ما أوقعه فيه حظه السيئ، لا محالة قد جعل الأشهر الأخيرة من حياته أكثر مشقة من حيث التحمل.

كان اسمه دنكان مارش، قيل إنه جاء من فانكوفر. لم تسبق لي رؤيته، ولم تسبق لي معرفة أحد ادعى أنه قد رآه. ومنذ الوقت الذي تناهت إلى أسماعنا فيه قصة موته في دائرة حفلة الكوكتيل، شعر بعض السكان الأجانب الأقل تقديرا للمسؤولية بأنه قد أصبح لهم مطلق الحرية في أن يطلقوا العنان لميولهم في نسج الأساطير.

كان قد جاء إلى طنجة بمفرده، واستأجر بيتا مؤثثا على سفح «جامع المقرى»(*) كان في غاية السهولة عليه العثور في تلك الأيام على بيت كهذا، وفي الوقت نفسه كان رخيصا في تكلفته، وفي تلك الفترة عين مغربيا في سن المراهقة للعمل كحارس ليلي للبيت وملحقاته. كان البيت مجهزا بطاهية وبستاني مقيم، لكن كليهما أعفى من خدمته، وحلت محل الطاهية امرأة أخرى بناء على اقتراح الحارس. ولم تمض على ذلك فترة طويلة حتى بدأ مارش في الإحساس بالأعراض الأولى لمرض في الجهاز الهضمي، أخذ يزداد معه على مدار الشهور حتى أصبح أكثر تدهورا باستمرار. فنصحته الأطباء في طنجة بالذهاب إلى لندن. ساعده قضاء شهرين في المستشفى على التعافي نوعا ما. لم يحدث تشخيص دقيق للحالة، ومع ذلك، عاد إلى هنا، ليلبث طريح الفراش. وفي النهاية أرسل بالطائرة إلى كندا محمولا على نقالة، ولقي حتفه هناك بعد وصوله بوقت قصير.

في خلال كل هذا لم يكن هناك شيء غير عادي، فقد افترض أن مارش كان أحد ضحايا التسمم البطيء من جانب الموظفين المحليين. كانت هناك عدة حالات مماثلة طويلة العقود الخمسة التي مكثتها في طنجة. وفي كل حالة منها كان يقال إن الضحية الأوروبية نفسه، أو نفسها، وحدها الملامة، لتشجيعها الخادم على التآلف والحميمية الزائدة. ما يبدو غريبا هو أن أحدا لم يأخذ المسألة أبدا على محمل الجد من حيث التقصي والبحث

(*) وردت بالعربية [الترجم].

عن المتهم، لكن نظرا إلى انعدام الدليل لم تكن هناك أهمية أو غاية لمحاولة التحقيق.

ثمة مسألتان في التفاصيل تكملان القصة. في فترة ما في أثناء مرضه، أخبر مارش صديقا مقربا منه بالترتيبات التي اتخذها لتوفير إعانة مالية لحارسه الليلي في حال إذا ما تعين عليه هو نفسه مغادرة المغرب مجبرا، وقد أعطى للولد خطابا موثقاً متعلقاً بهذا الموضوع، لكن من الواضح أن الولد لم يحاول الضغط أبداً للمطالبة بحقه. جاء تقرير آخر من الطبيب هالسي، وهو الذي رتب لنقل مارش من البيت إلى المطار. كانت هذه المعلومة الصغيرة هي التي جعلت القصة، على الأقل بالنسبة إلي، تعود وتذب فيها الحياة مجدداً؛ فوفقاً لما ورد في تقرير الطبيب، كان باطنا قدمي مارش محفورين بطريقة مرتبة ومنظمة بشقوق عميقة على هيئة أشكال غير متقنة، وكانت الشقوق حديثة، لكن كان هناك بعض التلوث الميكروبي. استدعى الطبيب هالسي الطاهية والحارس الليلي، فبدت عليهما الدهشة والهلح عند رؤيتهما لقدمي صاحب البيت، وكانا غير قادرين على تبرير هذه التشوهات. في غضون أيام قليلة من رحيل مارش، عادت الطاهية والبستاني الأصلان، اللذان كان قد استغني عنهما، إلى الإقامة في البيت، إثر مغادرة الاثنين الآخرين اللذين تركا البيت بالفعل عقب الحادث.

كان التسميم البطيء واضحاً تماماً، خصوصاً في ضوء ملاحظة مارش عن تقديم المعونة للولد، لكن الأشكال المحفورة بالسكين في القدمين كانت عائفاً في طريق أي مجموعة من الدوافع التي يمكن

أن يستتجها المرء. فكرت في هذا الأمر. من الممكن أن يكون هناك بعض الشك في أن الولد كان مذنبا. فقد تمكن من إقناع مارش بطرد الطاهية التي كانت موجودة في البيت منذ البداية، على الرغم من أنه كان عليه الاستمرار في دفع أجرتها، واستئجار امرأة أخرى (في الأغلب من عائلته) لتقوم بطهي الطعام. تستمر عملية التسمم شهورا ولو كانت غير ملحوظة، ولم يكن هناك من هو في مكان أفضل لتولي مسؤولية هذه العملية من الطاهية نفسها. كان من الواضح أنها قد عرفت بالترتيب المالي الذي قد اتخذ لمصلحة الولد، وتوقعت المشاركة فيه. في الوقت نفسه، كانت الشقوق المتصالبة والدائرية في القدمين غير قابلة للتفسير. إن من دس السم البطيء صبور، وحذر، ومنظم، همه الرئيسي هو إبقاء الجرعة مؤثرة وأيضا تجنب ترك أي علامات مرئية. كان التهور والمخاطرة غير واردين عنده.

جاء وقت لم يعد الناس تأتي فيه على ذكر قصة دنكان مارش. أنا نفسي قليلا ما كنت أفكر فيها، فلم يعد يوجد لديّ المزيد من الافتراضات العملية الملائمة والمحتملة لأقدمها. ذات مساء ربما منذ خمس سنوات، جاء إليّ أحد الأمريكيان المقيمين هنا بخبر مفاده أنه قد عثر على مغربي زعم أنه كان حارس مارش الليلي. كان اسم الرجل هو «العربي»، ويعمل نادلا في مطعم صغير في شارع جانبي يدعى «لا فان بيك». يبدو واضحا أنه كان يتحدث الإنجليزية بشكل سيئ، لكنه كان يفهمها من دون صعوبة. قال الأمريكي إن هذه المعلومة ستكون بمنزلة عون لي، في حال إذا ما شعرت بالرغبة في الاستفادة منها.

قلّبت الأمر في رأسي، وذات ليلة بعد ذلك بعدة أسابيع ذهبت إلى المطعم لرؤية العربي بنفسي. كان المكان مضاء بشكل خافت ومملوءاً بالأوروبيين. تفحصت عمال المطعم الثلاثة. كان يشبه بعضهم البعض، فكل منهم شارب أسود عريض، ويرتدون الجينز الأزرق، وقمصان خفيفة مفتوحة العنق. أعطاني أحدهم قائمة الطعام، تمكنت من قراءتها بصعوبة شديدة، حتى عندما وضعتها مباشرة تحت وهج مصباح المائدة الصغير. وعندما عاد الجرسون الذي أحضرها لي، سألت عن «العربي».

انتزع القائمة من يدي وترك المائدة. بعد لحظة ظهر نادل آخر من الثلاثي واقترب مني وناولني القائمة التي كان يحملها تحت ذراعه. طلبت ما أردته بالإسبانية. عندما أحضر الحساء تمتعت قائلاً له إنني لم أكن أتوقع أن أجده يعمل في هذا المكان. أدهشه هذا، كان بوسعي أن أرى أنه كان يحاول أن يتذكرني. «ولم لا أعمل هنا؟» كان صوته ثابتاً، من دون أن يتغير مستواه.

«بالطبع! لم لا؟ كل ما في الأمر أنني تخيلت أنك تمتلك بازاراً أو دكاناً على الأقل».

كانت لضحكته شهقة معبرة عن الاستياء والسخط «بازاراً» عندما جاء بالطلب الثاني اعتذرت له عن تدخلتي في شؤونه. لكنني قلت له إنني كنت مهتماً، لأنني كان قد ترسخ لديّ اعتقاد منذ عدة سنوات بأنه قد تسلم ميراثاً من سيد إنجليزي. «هل تقصد السنيور مارش؟» كانت عيناه مفتوحتين على اتساعهما.

«نعم. هذا اسمه. ألم يعطك الرسالة؟ لقد أخبرني أصدقائه أنه قد فعل ذلك».

تطلع من فوق رأسي بينما قال: «لقد أعطاني خطابا». «هل سبق لك أن أطلعت أحدا عليه؟» كان هذا تهورا وافتقارا للياقة من جانبي، لكن في بعض الأحيان يكون من الأفضل أن تمضي إلى الهدف مباشرة.

«لماذا؟ وما الفائدة من هذا؟ فالسنيور مارش قد مات؟» وهز رأسه بشكل قاطع، وانتقل إلى مائدة أخرى. بمرور الوقت انتهت من الكريم كراميل، وعندما انصرف معظم الزبائن، وبدا المكان أكثر عتمة، جاء إلى مائدتي ليرى إن كنت أرغب في تناول القهوة. طلبت فاتورة الحساب. وعندما أحضرها لي قلت له إنني أود كثيرا أن أرى الخطاب إن كان لا يزال في حوزته. «بإمكانك أن تأتي ليلة غد أو أي ليلة، وسوف أطلعك عليه. إنه في البيت».

شكرته ووعدته بالعودة في غضون يومين أو ثلاثة. كنت متحيرا بينما كنت أغادر المطعم. فقد بدا من الواضح أن النادل لم يعتبر نفسه مسؤولا عن المتاعب التي لحقت بدنكان مارش. عندما اطلعت على الوثيقة، بعد بضع ليال، لم أعد أفهم أي شيء.

لم يكن خطابا، بل عريضة من النوع الذي يباع في أكشاك السجائر. تقول في بساطة ووضوح: لمن يهمله الأمر «أوافق أنا، دنكان وايت لو مارش، بموجب هذه الوثيقة على إيداع مبلغ مائة جنيه في حساب العربي الريني، في مطلع كل شهر، مادمت

أنا على قيد الحياة». كانت موقعة وموثقة بحضور شاهدين مغربيين، وتحمل تاريخ الحادي عشر من يونيو ١٩٦٦. قلت بينما كنت أعيدها إليه: «ولم تعد عليك بأي فائدة».

هزّ كتفيه ودسّ الورقة في محفظته. «وكيف ستعود عليّ بالفائدة؟ فالرجل قد مات».

«إن هذا سيئ جداً»، قلت.

«سيرت»، في الاستخدام المغربي الدارج، تعني المكتوب أو القضاء والقدر أكثر مما تعني المصادفة أو الحظ المحض البسيط.

كان بإمكانني في تلك اللحظة أن ألح فأسأله إن كانت لديه أي فكرة عن سبب مرض دنكان مارش، لكنني كنت في حاجة إلى مزيد من الوقت للتفكير في ما كنت قد عرفت له لتوي. قلت بينما كنت أنهض لأغادر، «أنا آسف لأن الأمور قد سارت بهذه الطريقة. سأعود خلال بضعة أيام». مدّ يده لي فصافحته. لم تكن لديّ آنذاك نية في العودة. ربما أعود قريباً أو ربما لا أرجع أبداً.

«مادمت على قيد الحياة». ظلت هذه العبارة تتردد في ذهني لعدة أسابيع. من المحتمل أن مارش أورد هذه العبارة بهذه الطريقة ليسهل فهمها على الشاهدين العدلين(*) من طنجة، اللذين وضعاً توقيعهما المنمق على الوثيقة، ومع ذلك لم يكن بمقدوري تفسير الكلمات إلاّ بطريقة أكثر ميلودرامية. كانت الوثيقة بالنسبة إليّ تمثل إقراراً قانونياً لوثيقة جرى إبرامها بين خادم وسيده في حضورهما. أراد بها مارش مساعدة الحارس

(*) وردت بالعربية [المترجم].

الليلي، ووافق الحارس الليلي على طلب سيده. لم يكن هناك شيء لأؤسس عليه مثل هذا الاستنتاج أو الفرض، وعلى الرغم من ذلك كنت أعتقد أنني في الطريق الصحيح. بدأت أوّمن بالتدريج أنه لو كان بوسعي التحدث مع الحارس الليلي، باللغة العربية وفي داخل البيت نفسه، فربما أكون في وضع يتيح لي رؤية الأمور بوضوح أكثر.

ذهبت ذات مساء إلى مطعم «لا فان بك» ومن دون أن أجلس أشرت إلى العربي أن يحضر إلى الخارج للحظة. وهناك سألته إن كان بإمكانه أن يعرف لي ما إذا كان البيت الذي كان السنيور مارش يسكنه لا يزال خاليا حتى تلك اللحظة أم لا. «لا أحد يسكن هناك في الوقت الراهن». توقف، ثم أضاف: «إنه خال من السكان. أنا أعرف الحارس الوصي».

كنت قد قررت، على الرغم من إلمامي الضعيف باللغة العربية، أن أتحدث إليه بلغته، لذا قلت: «انظر. أريد أن أذهب معك إلى البيت حيث أرى أين حدث كل شيء. سأعطيك خمسة عشر ألف فرنك مقابل أتعابك».

كان قد فزع لسماعه للغة العربية، ثم تبدّل تعبير وجهه إلى الرضا، وقال: «من المفترض أن هذا الحارس لا يسمح لأي شخص بالدخول».

ناولته ثلاثة آلاف فرنك. «رتب هذا معه. وخمسة عشر لك عندما تغادر البيت. هل بإمكانك القيام بهذا يوم الخميس؟». يجب عليّ أن أقول إن البيت قد بني في الخمسينيات عندما كان البناء الجيد ممكنا في ذلك الوقت. كان البيت منفردا بشكل

متين وراسخ في سفح التل، والغابة مرتفعة من ورائه. اضطررنا إلى صعود ثلاث مجموعات من درجات السلم عبر الحديقة للوصول إلى المدخل. الحارس الوصي، وهو رجل جبلي (*) مقطب الجبين ويرتدي جلبابا بنيا، تبع خطواتنا عن كثب، وهو ينظر إليّ بارتياح.

كانت هناك شرفة عريضة فوق الطابق العلوي، تطل من جهة الجنوب الشرقي على المدينة والجبال. خلف الشرفة مرج ظليل ينتهي حيث تبدأ الغابة. كانت حجرة المعيشة واسعة ومضيئة ومزودة بأبواب على الطراز الفرنسي تطل على المرج. كانت روائح الجدران الرطبة والعفن الفطري تزكم الأنوف. القناعة الحمقاء بأنني كنت على وشك أن أفهم كل شيء تملكنتي واستحوذت عليّ، ولا حظت أنني كنت أتتفس بسرعة أكبر. تجولنا داخل حجرة الطعام. كان هناك ممر في الخلفية، وكانت الحجرة التي نام فيها مارش مغلقة ومظلمة. كان هناك سلم عريض حلزوني يؤدي إلى طابق في الأسفل حيث كانت هناك حجرتا نوم إضافيتين ويستمر السلم في حلزونيته مؤديا إلى الأسفل حيث المطبخ وحجرات الخدم. كان باب المطبخ مفتوحا على فناء صغير أرضيته مفروشة بالحجارة وجدرانه العالية غطتها نباتات الفيلوديندرون (**).

تطلع العربي إلى الخارج حيث الفناء ثم هز رأسه وقال في تجهم: «هذا هو المكان الذي بدأت فيه المشكلة كلها».

(*) وردت بالعربية [الترجم].

(*) نبات أمريكي استوائي متسلق من عائلة الأرسيا، لأوراقه لون أخضر لامع وملمس ناعم، وغالبا ما يستخدم في تزيين المنازل [الترجم].

اندفعت عبر المدخل وجلست في الشمس على دكة من الحديد المطاوع. «إن المكان رطب في الداخل. لماذا لا نجلس هنا في الخارج؟» قلت للعربي.

تركنا الحارس الوصي وأغلق البيت. جلس العربي مقرصا بشكل مريح على عقيبه قرب الدكة.

لم تكن لتحديث أي مشكلة على الإطلاق، لو كان مارش قد رضي بياسمينه، الطاهية التي كان راتبها جزءا من الإيجار، لكنها كانت طاهية مهملة وكان الطعام الذي تطهوه سيئا. وقد طلب مارش من العربي أن يعثر له على طاهية أخرى.

«قلت له من البداية إن لدى هذه المرأة التي تدعى مريم فتاة صغيرة، وأن بمقدورها أن تتركها لبضعة أيام مع صديقات لها. لكنها ستضطر في الأيام الأخرى إلى إحضارها معها عندما تأتي إلى العمل. وقال إن الأمر ليس ذا أهمية، لكنه كان يريد منها أن تبقى هادئة».

استأجر المرأة. كانت ليومين أو ثلاثة في الأسبوع تصطحب الفتاة معها، حيث كانت تلعب في الفناء ويكون باستطاعتها أن تراقبها. اشتكى مارش منذ البداية من أنها كانت مزعجة وكان يرسل الرسائل مرارا وتكرارا إلى مريم في الطابق السفلي، يطلب منها أن تسكت الطفلة. وفي أحد الأيام تسلل بهدوء حول البيت من الخارج ثم هبط إلى الفناء. وحبا على يديه وقدميه، ووضع وجهه في وجه الفتاة الصغيرة، وتجهم في وجهها بصورة وحشية جدا إلى درجة أنها أخذت في الصراخ. عندما اندفعت مريم مسرعة إلى خارج المطبخ نهض مارش مبتسما ومشى مبتعدا. واصلت الفتاة الصغيرة

الصراخ والنحيب في ركن من المطبخ حتى أخذتها مريم إلى البيت. في تلك الليلة، وكانت لاتزال تبكي، أصيبت بحمى شديدة. وظلت عدة أسابيع متأرجحة بين الحياة والموت، وعندما تجاوزت مرحلة الخطر أخيرا، كانت قد فقدت قدرتها على السير.

أخذت مريم، التي كانت تتقاضى أجرا عاليا نسبيا، تستشير فقيها(*) تلو الآخر. وأجمعوا جميعا على أن «العين» قد أصابت الطفلة، وكان من الواضح أن من أصابها هو «النصراني»(**) الذي كانت تعمل عنده. كان يجب عليها أن تفعل ما قالوه لها، قال العربي شارحا، وكان أن تقوم بإعطاء مارش مواد معينة سيكون بإمكانها في النهاية أن تبطل السحر. وقال لي وهو يحدق في وجهي بشكل مريب، إن هذا كان ضروريا جدا. حتى لو كان السنيور قد وافق على إبطال مفعول العين (وبالطبع لم تكن مريم لتقدر على ذكر هذا إليه) فإنه لم يكن بإمكانه القيام بهذا. ولم تكن العقاقير التي أعطتها له ضارة، بل مجرد دواء لجعله أكثر استرخاء بحيث عندما يأتي الوقت المناسب لفك أو إبطال السحر لا يبدي أي نوع من أنواع المعارضة.

في وقت ما أسرّ مارش للعربي أنه يشك في مريم ويعتقد أنها تضع مادة مخدرة في طعامه، وشدد عليه أن يكون حذرا ويقظا لها. وكانت الوثيقة الموقعة التي تضمن للعربي عيشة كريمة بمنزلة حافز لضمان مساعدته الفعالة هذه. ونظرا إلى أن العربي كان يعتقد أن المخاليط التي كانت تدسها مريم في طعام سيدها غير ضارة نسبيا، فقد طمأنه وتركها تواصل تسميمه بعقاقيرها.

(*) وردت بالعربية [المترجم].

(***) وردت بالعربية [المترجم].

بعدما تملكه التعب من الجلوس القرفصاء، نهض العربي فجأة وبدأ يسير جيئةً وذهاباً، وهو يخطو بحرص فوق منتصف كل بلاطة حجرية. «عندما تعين عليه الذهاب إلى المستشفى في لندن، قلت لها: لقد أصبته الآن بالمرض. افترضى أنه لن يتمكن من العودة؟ فإنك لن تستطيعي إزالة مفعول العين أبداً. كانت قلقة بهذا الشأن. «لقد فعلت ما كان باستطاعتي»، قالت، «إن الأمر الآن بين يدي الله».

عندما عاد مارش بالفعل إلى طنجة، حثها العربي على سرعة إنجاز الأمر، خصوصاً أنها كانت محظوظة بالقدر الكافي لأنه قد عاد. كان العربي يعتقد، حسبما قال، أنه كان من الأفضل لصحة السنيور مارش لو أنها لم تستمر في معالجته لفترة طويلة.

لم أسأل أي أسئلة بينما كان يتحدث، وقصدت أن أبقى وجهي خالياً من التعبير كلية، لاعتقادي أنه لو لاحظ أدنى علامة على الاستهجان فقد يتوقف. كانت الشمس قد غابت خلف الأشجار وكان الفناء يبعث القشعريرة في جسدي فانتابتي رغبة قوية في النهوض والسير جيئةً وذهاباً كما كان يفعل هو، لكنني اعتقدت أنه حتى هذا قد يتسبب في مقاطعة كلامه. فبمجرد أن يتوقف التدفق فإنه قد لا يعود إلى الجريان ثانية.

وسرعان ما صار مارش أسوأ مما كان عليه في أي وقت مضى، آلام مبرحة في معدته وكليتيه. وظل وقتها في السرير، وكان العربي يحضر له الطعام.

عندما رأَت مريم أنه لم يعد قادرا على مغادرة السرير، حتى للذهاب إلى الحمام، قررت أن الوقت قد حان للتخلص من سحر العين. في الليلة نفسها التي عقد فيها الفقيه مراسمه في منزلها في حضور الطفلة المشلولة، حضر أربعة رجال من عائلة مريم إلى المكان هنا في «جامع المقرى».

«عندما رأيَتهم قادمين، ركبت دراجتي البخارية وذهبت إلى المدينة. لم تكن بي رغبة في أن أكون هنا عندما يقومون بما انتووه. فالأمر لا يعنيني في شيء».

وقف ساكنا وهو يفرك يديه معا. بدأت في سماع صوت الريح الجنوبية الغربية عبر الأشجار، كان الوقت بعد الظهر. «تعال، سأطلعك على شيء ما»، قال.

تسلقنا درجات جانبية من خلف البيت ووصلنا إلى شرفة تعلوها تعريشة. وكان خلف الشرفة مرج ممتد وسور من الأشجار.

«كان مريضا جدا ليومين متتاليين عقب الواقعة. وظل يطلب مني أن أتصل هاتفيا بالطبيب الإنجليزي».

«ألم تفعل ذلك؟»

توقف العربي عن السير ونظر إليّ. «كان عليّ أولا أن أقوم بتطهير كل شيء. فمريم لم تكن تلمسه. كان ذلك في أثناء موسم تساقط الأمطار. وكان الطين والدم يغطيانه عندما رجعت إلى هنا ووجدته. في اليوم التالي أعطيته حماما وغيرت الملاءات والبساطين. ونظفت البيت، لأنهم كانوا قد لوثوا كل شيء عندما أعادوه إلى هنا. تعال معي، وسترى إلى أين كان لهم أن يأخذوه».

عبرنا المريج وكنا نسير في حزام العشب الطويل الذي كان يطوق حدود أطراف الغابة. كان هناك ممر يؤدي إلى اليمين خلال شبكة من الشجيرات المنخفضة، فتابعنا سيرنا فيه، ونحن نخطو فوق الصخور وجذوع الأشجار المتساقطة حتى وصلنا إلى بئر حجرية كبيرة. انحنيت فوق الجدار الصخري المحيط بها فرأيت دائرة صغيرة من السماء منعكسة على صفحة الماء بعيدا إلى أسفل.

«كان يجب عليهم أن يجروه على طول الطريق كله إلى هنا، كما ترى، وأمسكوه بثبات فوق البئر مباشرة بينما كانوا يحفرون العلامات في قدميه، بحيث يسقط الدم في الماء. كان من الفأل السيئ أن يسقط الدم على جانب البئر. وكان عليهم أن ينقشوا العلامات نفسها التي كانت مرسومة في ورقة الفقيه لإنقاذ الفتاة الصغيرة. كان من الصعب جدا القيام بهذا خاصة في الظلام والمطر. لكنهم قاموا به. لقد رأيت الشقوق عندما كنت أحمله.» سألته بحذر إن كان قد رأى أي علاقة بين كل هذا وموت مارش. توقف عن التحديق إلى السور والتفت إلى الخلف. وبدأنا نمشي عائدين نحو البيت.

«لقد مات لأن ساعته قد حانت.»

سألته «هل انفك السحر؟ هل استطاعت الطفلة المشلولة السير بعد ذلك؟» لكنه لم يسمع بشيء من هذا أبدا، لأن مريم ذهبت بعد فترة قصيرة جدا لتعيش مع أختها في قنيطرة. عندما كنا في السيارة، في طريق عودتنا إلى المدينة، ناولته المال. فحدّق فيه لعدة ثوان قبل أن يدسه في جيبه.

تركته ينزل في البلدة وقد تملكني إحساس غامض من الإحباط وخيبة الأمل، ورأيت أنني لم أتوقع فقط، بل وتمنيت حقاً، أن أجد شخصاً ما قد يصلح لأن يكون مذنبا، ولكن ما الجريمة؟ لم تكن هناك أي نية في ارتكاب جريمة، مجرد أم تتخبط في ظلمة الجهل العتيق. فكرت في هذا الأمر وأنا في طريق عودتي إلى البيت مستقلاً سيارة الأجرة.

في الغرفة الحمراء

عندما كنت أمتلك بيتا في سريلانكا، جاء أبي وأمي في أحد فصول الشتاء لرؤيتي. مبدئيا شعرت بقدر من تأنيب الضمير بسبب تشجيعي لزيارتهما. فربما كان لأي سبب من هذه الأسباب - الحرارة المستمرة، والطعام ومياه الشرب غير المعتادين، وحتى وجود عيادة للجذام على مسافة ربع ميل من البيت - تأثيره السلبي فيهما بطريقة أو بأخرى. لكنني كنت أبالغ في التقليل من قدرتهما على التكيف، فقد أبديا قدرة عالية أكبر مما كنت أظن، وكانا قانعين وراضين كلية بكل شيء. على الرغم من عدم مبالتهما بالافتقار إلى المياه الجارية في الحمامات، ومدحا بشكل مستمر الكاري الذي كان يقوم «أبوهامي» الطباخ المقيم، بإعداده. كان كلاهما في السبعينات من العمر، لم تغرهما مسافة أو أماكن اهتمام أكثر بعدا من جزيرتي الصغيرة. كان كافيا بالنسبة إليهما البقاء في البيت يقرآن، أو ينامان، أو يأخذان بضع غطسات وقت الشفق في المحيط، أو يذهبان في رحلات قصيرة على امتداد الساحل في سيارة أجرة. إذا توقف السائق، فجأة عند مزار أو ضريح لتقديم جوزة هند كقریان، كانا يغتبطان، وإذا التقيا مصادفة بمجموعة من الأفيال تتحرك بتناقل على طول الطريق، كان يجب على السيارة أن تركن على مسافة بعيدة إلى الأمام، حتى يتمكنوا من مشاهدتها تقترب ويمر الطابور من أمامهما. لم يكونا مهتمين بالنقاط الصور الفوتوغرافية، وقد جنبني هذا

ربما أشق عبء يقع على كاهل المرشد: الانتظار المتكرر حتى تنتهي الطقوس بين الإنسان والآلة. كانا حقا ضيفين مثاليين. كانت كولومبو، حيث عاش الناس الذين أعرفهم، تبعد أقل من مائة ميل عن بيتي. صعدنا إلى كولومبو عدة مرات لقضاء عطلات نهاية الأسبوع، التي كنت أرتبها مسبقا مع أصدقائي عن طريق الهاتف. وهناك كنا نتناول الشاي في الشرفات العريضة لبيوت بعينها في «حدائق أشجار القرفة» الشهيرة، ونجلس لتناول العشاء مع أساتذة من الجامعة، وقساوسة بروتستانت، وتشكيلة من أعضاء الحكومة. (استغرب كثيرون من السيرلانكيين من أنني ينبغي علي أن أخاطب والديّ باسميهما الأولين، دود، وحنة، واستعلم العديد منهم عما إن كنت في الواقع ابنا فعليا لهما أم بالتبني). كانت عطلات نهاية الأسبوع هذه في المدينة حارة ومرهقة، وكنا سعداء دائما بالعودة إلى البيت، حيث كان بإمكانهما استبدال ملابسهما بأخرى مريحة.

وفي أحد أيام الأحاد وقبل فترة قصيرة من عودتهما المنتظرة إلى أمريكا، قررنا مشاهدة سباقات الخيل في «جينتوتا»، حيث توجد هناك أيضا بعض حدائق النباتات التي أرادت حنة مشاهدتها. حجزت غرفتين في فندق «الشرق الجديد» في «جالي»(*) وتناولنا الغداء هناك قبل أن نغادر لمشاهدة السباقات.

كالعادة، بدأت أحداث السباقات متأخرة. كان المشاهدون، على أي حال، هم محور الاهتمام. مجموعة من النساء في أردية السواري الحريرية المتوهجة الألوان دفعن حنة للصياح من فرط

(*) ميناء في جنوب غرب سريلانكا [المترجم].

البهجة. كانت السباقات نفسها شيئاً يبعث على الإحباط وخيبة الأمل. وبينما كنا نغادر أرض السباق، قال دود برضى: سيكون من الأفضل العودة إلى الفندق والاسترخاء.

«لكننا سنذهب إلى الحدائق النباتية»، ذكرته حنة، ثم أضافت «أريد فقط أن ألقى نظرة سريعة عليها».

لم يكن دود متلهفاً. «تلك الأماكن تغطي الكثير من المنطقة، أنت تعرفين»، قال.

«فقط سنلقي نظرة سريعة على الداخل ثم نخرج»، قالت بلهجة وعد.

أخذتنا سيارة الأجرة إلى الداخل، كان دود متعباً، ونتيجة لذلك كان يلاقي قدراً من الصعوبة في المشي. «السنة الماضية أو نحو ذلك وجدت قدمي غير قادرتين دائماً على تنفيذ ما أريده بالضبط»، شرح مفسراً.

«أنتما تتقدمان في سيركما ببطء وعلى مهل»، قالت لنا حنة. «سأسرع أنا إلى الأمام إلى أعلى وأكتشف إن كان هناك أي شيء يمكن رؤيته».

وقفنا ننظر إلى شجرة قرنفل، كانت رائحتها النفاذة تملأ الهواء بما يشبه الغاز المتسرب. عندما استأنفنا سيرنا، كانت حنة غير موجودة على مرمى البصر. تقدمنا تحت النباتات العالية، بالقرب من منعطف في الممر، نظرنا إلى الأمام، ومع ذلك لم يكن هناك من أثر لها.

«إلى أين تظن أن أمك قد ذهبت؟ أول شيء نعرفه أنها ستكون تائهة».

«إنها في الأمام إلى الأعلى في مكان ما».

بعد فترة وجيزة، في نهاية حارة قصيرة تدلت من سقفها نباتات متسلقة، رأيناها، وقد أخفاها جزئياً، إصبع سريلانكي يقف بجوارها ويشير أثناء تحدّثه.

«ما الذي يحدث؟» استحثّ دود خطواته. «أسرع إلى هناك»، قال لي، وبدأت على الفور، في الإسراع في سيري. ثم رأيت حنة تبتسم في حيوية، فأبطأت من سرعتي. كانت واقفة هي والشاب أمام صف هائل من أشجار الأوركيد العنكبوتية ذات اللون البني.

«آه! ظننت أننا قد فقدناك»، قلت.

«انظر إلى هذه الأوركيدات. أليست رائعة؟»

اقترب دود، وأومأ إلى الشاب، وراح يتفحص الأزهار المعروضة.

«إنها تبدو لي مثل الكرنب ذي الرائحة الكريهة»، أعلن.

انفجر الشاب في ضحك مفرط. فحدّق فيه دود.

«هذا الشاب كان يخبرني بتاريخ الحديقة»، بدأت حنة في سرعة. «وعن الموطن الأصلي للنباتات، وكيف جاءت في النهاية لتغرس هنا. إنه موضوع شيق».

ابتسم الشاب السريلانكي بفخر. كان يرتدي «فانيلة» بيضاء من نسيج صوفي ناعم وسترة قرمزية، وكان شعره الأسود الناعم يصدر في ضوء الشمس لونا أزرق لامعا كالمعدن.

من عادتي أن أتبع منهجا محددا أصر عليه بالبعد عن الشخص الذي لا أعرفه والذي يحاول إشراكي في محادثة. في هذه المرة كان الأوان قد تأخر كثيرا، وبتشجيع من حنة،

كان الغريب يمشي بجوارها، ونحن عائدون إلى المسار الرئيس. تبادلنا أنا ودود النظرات السريعة، وهز الأكتاف، ثم بدأنا نواصل التقدم وراءهما.

في مكان ما إلى أعلى في نهاية الحداثق بنيت مقصورة أسفل أشجار المطر العالية. وكان يستلقي في شرفتها قليل من الرجال في أردية السارونغ(*) فوق الكراسي الطويلة. توقف الشاب عن السير. «أدعوكم الآن إلى بيرة الزنجبيل الباردة».

«آه»، قالت حنة، في حيرة. «حسنًا، نعم. سيكون هذا لطيفا. سأرحب بالفرصة لكي أجلس».

نظر دود إلى ساعة يده. «أعتذر عن عدم تناول البيرة، لكنني سأجلس وأشاهدكم».

جلسنا نتطلع إلى الخضرة الوارفة. وكان الشاب في حديثه يقفز من موضوع إلى آخر؛ وقد بدا غير قادر على متابعة أي خيط أفكار إلى أبعد من البداية. اعتبرت هذا عيبا فيه، وحاولت أن أدرك من نبرات صوت حنة إن كانت قد وجدت مريكا كما وجدتة أنا.

لم يكن دود منصتا، فقد وجد حرارة الجو في سيلان شنيعة في هذه الأرض المنخفضة. وكان من السهل رؤية أنه كان متعبا. اعتقدت أنني ربما أفلح في التغطية على ثثرة الشاب، فاستدرت إلى دود وبدأت التحدث معه تقريبا في أي شيء كان يخطر ببالي: إحياء صنع الأقنعة في أمبالانجودا، ورقصة الشيطان، والتكرار المتزايد للجريمة بين الصيادين المتحولين إلى الكاثوليكية. كان

(*) اللباس الرئيس لكلا الجنسين في أرخبيل الملايو، ويتألف من قطعة قماش تغطي الجزء الأدنى من الجسم على شكل تنورة [الترجم].

دود منصتا، لكن لم يصدر عنه ما هو أكثر من تحريك رأسه من وقت إلى آخر ليجيب.

فجأة سمعت الشاب يقول لحنة: «عندي البيت المناسب لك بالضبط. المصادفة السعيدة أرسلتني لألبي لك مطالبك. إنه بيت هادئ تماما وآمن».

ضحكت ثم قالت: «شكرا، كلا! نحن لا نبحث عن منزل، سنكون هنا لأسابيع قليلة أخرى فقط».

نظرت إليها بشدة، على أمل أن تلتقط نظرتي السريعة كتحذير ضد التماادي فيما هو أكثر من هذا، وكى لا تذكر اسم المكان الذي كانت تقيم فيه. لم يكن الشاب منتبها، على أي حال. «مضبوط تماما. أنت لن تشتري أي منازل. لكن يجدر بك أن تريه وتخبري أصدقاءك عنه. إنه استثمار ممتاز إلى حد بعيد، ليس ثمة شك في ذلك. هل لي أن أعرفك بنفسى، من فضلك؟ اسمى «جستس جونزاج»، أصدقائى ينادوننى سونى».

ابتسامته، التى لم تكن ابتسامة على الإطلاق، أعطتني إحساسا عصبيا غير مريح.

«هيا بنا على كل حال. خمس دقائق مشيا، أنا أضمن لك هذا». نظر إلى حنة بصورة متفحصة. «أعترم إعطائك ديوان شعر لى، سأوقعه لك باسمك. سيجعلنى ذلك سعيد جدا».

«آه»، قالت حنة، بملاحظة هلع فى صوتها. ثم استجمعت قواها وابتسمت. «سيكون هذا جميلا. لكنك تفهم، لا يمكننا البقاء هناك أكثر من دقيقة».

كان هناك صمت، ثم سأل دود بحزن: «ألا يمكننا الذهاب بالسيارة، على الأقل؟»

«مستحيل، يا سيدي إن شارعنا ضيق جداً، لا يمكن للسيارة أن تسير فيه. سأسوي الأمر في لمح البصر»، ثم صاح الشاب منادياً، فحضر النادل، وظل يتحدث معه بالسيرلانكية بعض الوقت، ثم أوماً الرجل وذهب إلى الداخل. «سيارتك سيحضرها سائقك الآن إلى هذه البوابة، على مسافة قريبة جداً من هنا». كان هذا مجاوزاً للحد قليلاً. سألته كيف يعتقد أن أي شخص قادر على معرفة أي سيارة كانت لنا.

«ليست في ذلك مشكلة. كنت موجوداً عندما كنتم تغادرون السيارة البونتيك. سائقك يدعى ويكراماسينج، ويقطن في آخر البلدة. إنه موضع ثقة. الناس هنا لا يعول عليهم كثيراً». في كل مرة تحدث فيها كنت أكرهه أكثر. «أنت لست من أهل المكان هنا؟» سألته.

«لا، لا! أنا شاب من كولومبو(*)، هؤلاء الناس أوغاد بشكل لا يصدق. كل واحد من الأشقياء الملاحين لديه سكين في حزامه، ذلك من المؤكد».

عندما أحضر الجرسون الحساب، وقّعه سريعاً في زهو وتباه ثم نهض. «هل لنا أن نمضي إلى المنزل، إذن؟».

لم يجب أحد، لكننا نهضنا نحن الثلاثة ومضيئنا معه على مضض في اتجاه بوابة الخروج. كانت السيارة الأجرة هناك؛ حيناً السيد ويكراماسينج من خلف عجلة القيادة.

(*) ميناء وعاصمة سريلانكا وتقع في الغرب منها على الساحل [الترجم].

كانت حرارة العصر قد تلاشت، تاركة فقط زقاقا هنا أو هناك تحت الأشجار حيث كان الهواء ساكنا. مبدئيا، كانت الحارة التي اخترقناها واسعة بقدر كاف لاستيعاب العربات التي تجرها الثيران، لكن النبات الناتئ من كلا الجانبين جعلها أكثر ضيقا من ممر للسير على الأقدام.

في نهاية الحارة كان هناك قائمان من الخرسانة من دون بوابة. مررنا خلالهما، ودخلنا في مساحة واسعة من الأرض تكتنفها من الجانبين إسطبلات مهدمة. باستثناء جناح عبارة عن امتداد جانبي اتخذ شكل زاوية قائمة، كان البيت بأكمله مخفيا بأحراش عالية وآجام مزهرة. عندما بلغنا المدخل توقف الشاب واستدار إلينا، رافعا أحد أصابعه. «لا توجد ضوضاء هنا، أليس كذلك؟ طيور فقط».

بعد ساعة ستبدأ الطيور في الاستيقاظ من سبات فترة النهار. صدر صوت تغريد غير معروف من الأشجار. خفض إصبعه واستدار إلى الباب. «إنها تغني في الصباح. أما الآن، فلا». «آه، هذا جميل»، قالت له حنة.

قادنا عبر مجموعة حجرات فارغة مظلمة. «هنا كان الرجل المختص بغسل الملابس (الدوبي) يغسل الملابس المتسخة بالأتربة والطين. هذا هو المطبخ، هل ترين؟ على الطراز السريلانكي، يعمل بالفحم النباتي فقط، فقد كان أبي يرفض كلا من الكيوسين والغاز، حتى عندما كنا في كولومبو».

تكوننا في ممر قصير بينما كان يفتح الباب. مد الشاب يده، فغمر المكان في الداخل ضوء ساطع. كانت غرفة صغيرة،

صنعت لتبدو أصغر بطلاء الحوائط والسقف بلون قرمزي لامع. المكان كله تقريبا كان يحتله سرير كبير بمفرش ستاني أحمر قان نوعا ما، مع صف من الكراسي المستقيمة الظهر، المرصوفة بطول أحد الحوائط. «اجلسوا وكونوا على راحتكم»، نصحننا مضيفنا.

جلسنا نحدق في السرير والصور الثلاث التي وضعت داخل إطارات على الحائط فوق رأس السرير، الذي كان من القضبان النحاسية: على اليسار صورة فتاة، وفي الوسط صورة مضيفنا، وعلى اليمين صورة شاب آخر. كانت اللوحات باهتة وعلى درجة من عدم الدقة كصور جوازات السفر التي جرى تكبيرها عدة مرات ضعف حجمها الأصلي.

سعلت حنة. لم يكن لديها شيء لتقوله. كانت الغرفة تبعث برائحة زاعقة ثقيلة لبخور قديم، كما هي الحال في كنيسة صغيرة مهجورة. إحساس العبث الذي انتابني لرؤيتنا جالسين هناك جنبا إلى جنب، محشورين في الوسط بين السرير والحائط، كان قويا جدا إلى درجة أنه باختصار أوقف كل عملياتي العقلية. كان الشاب هذه المرة هادئا، جلس متصليا، وراح ينظر إلى الأمام مباشرة، مثل متفرج في مسرح.

في النهاية كان عليّ أن أقول شيئا. تحولت إلى مضيفنا وسألته إن كان ينام في هذه الغرفة. بدا السؤال صادما له. «هنا؟» صرخ، كما لو كان الأمر مستحيلا. «لا. لا! هذا البيت شاغر. لا أحد ينام في المنزل أو ملحقاته. فقط رجل بدين يحرس في الليل. أستأذنك للحظة واحدة».

قفز عن كرسيه وأسرع إلى خارج الحجرة. سمعنا صدى خطواته في المرثم تزايد الصمت. وهناك من مكان ما في البيت جاء صوت رنين دقات ساعة من الساعات الكبيرة التي توضع في إطار خشبي فوق الأرض، وكان صوتها الهادئ قد جعل الغرفة الصغيرة ذات اللون الأحمر القاني اللامع أكثر عزلة وغير محببة.

تقلقل دود في غير راحة فوق كرسيه، كان السرير قريباً جداً منه مما أعاقه عن تمديد ساقيه. «بمجرد عودته، نذهب»، قالها وهو يبرطم. «إنه يبحث عن الديوان، على ما أظن»، قالت حنة. انتظرنا فترة. ثم قلت: «انظرا، إذا لم يعد في غضون دقيقتين، أقترح أن نهض ونصرف مباشرة. بإمكاننا الاهتداء إلى طريقنا إلى الخارج من دون عناء».

اعترضت حنة، قائلة إن هذا سيكون من غير اللائق ولا يمكن اغتفاره.

جلسنا في صمت مرة ثانية، كان دود يقي عينيه من الضوء الساطع. عندما عاد سوني جونزاج، كان يحمل كوباً من الماء بينما وقف يشرب في المدخل. تبدلت تعبيرات وجهه، بدا مشغول البال، وكان يتنفس بصعوبة.

نهضنا ببطء، وكانت حنة لاتزال تنتظر في ترقب.

«سنذهب نحن، إذن؟ تعالوا». أطفأ الأنوار والكوب الفارغ لا يزال في يده، وأغلق الباب خلفنا، ثم فتح باباً آخر، وقادنا بسرعة خلال غرفة فخمة مؤثثة بأرائك كبيرة، وبارافانات من الكروماندل(*) وتماثيل برونزية لبوذا. لم يكن عندنا وقت لإلقاء

(*) الأعمال التي تطلى بالورنيش اللامع وكانت شائعة في بريطانيا ١٧٠٠م، وكانت مزينة بنقوش وتصميمات مطلية بالذهب والألوان [المترجم].

أكثر من لمحة من جانب إلى آخر بينما كنا نتبعه. عندما خرجنا عبر الباب الرئيس، نادى على شخص في مؤخرة المنزل ولكنه متعجرفة، على الأرجح كانت موجهة إلى الحارس.

في هذا الجانب كانت هناك مساحة واسعة من شجيرات ونجيل مهمل غير مشذب، حيث مجموعة قليلة من آجام نخيل الأريكة تتجه ببطء نحو الاختناق بأغلفة جذور وأوراق الفيلوديندرون التي غطت جذوعها. بسطت النباتات المتسلقة نفسها على نحو بغيض فوق قمم الشجيرات مثل خيوط شبكات عنكبوت ضخمة. كنت أعرف أن حنة تفكر في الثعابين. أبقى عينها في الأرض، وهي تخطو بحذر من لوح حجري إلى آخر بينما كنا نعبر مدخل البيت الذي ينحني على نحو متواصل حول الإسطبلات، ومن ثم إلى الخارج في الحارة.

نزل الشفق اللطيف سريعا. لم يكن أحد راغبا في التحدث. عندما وصلنا إلى السيارة كان السيد وكراماسينج واقفا بجوارها.

«وداعا، إذن، وأخبروا أصدقاءكم أن يبحثوا عن سوني جونزاج عندما يأتون إلى جينتوتا»، ومد يده إلى دود أولا، ثم أنا، وفي النهاية إلى حنة، ثم انصرف.

كان الاثنان هادئين جدا في طريق العودة إلى جالي (*). كان الطريق ضيقا وأزعجتهم الأضواء الشديدة للسيارات القادمة من أمامنا. وفي أثناء العشاء لم نأت على ذكر ما حدث في فترة بعد الظهر.

(*) ميناء في جنوب غرب سريلانكا [المترجم].

عندما كنا نتناول إفطارنا في اليوم التالي، في الشرفة التي كان يجتاحها نسيم الصباح، شعرنا بأننا بعيدون بشكل كاف عن التجربة بما يسمح بمناقشتها. قالت حنة: «ظلت مستيقظة طوال الليل وأنا أرى ذلك السرير الفظيع». تأوه دود.

قلت إن الأمر كان مثل مشاهدة التلفزيون لكن من دون صوت. حيث بإمكانك أن تشاهد كل شيء، لكنك لا تستطيع أن تفهم ما الذي يحدث. «كان الطفل معتوها تماما. يمكنك أن تكتشف ذلك على بعد ميل»، صرح دود.

لم تكن حنة منصتة. «لا بد أنه كانت هناك حجرة للخدم. لكن لماذا لم يأخذنا إلى هناك؟ أنا لا أعرف؛ شيء ما محبط للغاية في ما يتعلق بالأمر برمته. إنه يجعلني أشعر ببعض السأم بمجرد التفكير فيه، وذلك السرير!»

«حسنًا، كفى تفكيرًا في ما حدث، إذن!» قال لها دود. «أنا عن نفسي سأخرجه من رأسي تمامًا». ثم ظل صامتًا برهة. وقال «إنني أشعر بتحسّن بالفعل. أليست هذه هي الطريقة التي يسلكها البوذيون؟»

استمرت الإجازة المشمسة أسابيع قليلة أكثر، في رحلات أطول إلى الشرق، حيث «تيساماهرانا» والأفيال البرية في «محمية يالا». لم نذهب إلى كولومبو مرة ثانية إلى أن حان الوقت المناسب لي لوضعهما على متن الطائرة.

الطقس شبه المظلم للرياح الموسمية كان يعصف من جهة الجنوب الغربي بينما كنا نسير بطول الساحل. كان هناك المطر ينهمر بشدة عندما وصلنا في منتصف فترة العصر إلى «جبل لافينيا» الساحلي، وحجزنا غرفا لنا. كان صوت تكسر الأمواج خارج غرفتي عاليا جدا إلى درجة أن دود أغلق النوافذ لنسمع ما كنا نقوله.

انتهزت فرصة الرحلة إلى كولومبو لترتيب محادثة مع المحامي الخاص بي، إنه هندي يتحدث التيلجو(*) . كان علينا الالتقاء في بار في «جاليفيس»، على مسافة بضعة أميال أعلى الساحل. قلت لحنة «سأعود في السادسة». كان المطر قد خفّ بعض الشيء عندما مضيت إلى الخارج.

تحركت الرياح المحملة بالرطوبة خلال بهو جاليفيس، لكن الهواء المعبق بالدخان الكثيف داخل البار كان يتحرك فقط تحركا خفيفا عن طريق المراوح. عندما دخلت، كان أول شخص ألاحظه هو ويستون الذي يعمل في «بنك تشارترد». لم يكن المحامي قد وصل بعد، لذا وقفت عند البار مع ويستون وطلبت شرابا. «هل أنت الذي رأيته في جينتوتا في حلبة السباق الشهر الماضي. مع زوجين من العجائز؟».

«كنت بصحبة أبي وأمي. لم ألاحظك».

«لم يكن باستطاعتي التحدث إليك. كانت المسافة بعيدة جدا جدا. لكنني رأيت الثلاثة أنفسهم في ما بعد مع شخص من أهل البلد. ما الذي تعرفه عن سوني جونزاج؟».

(*) لغة في جنوب شرق الهند وجزيرة سيلان [المترجم].

ضحكت أنا. «لقد استدرجنا إلى بيته».

«هل تعرف القصة؟ إنني ملم بها».

هزرت رأسي نافيا.

القصة التي وجد لذة في روايتها، بدأت في اليوم التالي لعرس جونزاج، عندما مضى إلى حجرة الخدم ووجد عروسه في السرير مع الصديق الذي كان إشبيناً له في حفل الزفاف. كيف حدث أن حصل على مسدس معه؟ كان ذلك أمراً غير واضح، لكنه أطلق النار على كل منهما في الوجه، وبعد ذلك قطع جسديهما إلى قطع صغيرة. ثم علّق ويستون قائلاً: «ذلك النوع من الأمور ليس شديد الغرابة، بل هو شائع، بالطبع. لكنها المحاكمة هي التي تسببت في هذه الفضيحة. قضى جونزاج أسابيع قليلة في مستشفى الأمراض العقلية ثم أطلق سراحه».

«بإمكانك أن تتخيل»، قال ويستون. «الإثارة السياسية. يذهب الفقير إلى السجن بسبب حفنة أرز، لكن الغني يمكن أن يقتل الآخرين من دون عقاب، إلى غير ذلك النوع من الأمور. لانزال نطالع إشارات إلى الحادثة في الصحافة من وقت إلى آخر».

كنت أفكر في اللون القرمزي الزاهي وحدائق النباتات. «لا. لم أسمع عنها أبداً»، قلت.

«لقد أصابته لوثة عقلية، لكن هاهو، حرفي أن يفعل أي شيء يعن له. وكل ما يرغب فيه في ذلك الوقت هو إقناع أكبر عدد ممكن من الناس بالدخول إلى ذلك البيت وإطلاعهم على الحجرة حيث وقع هناك الحدث العظيم. وهو الشيء الأكثر مرحاً في اعتقاده».

رأيت الهندي يدخل إلى البار. «إنها قصة لا تصدق، لكنني أصدقها»، قلت لويستون.

ثم استدرت لتحية المحامي، الذي اشتكى على الفور من الهواء الراكد داخل البار. جلسنا وتحدثنا في الردهة.

تمكنت من الرجوع إلى «جبل لافينيا» في الوقت المناسب للاستحمام قبل العشاء. بينما كنت مستلقيا في الماء الفاتر، حاولت تخيل ردود أفعال حنة ودود عندما أخبرهما بما سمعته. عن نفسي شعرت برضى حقيقي لمعرفة بقية القصة. لكن لكونهما عجوزين، قد يطيلان التفكير فيها، ويقومان بتطويرها بعد ذلك إلى حد كرهه جدا في محادثة تلطخ ذكرى إجازتهما. لم أكن قد قررت بعد إن كنت سأخبرهما أم لا عندما ذهبت إلى حجرتهما لاصطحابهما إلى العشاء في الطابق الأسفل.

جلسنا بعيدا عن الموسيقى قدر استطاعتنا. كانت حنة مرتدية ملابسها بشكل أقل أناقة عن المعتاد، وكان الاثنان يتحدثان بحيوية ونشاط أكثر من المعتاد. أدركت أنهما كانا سعيدين بقرب عودتهما إلى نيويورك. في منتصف الوجبة بدأ في استعراض ما اعتبراه أهم ما شاهداه في زيارتهما. ذكرا معبد «توث»، وشبلي نمر البنغال في «ديهيوالا» اللذين كانا أليفين مستأنسين لكنهما تحسرا على امتناعهما عن شرائهما، وكذلك العشاء الإندونيسي في حديقة «السيد بلتجينز»، حيث وثب طائر المينة(*) فوق حنة، وقال: «كليه كله من دون إبطاء»، وأيضا الكوبرا التي كانت أسفل الأريكة في حفلة شاي «السيدة دي سيلفا».

(*) أي طائر من الطيور الآسيوية من فصيلة الزرزور وبصفة خاصة تلك التي لديها القدرة على محاكاة الكلام [الترجم].

«وذلك الشاب الغريب الأطوار في المنزل الغريب الشاذ»،
أضافت حنة بتأمل.

«أي واحد كان ذلك؟» سأل دود، في تجهم بينما كان يحاول التذكر. ثم استطاع تذكره. «آه، يا الله»، برطم. «صديقك المميز». ثم التفت إليّ قائلاً، «بإمكان أمك انتقاؤهم بكل تأكيد». كان المحيط يهدر في الخارج. بدت حنة غارقة في التفكير. «أنا أعرف ما الذي كان عليه الأمر!» صاحت حنة فجأة. «كانت زيارتنا إلى بيته مثل مشاهدتنا عن قرب لأحد المعابد بصحبة أحد الرهبان البوذيين(*)». أليس هذا هو ما يطلقونه عليهم؟. استنشق دود مزيداً من الهواء. «معبد ما والسلام!» ضحك. «لا، أنا جادة. كان لتلك الحجرة معنى خاص بالنسبة إليه. كانت بمنزلة المزار المقدس عنده».

نظرت إليها. لقد تمكنت من الوصول إلى لب الموضوع من دون حاجة إلى الخوض في التفاصيل. «شعرت بهذا، أنا أيضاً». قلت. «لكن بالطبع، ليس هناك طريق لمعرفة هذا».

(*) ذكرت كلمة ذات أصل سنسكريتي [المترجم].

كلمات غير مستحبة

(١)

أنا سعيد لأنك رددت على خطابي من البحر، على الرغم من شعوري بالأسف لأنني أرى في كلماتك الظن أنني أفكر فيك فقط بوصفك شخصا حبيس حجرته. أو هل قيل ذلك لمجرد أن جعلتني أشعر بالذنب لبقائي بعيدا متقلبا؟

بدأت الأسعار بالطبع في الارتفاع هنا منذ فترة طويلة قبل الابتزاز الدولي في البترول في سنوات السبعينيات. رأيناها ترتفع قبل ذلك، وكنا نظن دائما أنه لن يمكنها الارتفاع أكثر من هذا. كل شيء ارتفع ثمنه خمسة أضعاف عما كان عليه منذ عشر سنوات. ولأنه قد مُنع الاستيراد في عام ١٩٦٥، أصبحت لدينا بدلا من السلع المستوردة بضائع مهربة، تلك التي كانت تجذب الناس من أي مكان لأن يدفعوا مقابلها. أظن أنه يجب على المرء أن يتذكر أن الأسعار هنا كانت منخفضة بشكل غير معقول في سنوات الثلاثينيات والأربعينيات، على الرغم من إمكان استمرارها في الارتفاع بشكل غير محدد تقريبا قبل أن تكون مساوية لمثيلاتها في أوروبا وأمريكا. ثم جاء تضخم البترول، حتى أنها لاتزال تواصل ارتفاعها، ومع ذلك فهي لاتزال أقل انخفاضا عن دول أخرى.

بعد الاستقلال بخمس سنوات أو نحو ذلك كان كريستوفر يتحدث مع رجل عجوز من البربر في مكان ما في الجنوب، وفي وسط حديث عام مال الرجل العجوز عليه وقال له سرا: «قل لي إلى متى سيستمر هذا الاستقلال؟».

أتذكر أنني في سنة ١٩٤٧ أرسلت في طلب مبلغ ألف دولار من نيويورك. إذا كان يهملك أن تتذكر، كان ذلك المبلغ في تلك الأيام كافيا للعيش لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر، على الأقل هنا. لم يتسلم البنك النقود التي كان من المفترض أنها قد أرسلت إليه، لكنهم نصحوني بمراجعة جميع البنوك الأخرى الموجودة في البلدة. وكان هناك ما يزيد على أربعين بنكاً منها في ذلك الوقت. وقد راجعت بنكين أو ثلاثة يومياً؛ ولم يعرف أحد شيئاً. مر شهر ومازلت لم أحصل على نقودي بعد. اقترحت عليّ المفوضية الأمريكية أن أذهب إلى البنك الأول وأطالب بها، وفي الوقت نفسه أن ألح في كلامي معهم إلى أن الوزير المفوض الأمريكي سيتخذ الخطوات اللازمة إذا فشلوا في العثور عليها. كانت النتيجة كالسحر: ذهب الكاتب مباشرة إلى دولا ب الملفات وأخرج منه الشيك. لكنني دائماً ما كنت أتساءل عما كانوا يأملون في كسبه من جراء تأخير طوال تلك المدة الطويلة. فقد بدت لي وقتها فترة طويلة جداً، وكنت مستاء لذلك. أصبحت الأمور الآن أكثر سوءاً. فالنقد الأجنبي كله الذي يأتي إلى البلدة يودع في سلة عملات مشتركة في الدار البيضاء ويحتفظ به هناك حتى يربح نسبة الفوائد من هؤلاء الذين يقترضونه، وبوجه عام تزيد الفترة على ثلاثة أشهر. في النهاية يظهر المبلغ في كشف حساب رصيدك في البنك، وبأقل سعر تحويل ممكن له خلال كل هذه الفترة. من المفهوم تماماً بشكل واضح أن الحرب كانت دائرة وأن نفقاتها كانت مرتفعة، لكن ذلك لا يقلل من شأن مشكلة هذا الإجحاف المزعج. ربما نحن محظوظون لعدم اضطرارنا إلى

دفع ضريبة خاصة بالحرب، والله أعلم، ربما يحدث هذا الآن. يكفي ما في اليوم من شرور.

تسأل عن أخباري: حياتي اليومية، وما أفكر فيه، وآرائي في الأحداث الخارجية. كل شيء سيكون في وقته المناسب، إذا كان في وسعي تناول كل هذا. لكن ما يحدث هنا في هذه المدينة أشد وطأة بكثير مما نسمع به من الخارج. هناك الكثير من الجرائم، لكن يبدو أنه في كل سنة لدينا جريمة قتل بذاتها هي التي تشغل اهتمام الجميع على حد سواء ولكن لأسباب مختلفة من دون شك.

على سبيل المثال، منذ عامين، بينما كان العمال مازالوا يعملون في بناء مسجد جديد في المنطقة الواقعة بين المكان هنا و«بلاس دي فرانس»، اعتادت امرأة عجوز على الظهور من مبنى على الجانب الآخر من الشارع، وهي تحمل إبريقين من الشاي والقهوة للرجال. كانت تأتي في الصباح الباكر، قبل شروق الشمس، عندما يكون الهواء لا يزال بارداً، والعمال في انتظار متلهف لوصولها. وفي أحد الأيام لم تظهر المرأة، وفي وقت لاحق من اليوم نفسه قيل إنها قد قتلت في سريرها. تمكن شخص ما من تسلق نافذتها ودخل إلى شقتها، وقبل أن يغادر الشقة قطع رقبتها بتدبر وحذر. كان قد توقع العثور على المال المخبأ - حيث افترض، لكون المرأة يهودية، أنه من الطبيعي أن يعثر على الخبيثة في مكان ما - لكن لأنها كانت تعيش في حالة من الفقر الشديد، لم يعثر على شيء سوى راديو ترانزيستور بلاستيك أزرق، فأخذه. بعد ذلك، على الرغم من أن العمال

لم يعودوا يحصلون على المزيد من الشاي والقهوة، فإنهم كانوا يستمعون للموسيقى عبر الراديو الترانزيستور الأزرق، لكن ذلك كان لأيام قليلة فقط. فقد لاحظت جارة المرأة المقتولة الراديو هناك بين أكوام البلاط، وكانت متأكدة تماما من تعرفها عليه إلى درجة أنها أعطت أوصافه إلى شرطي في الشارع. لذلك تمكنوا بالطبع من الإمساك بالعامل، الذي قال إنه لم يكن من الممكن أن يقطع رقبة اليهودية العجوز لو كان يعرف كم هي فقيرة!

ثم كانت هناك قضية أخرى في العام الماضي، تخص عجوزين أمريكيين - لا أعتقد أنك قد سبقت لك معرفتهما - كانا يعيشان في بيت صغير في أعلى «الجبل القديم»، في أقصى نهاية الطريق البحري، حيث ينعطف إلى بقايا الطريق الروماني. كانا منعزلين هناك بمعنى الكلمة، من دون هاتف أو بيت آخر في الجوار على مرمى البصر. لذلك بعد عدة سنوات من العيش هناك في سلام وأمان، هوجما بغتة. كان الزوج في الحديقة عند حافة الغابات، يملأ إحدى القنوات بالمياه. فقتله المهاجمون ودفعوا برأسه في القناة. رأت الزوجة كل شيء عبر النافذة قبل أن يتمكنوا من الدخول إلى البيت وضربها، محاولين إجبارها على أن تخبرهم بالمكان الذي كان المال مخبأ فيه، كان هذان الاثنان مفلسين، ويعيشان على كوبونات الضمان الاجتماعي، لم يكن هناك مال، لذا بعدما أنزلوا المزيد من الضربات في وجه المرأة، مضوا في طريقهم. مات الزوج ونجت الزوجة. كان هذا الحادث بمنزلة إنذار للأوروبيين الذين يعيشون في طريق الجبل القديم، فجميعهم لديهم ممتلكات هناك، وتحرس بالفعل من قبل

حراس مقيمين. وقد اختار اللصوص الزوجين العجوزين على وجه التحديد لأنهما لم تكن لديهما حراسة، وبالطبع لم يحصلوا على شيء على الإطلاق من هجومهم هذا. رددت الشائعات أن المجرمين قد ألقى القبض عليهم بعد شهرين تقريبا. وأنهم كانوا جزءا من عصابة كانت تعيش في كهف على الساحل ناحية الغرب. لكن من يدري ما الحقيقة؟ إن هذه الأشياء تؤخذ بجدية وعلى محمل الخطر من جانب الأوروبيين المقيمين في البلدة أكثر من وفرة الطعام والشغب والمعارك والقتال مع من يسمون بالبوليساريو في الصحراء الكبرى. عقلية مائدة البريديج، إذا كنت ستعذر سوء تعبيرى هذا. على أي حال، هذا هو كل ما عليه الأمر في الوقت الراهن.

(٢)

حسن أننا عدنا إلى الاتصال مجددا. أنت مخطئ، فأنا أتذكر المرة الأخيرة التي رأى فيها أحدنا الآخر. كنت تعيش في تلك الشقة المجنونة فوق سطح القلعة، وكانت هناك رياح فظيعة تهب من الميناء. كان لديك عدد قليل من الناس على العشاء، وأتذكر أن الباب المطل على السطح كان ينفتح وأن الريح كانت تهب عبر الشقة بأكملها، إلى درجة أن الجميع كانوا يصرخون: أغلق الباب! لا أعرف في أي سنة كان هذا على وجه التحديد، لأن الحدث يبدو أنه ليست له علاقة بالسياق الزمني. النقطة التفصيلية الوحيدة الأخرى التي أتذكرها هي أنك لم يكن في استطاعتك قراءة أي شيء كتب

بعد القرن الثامن عشر. وأنني تقبلت ذلك على أنه خصوصية شخصية، ومنذ ذلك الوقت وأنا أفكر في الأمر، وأتساءل في تعجب إلى أي مدى هذا النقد القاسي والتضييق المفروض ذاتيا منك سليم بالنسبة إلى مؤلف ينتمي إلى القرن العشرين. هل عدم قراءتك لأي كتابات معاصرة على الإطلاق محاولة للهروب من احتمال تأثيرها الضار، أم أن أي تواصل مع الأدب الحديث أو المعاصر منفر بالنسبة إليك لأنه يوحي بالمنافسة؟ تظل بالطبع أسبابك الخاصة المتعلقة باستبعاد كتابات القرن التاسع عشر غامضة على أي حال. على الرغم من أنني لا يمكنني في الموسيقى الإدلاء بسهولة بتصريح شامل مشابه لتصريحك، يحط من شأن جميع موسيقى القرن التاسع عشر. إن ذلك النوع من التعميم غير مثمر على الإطلاق، إنه يبدو لي كذلك، وأتعجب كيف تتمسك به بشكل محكم وصارم وكأنه قول مأثور أو مثل تتبناه.

لم أكن متأكدا حتى منتصف هذا اليوم من مكان وجودك في أثناء الخمس عشرة سنة الماضية أو نحو ذلك. سمعت عن طريق آخرين أنك كنت تعيش في هونج كونج، وطوكيو وحتى في ماليزيا. كانت هناك بلدة في ماليزيا قالوا إنك كنت مغرما بها، لكنني لا يمكنني تذكر اسمها. تقع على الساحل الشرقي، بعيدة بعض الشيء في الشمال. بمجرد إقلاعك عن عادة الكتابة لي، لم يعد في مقدورك معرفة أين تكتب، الأمر الذي أفهمه وأستوعبه، فالعذر منطبق تماما وبقوة أكثر على شخصي، لأنك لم يكن لديك مسكن ثابت، في حين كان لدي مسكن ثابت دائما.

لست في حاجة إلى أن أسألك إن كنت تتذكر «بيتي وأليس هووي»، نظرا إلى أنهما كانا رفيقك في لعبتي البرديج والكاناستا(*)، بالإضافة إلى جميع السكان الآخرين الأجانب الذين كنت أتجنب أنا معرفتهم. مات كلاهما منذ عشرة أيام أو نحو ذلك؛ من يعرف السبب؟ هو أولا، ثم هي بعد عدة أيام. «سمينا» «مقتتعة» بأن «بيتي» قتلت نفسها لكيلا تضطر إلى الذهاب في أثناء جنازة «أليس». من الممكن أن تكون هي على صواب؛ لم أعرف أبدا السيد والسيدة هووي إلا في الحفلات والسوق. لا يخامرني شك في أنك ستتحسر على رحيلهما.

وبالطبع هناك «فالييسكا» الرائعة. لقد عادت إلى هنا عدة مرات منذ أن سافرت أنت، على الرغم من أنها لم تعد خلال السنوات الخمس الماضية أو نحو ذلك. كان عبد الواحد يكن كراهية قوية لها، لأنها بشكل رئيسي رفضت بثبات وفي قوة أن تجلس في المقعد الأمامي في السيارة المستأنج، على الرغم من أنه كان المقعد الوحيد المريح في السيارة. إصرارها على الركوب في الخلف أغضبته وضايقه، نظرا إلى أنه افترض، وربما هو على حق تماما، أنها أرادت أن توضح للناس بشكل جلي أنه كان السائق. هذه الكراهية أو البغضاء جعلت من السهل عليه في الأساس انتقاد النواحي الأخرى في سلوكها. وهو ما كان يقوله لي باستمرار، لكن ليس لها بالطبع. ثم في يوم ما واثته الفرصة فانطلق واستغلها. وكانت النتيجة على

(*) لعبة من ألعاب الورق [المترجم].

درجة من الجنون إلى درجة أنني لم يكن في إمكاني توبيخه بعد ذلك كما كان ينبغي عليّ أن أفعل.

في تلك الأيام عندما كنت أذهب لإحضار فاليسكا من الفندق كانت دائماً ما تجلس إلى مائدة في البهو، وهي تقرأ، أو تحل الكلمات المتقاطعة أو أي شيء كان، المهم أن تكون مشغولة جداً. كان عبد الواحد يقود السيارة حتى مقدمة الدرج مباشرة لذلك لم يكن في وسعها أن ترانا، وكانت دائماً ما تلقي بلمحة خاطفة بين الحين والآخر، حتى تتيقن تماماً من رؤيتها لنا. لسبب ما لم يكن في مقدوري أن أفهم جيداً لماذا لم تكن تتزحزح أبداً من مكانها حتى أنزل أنا من السيارة وأصل إلى البهو وأجتازه ثم أقف على مسافة قدم من طاولتها. كان هذا بمنزلة طقس شعائري. وفي أحد الأيام بقيت في البيت وأرسلت إليها عبد الواحد، وعندما رآته يصل إلى البهو قفزت إلى أعلى وتبعته إلى السيارة، وفق ما قال، وهي تسأله مراراً وتكراراً: «أين بول؟ أين بول؟».

في تلك اللحظة كان يجب أن يحضر الشيطان ويدفع عبد الواحد إلى النظر إلى الأرض وإلى أن يقول لها في حزن: «لقد مات بول». سيكون في إمكانك أن تتخيل الصرخات والصيحات التي نتجت من هذا التصريح. ساعدها عبد الواحد على ركوب السيارة ثم انطلق بها إلى «الإيتيسا»^(*). كما تعرف، إنه لا يتحدث الإنجليزية، لكنه كان يعرف ما يكفي من الكلمات لينقل إليها أنني كنت ممدداً على الأرض، وأن الناس كانوا يقفون متحلقين من حولي وهم ينظرون إليّ.

(*) اسم البناية التي كان بول بولز يسكن في الطابق الرابع منها هو وزوجته جين في طنجة [المترجم].

قال ذلك لها بينما كانا في طريقهما إلى «ساحة الكويت»، ثم صاحت فاليسكا فجأة: «آه يا للمسيح! إن كاميرتي في الفندق. لا تشغل بالك. استمر في طريقك».

كانت في حالة هستيرية بكل معنى الكلمة عندما رأتي سليما معافى، وفكرت أنا: هذا كثير جدا، ورأيتني أصطحبها إلى الطبيب النفسي في «بني ماكادا». وفي تلك الأثناء كانت تتلوى وتصرخ في عبد الواحد قائلة: «يا ابن العاهرة!».

لا أعتقد أنها ستسامحه أبدا على مزحته هذه، لكنه لا يزال مبتهجا حتى الآن كلما تذكرها. وكما قلت لك، لم يكن في إمكاني أن أقدم على انتقاده، نظرا إلى أنه من زاوية معينة قد فعل ذلك من أجلي، اعتقادا منه أن سلوكها قد يتغير نتيجة لذلك. لكن بالطبع لم يتغير شيء، واعتبرته هي مجرد تصرف عشوائي من عربي مجنون كان متشوقا لمعرفة رد فعلها.

إنهم يقومون ببناء فيلات رائعة فخمة في جميع الأنحاء من حولي. مبنية بطريقة جيدة لكنها بشعة، تبدو مثل صناديق النغم القديمة، واجهاتها مكسوة بالحديد والبلاط المشغول. يلزم القانون كل فيلا من الفيلات بوجود مدخنة، رغم عدم ارتباط المدخنة بأي شيء داخل البيت، أي أنها مجرد ديكور أو زينة. كان أصحاب هذه المباني ينتظرون المشتريين الذين لم يأتوا. وهل سيأتون؟ فالأسعار تبدو عالية جدا: بين خمسمائة وعشرين ألفا ومائتي ألف دولار، وليس هناك تدفئة، وبالطبع لا يوجد فرن، أو مدفأة - وفي الأغلب لا توجد مساحة أو فراغ في الخارج لإقامة حديقة. مع أن تلك المساحة التي تحدد ما إذا كانت تلك

المباني بالفعل فيلات قانونية، أو مجرد مساكن فقط وهذه لن تكون في حاجة إلى مداخن.
أتمنى أن تكون جميع أمورك على ما يرام، وأنتك سوف تجيب عن رسالتي.

(٣)

لقد اتخذت من كتابة الرسائل إليك هدفا منتظما إن لم يكن مستمرا، وذلك لإبقائك على اتصال بهذا الجزء من العالم الخارجي، فقد يساعدك هذا على رفع روحك المعنوية. من الواضح أن الطريقة الوحيدة لإعطائك فكرة عن حياتي هي بالنسبة إلي أن أكتب كل ما يخطر في رأسي. لأنه في الاختيار الواعي للمادة المضمنة ثمة احتمالية لفرض وجهة نظر، أو تحيز. أعتقد أن نهجي سوف يعطيك صورة أكثر دقة عن حياتي اليومية - على الأقل، ذلك الجزء منها الذي يعتل في داخل رأسي، وهو أهم جزء إلى حد بعيد.

لقد تخيلت كثيرا وجودي في وضعك الذي لا تحسد عليه في حالة حدوث حريق أو زلزال وعجزك عن النهوض هربا من سريرك ومحاولة الركض إلى مكان آمن. أو إذا كنت في كرسيك المتحرك، وانتفاء القدرة لديك على الذهاب به إلى أي مكان إلا إلى أول أو آخر طرقات المبنى. أعتقد أن هذا سيكون هاجسي وانشغالي الرئيسي، لكن مرة ثانية، ربما لن يكون هذا، نظرا إلى أن المرة لا يعيش في توقع دائم للحرائق والزلازل. لكن في وسعي أن أتصور نفسي مستلقيا في أثناء الليل وأنا مستيقظ وأتخيل

بالتفصيل ما الذي سيكون عليه الأمر إذا أصبت باختناق من أثر الدخان أو سقطت فجأة فوق الأرضية ودعامة خشبية فوق ساقَيّ وغبار الجص يصيبني بالاختناق. أمل ألا تعيش في مثل هذه التأملات، وأنا أشك - نوعا ما - في قيامك بهذا. يجب أن تصبح من الآن قدريا بدرجة كافية لتكون قادرا على أخذ جميع الظواهر الموضوعية كأمر مصاحبة لحالتك. إذا كانت هذه هي المسألة، فربما تكون ناجمة بشكل جزئي عن اضطرابك إلى العيش لمدة ثماني سنوات مع زوجة مستحيلة - نوع من التدريب على بلوغ حالة من القبول المطلق. خطر لي في الوقت نفسه أن الوجود المتواصل لامرأة مثل «بامبلا» قد فاقم بسهولة من التوتر الذي أفضى بها في النهاية إلى إصابتها بالسكتة الدماغية. لقد عانيت أنت بلا مبرر طوال تلك السنوات الثماني. كانت بامبلا عنصرية. كانت تشعر بأنها تتحرك على مستوى أرقى من مستواك، لأنها كانت على دراية بأن أجدادها كانوا يعيشون في ماساتشوسيتس منذ مائة سنة، بينما كان أجدادك يعيشون في منطقة مجهولة بعض الشيء في أوكرانيا. «لقد كنا هنا قبل الباقين، لذلك فإنها ملك لنا بالطبع، لكننا نحب وجودك معنا هنا، لأنه يجعل الحياة أكثر إمتاعا». هل أنا مخطئ، أم أن بامبلا كانت كذلك بالفعل؟ ألم تكن أنت على دراية تامة بالتناقض بين ما كانت تقوله والطريقة التي كانت تتصرف بها؟ بسبب هذا التبدل الكبير، لم أعد أتذكرها جيدا. أقصد أن وجهها يهرب مني؛ ولا أقدر على تخيل صورة لها. إنني على أي حال أتذكر صوتها بالفعل. كانت نبرته جميلة وسماعها ممتعا، باستثناء عندما كانت تغضب.

وكان هذا متوقعا: يتغير صوت المرء عن عمد ويتحرر منطلقا كوسيلة من وسائل تعبير المرء عما فيه من العاطفة. لكنني حتى الآن مضطر إلى السؤال: هل كانت بامبيلا تغضب؟ عندما أعيد مسترجعا الشريط الذهني الذي لدي عن الإفطار في «كويتو» في ذلك البهو الفسيفسائي لمحل الآيس كريم ذي الشرفة التي كانوا يقدمون فيها الطعام أسمع تلك العبارات الصارخة المجزأة الصادرة عنها، ليس بوصفها تعبيراً عن الضيق بل أوامر تصدر إلى شخص ذي مكانة ومنزلة. كان لتلك العبارات أثرها المرغوب: وهو أن تتكلم أنت في محاربتك، ولا تعود تتبس ببنت شفة. كان كل شيء يمضي بطريقة مبهجة مادامت ليست هناك مقاومة؛ وإلا كان يجب على الأوامر أن تصدر.

الحقيقة هي أنني لم أفكر فيها على الإطلاق طوال عقدين أو ثلاثة. فكرت فيها صباح اليوم فقط لأنني كنت أحاول، من خلال ما عرفته عن حياتك، أن أتخيل الأسباب الممكنة للإصابة الدماغية. أعترف بأنه بعد وقوع الحادثة هناك المجال لاهتمام أكاديمي بحت. فالقيام بالتحاليل والفحوصات لا يعالج المريض.

تذكرت بعدما استيقظت صباح اليوم أغنية سخيفة سمعتها عندما كنت طفلاً، وقت أن كانت تغنيها لي امرأة كان اسمها «إيثل روب».

أنا لا أعرف من كانت، لكن يمكن أن أتذكر أنها كانت تعمل مدرسة. صدمتني الكلمات لغرابتها الشديدة إلى درجة أنني حفظتها عن ظهر قلب.

IN DER VINTERTIME VEN DER VALLEY'S GREEN
AND DER VIND BLOWS ALONG DER VINDOWSILL
DEN DER VOMEN IN DER VAUDEVILLE
RIDE DER VELOCIPEDES AROUND DER VESTIBULE.

كان اللحن تنوعا على «أتش، دي ليبير أوغسطين». إنك لم تسمع الأغنية بالتأكيد، إنني أتساءل إن كان قد سمعها أحد في أي وقت، خارج دائرة معارف الأنسة روب. كانت أوائل العشرينيات من القرن الماضي هي فترة الأغنية العاطفية العبيثة السخيفة وخير الشواهد على ذلك: «آه وايم الحق»، «الأوجوبوجو»، «لينا كانت ملكة فلسطين»، «نعم. ليس لدينا موز»، «بارني جوجل»، والله أعلم ماذا أيضا. كانت هناك أيضا أغنية لـ «فاني برايس» تدعى «الوردة المستعملة»، تلك الأغنية التي أوقعني في مشكلة مع والدة مضيفتي عندما غنتها في حفلة هنا في الستينيات. لم تعر انتباها لـ «حتى البيانو في محل بابا يباع بدولار وعشرة سنتات»، لكن عندما وصلت «حتى أبي كوهن، ذلك الولد الذي أعشقه، كان من الجراءة والجسارة لكي يخبرني أنه كان متزوجا من قبل»، قفزت السيدة إلى أعلى وجرت إلى الطرف الآخر من القاعة حيث كنت أجلس. وأمسكت بوجهي بين إبهامها وأصابعها في إحكام وهصرته، وهي تصرخ قائلة: «حتى أنت يا بول بولز، حتى أنت؟» كان الأمر برمته مفاجئا جدا ودراميا إلى درجة أنني شعرت بارتكاب خطأ عظيم خارج عن العرف. لحسن الحظ أنه كان هناك ضيوف آخرون يعرفون الأغنية، وكان في استطاعتهم إقناعها بأنني لم أكن أرتجل الكلمات لأجل المناسبة، وعلى الرغم من ذلك لم تهدأ تماما.

أعتقد أن أهم ميزة مشتركة بيننا - على الرغم أنه من حقك أن تزعم أننا لا توجد لدينا نقاط مشتركة على الإطلاق - هي إيماننا الراسخ بأن العالم البشري قد دخل في فترة حاسمة ونهائية ولا رجعة عنها من التفكك والدمار، وأن هذا سوف ينتهي إلى حالة شديدة من العنف والفوضى بحيث تجعل من أي محاولات للحفاظ على السيطرة أو النظام عديمة الجدوى تماما. دائما ما كنت أجذك تدين بشدة وحدة انحلال وتفسخ الحضارة حتى أكثر مني. كان هذا بالطبع وقتما كان أسوأ ما أمكن لنا أن نتخيله هو الدمار بفعل حرب نووية. لكن الآن في إمكاننا تخيل الظروف التي قد يكون الموت المفاجئ كامنا خلفها عن طريق حريق محبب أو مرغوب للتحرر من جحيم الحياة، ربما ننتظر طويلا للإقدام على «قتل رحيم» عالمي عام. هل في استطاعتنا أن نأمل في حرب نووية - أقصد من الناحية الأخلاقية - أم أننا ممنوعون من الإخلاص فلا نتمكن استمرار الجنس البشري بغض النظر عما يتكبد من معاناة؟ استخدمت كلمة أخلاقية لأن الرغبات غير الأخلاقية تبدو لي مرتبطة بأحداث أو خلاصة نتائج خاطئة.

أهم ما يشغل بالي هو أنني بي رغبة شديدة في معرفة إن كان وجودك في حالة من الضعف والعجز قد غيّر من وجهة نظرك على أي حال من الأحوال. هل تركك هذا أكثر غضبا، أم أكثر استسلاما، أم غير مبال بشكل تام؟ على الرغم من أنك لم تكن كذلك أبدا، وتحت أي ظرف من الظروف، إلى درجة أنني أشك في احتمال حدوث مثل هذا التغيير الرئيسي في شخصيتك.

لديّ إحساس بأنك قد تعتبر هذه الأشياء مسألة شخصية تماما،
ونتيجة لذلك فقد تستاء من فضولي المتلهف هذا.

(٤)

في استطاعتي أن أدرك أنك لا تتذكر فعلا عطلة نهاية
الأسبوع التي أشرت إليها من قبل. ليس هناك شيء مخجل في
ما يتعلق بعدم مقدرتك على التذكر الدقيق، فحتى الآن، يبدو
بشكل مضاعف من سوء الحظ أنه كان يجب أن تحرم من التنقل
الداخلي والخارجي، أقصد حرية التجول في الماضي، لسبر أغوار
خزائن الذاكرة. أعرف أنه منذ أربعين سنة وأنت تقول إنك
لا تتذكر، نظرا إلى أن ثلاثتنا كنا في حالة سكر بين شديدة
ولا يمكن لأحد أن يتذكر تفاصيل تلك الرحلة الحمقاء. لكن لا أنا
ولا أنت كنا في حالة سكر عندما وصلنا إلى القرية وقد اضطررنا
إلى النزول من القطار لأن هذا كان آخر ما انتهوا من وضعه
من خط السكة الحديد. كان الوقت لا يزال نهارا، فعبّرنا النهر
فوق ذلك الجسر غير المكتمل لنصل إلى ما يطلق عليه فندق.
تتذكر بالتأكيد أنه لم يكن هناك شيء لاحتمائه سوى المسكل(*)؛
وظللت تقول إنه يبعث برائحة تشبه ورنيش الأثاث، وقد كان كذلك
بالفعل وفقما أتذكر. هل سبق لك شرب أي شيء مماثل له منذ
ذلك الحين؟ ويا لها من ليلة، بصحبة بارتولومي الجالس هناك
يسكر ويسكر وهو يقهقه ورأسه في حالة اهتياج شديد. وفي
إحدى اللحظات - فتش جديدا في ثايا ذاكرتك، يجب أن تتذكر

(*) المسكل: شراب مكسيكي يستقطر من أوراق نبات المسكل [المترجم].

هذا - انهارت شبكة الناموسية المعلقة أعلى السرير فوق رأسي إلى درجة أنني أصبحت ملفوفا في طيات الناموسية، وجعلني الغبار أعطس، وأشار إليّ باتولومي من فوق كرسيه بينما كنت أنا أجاهد، وأصرخ: «باريسيس النينو دياس!» (*) وضحكت أنت وهو طويلا بينما كنت أعطس وذراعاي تتخططان هنا وهناك بحثا عن مخرج، وأنا أحاول إيجاد فتحة في الشبكة. لم يكن هناك شيء يمكن عمله في ذلك الوقت سوى إرسال بارتولومي إلى الطابق السفلي لطلب زجاجة أخرى من «التهوكان» والاستمرار في احتساء شراب «المسكل». أعتقد أنه هو في النهاية من خلصني من الشبكة. أعترف بأنك كنت ثملا نوعا ما، لكن بالطبع ليس بدرجة تكفي لأن تخفق في القيام بأي شيء. كل ذلك كان عبارة عن مرح، وينتمي إلى الجانب الدائن في دفتر الحسابات. لكن كالعادة، كنت أنا أكثر إدراكا للتفاصيل غير السارة من دون النظر إلى جميع التفاصيل الممتعة. كان اليوم التالي أبديا لا نهاية له. كان من المؤلم أن نكون على متن تلك العربة العتيقة المقعقة لقطار صغير، وأنا أتطلع باشمئزاز إلى أميال من الصبار على السفوح الجافة من التلال. كانت كل رجة من القطار تضاعف من الدق في رأسي. نام بارتولومي. وبدا أنك لم تكن تعاني دوار الخمر، الذي كنت أشعر بسببه ببعض الألم المبرح، لكن وقتها، كنت أنت معتادا على الكحول ولم أكن أنا معتادا عليه. ونظرا إلى أنك تقول إنك لا تتذكر، فإنني أشعر بالوجود وحدي مع الذكرى؛ وربما أيضا أكون قد حلمت بها كلها.

(*) وردت بالإسبانية [المترجم].

أحيانا ما أشك فيك لمبالغتك في تحدثك عن عجزك عن تذكر الحاضر، ليس بالتأكيد لإثارة الشفقة، نظرا إلى أن ذلك لن يكون متفقا معك، وبالإضافة إلى ذلك، فإن الرغبة في المبالغة ربما تكون لا شعورية في أصلها. ومع ذلك، فأنت تؤكد وتشدد فعلا على وضعك البائس، إلى درجة لا تمكن الواحد من الحيلولة دون الشعور بالأسف عليك. لكن السؤال هو: لماذا تكتب بليتك أو محنتك بخط مائل؟ فإحساسي أن هذا ببساطة ليس من القسوة في شيء. أشعر بأنك تفكر وتقول لنفسك: أنا الآن في كرسي متحرك. هذا هو كل ما في الأمر، وهذا هو ما يرغب فيه العالم. بعبارة أخرى، لقد ألحقوا هذا بك.

وفقما أتذكر، أنت لست مغرما على وجه الخصوص بالحيوانات. لقد كنت أعتبر نفسي دائما من المولعين بالقطط على عكس محبي الكلاب. بدا لي أنه سيكون هناك وقت كاف في ما بعد للتصادق مع الكلاب. لكن في هذا المكان ليس هناك احتمال كبير لذلك. إنها تخرج في الليل في جماعات، وأحيانا ما تهاجم المارة في الشارع. ذات مرة طاردت ستة منها صديقا أمريكيا لمسافة ربع ميل على طول الطريق الجديد الذي يمتد من نهاية الجبل القديم إلى القطاع الجديد في دراديب. عندما يصبح كلب بعينه مقلقا للنوم بشكل مستمر فإنني ألجأ إلى تدابير حازمة اتبعتها مرتين. سيكون من الأفضل أن أصف هذه التدابير الحازمة، إنني على دراية، فبدلا من أن أدعك تعتقد أنني سممت الحيوانات. طبعا كان هذا هو أول شيء خطر لي، لكنني قررت التغلب عليه بسبب

المعاناة التي يسببها للحيوان. أيضا، الأعراض الناجمة عن الموت من سم الفئران - المنتج الوحيد الذي كان في إمكاني العثور عليه هنا - قديمة جدا ومحفوظة إلى درجة أن صاحب الحيوان سوف يشك على الفور في أن كلب الحراسة قد تسمم. طريقتي مع الكلب الأول، الذي اعتاد النباح طوال الليل في الحديقة المجاورة، استغرقت وقتا طويلا لكنها كانت فعالة. لقد تطلبت مني هذه الطريقة أن أظل مستيقظا حتى منتصف الليل لمدة أسبوع وأنا منتظر انقطاع الناس تماما عن السير في الشارع، ثم أمضي إلى المطبخ في نحو الواحدة والنصف وأعد نصف رطل من الهامبورجر النيئ. وفي إحدى الليالي بعد ذلك قمت بخلط الميليрил واللارجاكتيل باللحم، وفي الليلة التالية أقوم بطحن العديد من حبوب الأنافرانيل. وأظل أداوم على تبديل المخلوط حتى يقرر صاحب الكلب أنه قد أصبح كلبا مسعورا، ويطلق عليه النار. لم يكن هناك شيء من النباح بعد الليلة الأولى من العلاج. بدت هذه الطريقة أكثر الطرق إنسانية للتخلص من الحيوان.

في سنة أخرى وضعت كلبة مولودها في الجراج، الذي كان مفتوحا بشكل مستمر. هيا لها الخفير كرتونة لتنام عليها مع جرائها. وعندما كبرت جرائها، بقيت الكلبة في الجراج، بتشجيع من امرأة إثيوبية غريبة الأطوار كانت ترسل إليها خادماتها طوال الوقت بالطعام. وبمجرد إحساسها بأنها أصبحت في بيتها تماما في الجراج، بدأت تشترك في محادثات كثيرة مع أصدقاء لها في عين حياني ودراديب. شكوت هذا إلى عبد الواحد؛ فقد

اعتقدت أنه قد يكون عنده حل . كان عنده حل واحد بسيط .
التقط الكلبة ووضعها في شنطة السيارة . ومضينا بالسيارة
إلى «فوريه ديبلوماريك» ، عند حافة الشاطئ ، حيث كان هناك
مطعم يديره مغربي ولديه طاقم من الكلاب . قبل أن نخرجها
من الشنطة ، أدار عبد الواحد السيارة الموستانج إلى الجهة
المعاكسة ، ليكون متأهبا للإقلاع بها بسرعة . وقفت الكلبة لبرهة
على الشاطئ ، وقد تملكته الحيرة ؛ رأته الكلاب الأخرى وجاءت
لتقصي أمرها . بينما كانت الكلاب متحلقة من حولها انطلق عبد
الواحد ، وهرينا ، وعلى الرغم من ذلك فقد تمكنت من رؤيتها
وهي تجري خلف السيارة لمسافة كبيرة بينما كنا ننطلق عبر
الغابات . لم تكن غبية ، فبمجرد سماعها صوت المحرك دفعت
الكلاب الأخرى جانبا وأسرعت نحو السيارة .

لا بد من أن شيئا ما قد حدث للمغاربة . منذ خمسين سنة
كانت الكلاب ممقوتة عندهم . فقط المغاربة الذين كانوا يعيشون
في الريف هم من كانوا يمتلكونها . فقد كان من القذارة الشديدة
أن تعيش في المدينة . لكنهم لاحظوا بطريقة ما أن معظم
النساء الفرنسيات تقريبا كن يمشين في الشارع وبصحبتهم
كلاب مربوطة ، وبالتدريج بدأوا في تقليدهن . في البداية كان
الأولاد يقودون كلابا مهجنة ، يربطونها بحبال محكمة حول
رقابها . أصبحت النساء الفرنسيات اللاتي كن يمررن في الشارع
مستاءات ، وكن يصحن : «يا لهذا الكلب المسكين ! سوف يختنق !» (*)
الآن أصبح لدى كل طفل مغربي في المناطق المجاورة كلب يمتلكه

(*) وردت بالفرنسية [المترجم].

ويشفق عليه . معظمها كلاب رعي ألمانية، يعتقد الآباء أنها توفر نوعاً أفضل من الحماية.

لا يمكن التنبؤ بسلوك الفرنسيين. الشهر الماضي كان هناك مصور فوتوغرافي يلتقط الصور لمصلحة صحيفة «ليبراسيون». الشيء الوحيد الذي أثاره وحرك انتباهه للتعب من المفاجأة كان حجم جرة زبدة فول سوداني مملوءة بحبوب الطيور. هل هذا جدير بالتصديق؟ أراد أن يعرف، هل يبيعون فعلاً مثل هذه الجرار من زبدة الفول السوداني؟ عندما قلت له «نعم»، لم أكن متأكداً من أنه لم يرتب في كلامه ظناً منه أنني أوقعه في شرك، لأنني رأيته يذهب إلى الطرف الآخر من الحجرة ليتفحص الجرة بعناية. أتمنى لك السعادة في عيد الميلاد المجيد.

(٥)

أرسل لي شخص ما علبة شوكولاته أمريكية بالكريمة في الأسبوع الماضي. على غطائها كتبت الكلمات التالية «صناعة منزلية». وعلى الناحية الأخرى من الغطاء نفسه قائمة المكونات الداخلة فيها. كان من بين هذه المكونات: سكر، زيوت نباتية مهدرجة جزئياً، سوربيتول، ليسيثين، هيدروكسي تولووين بالبوتيلين، هيدروكسي أنيسول بالبوتيلين، بروبيل جاليت، سوربيت البوتاسيوم، ثاني أكسيد الكبريت وبنزوات الصوديوم. ليس من المحتمل حتى لدى أكثر البيوت عصرية أن تكون في مطابخها كل هذه الأصناف الترفيحية. على الرغم من أنني لم يتسن لي تناول طعام في مطبخ أمريكي منذ عدة سنوات، لكنني

أعرف أنهم ميالون أكثر وأكثر إلى أن تبدو مطابخهم مثل المعامل.
ربما أصبحت لديهم الآن دواليب تخزين كيميائية تحتوي على كل
شيء بدءاً من ترثيلين جليكول الإيثيلين وانتهاءً بميتوكلوبراميد.
كانت المطابخ في البيوت الريفية في زمن الحرب العالمية
الأولى لا تبعث على الراحة والسرور هي الأخرى، وفقما
أتذكر، على الرغم من كل الدعاية التي تتحدث عن هذه
المطابخ بشكل رومانسي. كانت هناك دائماً روائح مختلطة
من اللبن الفاسد، والشبث والحديد تبعث من مياه الآبار.
واللوايب الورقية اللاصقة المخصصة كمصائد للذباب مدلاة
من كل ركن وخطاف، والذباب لا يزال يئز في جميع الجهات،
وإذا كانت هناك كلاب، فإنها تبعث برائحة. وإذا كان هناك
أطفال، فستبعث منهم رائحة. كان من غير المعقول أن نتصور
أن الناس الجادين يرغبون في العيش بهذه الطريقة. ما الذي
أصابهم؟ لا شيء. إنهم فقط لا يعرفون شيئاً أفضل، هذا
كل ما في الأمر. لم ترضني هذه الإجابة أبداً. إنها تنطوي
بداهة على معيار مزدوج إلى درجة جعلت من المستحيل على
أبي وأمي أن يتغاضيا عن نقائص هؤلاء الناس. بل إنهما لم
يسامحاني أبداً على جهلي بما كان يجب عليّ معرفته، وكانت
القسوة تستعمل ضدي على وجه التحديد لأنني لم أكن صبياً
مزارعاً. منذ سبعين عاماً كان يوجد هناك اختلاف طبقي
بين هؤلاء الذين نشأوا في المدينة وهؤلاء الذين كبروا في
المزرعة. الآن يبدو أن هناك اختلافاً ضئيلاً جداً. كان مفهوم
الطبقة قد دُمّر بحذر وعناية. إما أنك تمتلك، أو، لا تمتلك.

نتيجة الديمقراطية، على ما أظن، عندما أسيء فهم معنى الديمقراطية على أنها التشابه بدلا من المساواة.

لم يكن في إمكانك أن تعرف فندق باريس النموذجي الصغير والمتوسط في أسعاره في سنوات العشرينيات - بحلول الوقت الذي كنت قد وصلت أنت فيه إلى باريس، بعد الحرب العالمية الثانية، كانت الأمور قد تغيرت نوعا ما - كانت هناك ثلاث أو أربع حجرات فقط في كل طابق، وكانت السلالم والممرات مفروشة عن آخرها والنوافذ محجوبة بوساطة مجموعات من الستائر. كان هناك في العادة مصدران للإضاءة في الحجرة، أحدهما مدلى من منتصف السقف والآخر فوق مقدمة السرير. كلاهما كان مثبتا بنظام البكرات المتحركة، حتى يتسنى تحريكهما إلى أعلى وإلى أسفل وفقا لمتطلبات اللحظة. وكان ورق الحائط غامقا دائما ذا خطوط ملونة عريضة ربما كانت في يوم من الأيام ذات ألوان صارخة، على الرغم من أنه ليس هناك طريق لمعرفة ذلك، نظرا إلى أن طبقات التقادم التي علتها منذ فترة طويلة جعلتها ذات لون داكن. كان من السهل أن تشعر بأنك محاط بغلاف محكم عليك ومحمي في تلك الحجرات، وكثيرا ما أحلم بها حتى الآن. ولكن مثل هذه الأحلام لا تبعث على السرور، نظرا إلى أنني دائما ما كنت أبدو على وشك الاضطرار إلى المغادرة للسماح لشخص آخر بالانتقال إليها. على الأقل، لم يكن هناك حلم يخلو من هذا القلق اللاشعوري.

بالمناسبة، لا يوجد لديك سبب لتوبيخي على عدم إبداء ردود أفعال معينة خاصة بي تجاه أحدث قصة مأساوية من قصصك.

فمثل هذه الردود يمكن أن تكون عاطفية فقط من حيث المحتوى، وليس هناك مغزى على الإطلاق في التعبير عن العواطف بكلمات، فذلك هو ما يبدو لي. ومع ذلك أؤكد لك، أنني قد عانيت من إحساس عميق بالإحباط عندما قرأت خطابك وأنتي أدركت أنك كنت تعاني مزيدا من العذاب، وأعتقد أنني قد نقلت إليك هذا الانطباع في وقت سابق.

ربما تتذكر - على الرغم من أنك قد لا تتذكر، نظرا إلى أنك لم تفتح من قبل كتابا مكتوبا في قرننا لتطالعه - عبارة وردت على لسان كاستور في الغثيان: «أنا نجوت»(*)، وقد ترجمت بشكل سيئ ومن دون براعة في الطبعة الأمريكية بـ «أنا أعمر»، أفهم إحساس كاستور لأنه وحيد هنا بنجاته؛ إنه إحساس ليس مخالفا لإحساسي، لكنني سأعبر عنه بقولي: «حياتي تشرق بعد الوفاة»(**). هل تفهم شيئا من هذا؟

كنت قد تمنيت دائما أن يعيد شخص ما صياغة نهاية «هكليري فين»(***)، محولا إياها عن المشاهد الختامية الهزلية التي ربما أقحمها توين بتأثير من موجة الاندفاع العاطفي في فكرة الكتاب المكتمل تقريبا كضرورة إذا كان المطلوب أن يحظى العمل بالتقدير من جانب القراء الأمريكيين. إنها الرواية الأمريكية العظيمة، التي دمرت بلا أمل في إصلاح بسبب مؤلفها عديم الحساسية غير الحضيف. سأكون مهتما بمعرفة رأيك، أم أنك تشعر بأن الكتاب لا يستحق إبداء الرأي في ما يتعلق بمحتواه،

(*) وردت بالفرنسية [المترجم].

(**) وردت بالفرنسية [المترجم].

(***) مغامرات هكليري فين (١٨٨٤) رواية للكاتب مارك توين [المترجم].

نظرا إلى أن ترفيع تحفة أدبية غير متقنة لا يعد تحفة أدبية على الإطلاق؟ بل وفوق ذلك سيكون تزويرا للأسلوب بشكل ناجح، إلى حد جعل الفراغات والفواصل تلفيقية، والنثر الذي سيعقبها سيكون بشكل إقناعي استمرارا لما سبقها، مهمة تبدو مستحيلة. لذلك فإنني لن أحاول تجربتها بنفسي.

أعتقد أن من علامات الشيخوخة التي تدب وتزحف تقلص مدى الاهتمام والانتباه، والذي يصيبني على هيئة نكوص أو ارتداد إلى مرحلة الطفولة. سوف نرى.

(٦)

لم آت على ذكر العداء الذي كنت قد أشرت إليه في خطاباتك لأنني افترضت أنه كان موجها إلى العالم بصفة عامة، وليس موجها إلى شخصي. الآن أرى، كم كنت مخطئا. في البداية أخبرتني أن خطاباتي مطلقة العنان وعلى سجيتها. وقد تجاوزت عن هذا، كان مجرد نقد لطريقتي. لكنني لن أغض الطرف عن كلمة «شماتة». ونظرا إلى ذلك، أدركت أنني كنت سأحسن صنعا لو اقتصر خطاباتي على بطاقة واحدة عند الضرورة مكتوب عليها «تمنيتي لك بالشفاء العاجل»، وأن أدع الأمر ينحصر في ذلك.

يبدو لي أنه خلال هذه الفترة النهائية من حياتك سيكون من المريح والمجدي التوقف عن تغذية ميولك المستعذبة للألم. يمكنني أن أرى أنك لا تشعر بهذا على الإطلاق، وأنت على العكس تعتزم الاستمرار في إطلاق العنان لها تماما. هذا سيئ

جدا . من الواضح أنه لا يوجد هناك شيء يمكنني القيام به من هنا لمساعدتك، لذلك ربما أتجاهل الأمر أيضا . لكن بينما أنت غارق في عدمك المفروض ذاتيا، أتمنى أن تتذكر - ولن تتذكر - أنني قمت بهذه المحاولة البسيطة التي لا طائل من ورائها لمساعدتك لكي تبقى إنسانا .

«مادام ليس هناك عالم آخر»(*)، كما اعتادت روزا لوبيز أن تقول .

(*) وردت بالإسبانية [المترجم] .

المترجم

فج

سطور

أ. محمد هاشم عيد السلام

- روائي ومترجم.
- من مواليد العام ١٩٧٥.
- حاصل على بكالوريوس علوم الحاسب الآلي العام ١٩٩٦.
- له عدة كتب منشورة، مثل:
قشرة زائلة (رواية - ٢٠٠٠)، بيت المرايا (رواية - ٢٠٠٢)، محاورات مع أعلام
السينما الأوروبية - ٢٠٠٦. كما أن له كثيرا من الكتب قيد الطبع والنشر.
- له كثير من المقالات والترجمات والتصوصل الإبداعية المنشورة في الصحف
والمجلات.

د. سليمان خالد الرياح

- من مواليد الكويت العام ١٩٥٢.
- حاصل على شهادة البكالوريوس - في الآداب - قسم اللغة الإنجليزية وآدابها
العام ١٩٧٥. وعلى شهادة الماجستير في تخصص اللغة الإنجليزية - كلفة
أجنبية العام ١٩٩٠.
- حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة ولاية أوهايو في كولومبوس، في
تدريس اللغة الإنجليزية كلفة أجنبية العام ٢٠٠٢.
- شغل عضوية كثير من اللجان العلمية وغيرها.
- يعمل حاليا أستاذا مساعدا في قسم اللغة الإنجليزية في الهيئة العامة
للتعليم التطبيقي، ويشغل منصب رئيس وحدة اللغة الإنجليزية في كلية التربية
الأساسية.
- راجع لسلسلة إبداعات عالمية، رواية «الشباب»، العدد ٣٥٦، أكتوبر ٢٠٠٥.

العراجم

فج

سطور

الفهرس

5 مقدمة المراجع
8 أنت لست أنا
23 اليوم الرابع بعد مغادرة سانتا كروز
35 حقول صقيعية
68 تابياما
98 الضبع
104 زمن الصداقة
158 بعد الظهيرة مع أنتيوس
166 مجذوب
175 علال
193 العين
208 في الغرفة الحمراء
224 كلمات غير محببة

العقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني)

يعد بول بولز كاتباً متميزاً، غزير الإنتاج، وما هذه المجموعة - والجزء الأول منها الصادر في العدد الماضي من هذه السلسلة - سوى النزر اليسير من إنتاجه القصصي. ومن الملاحظ أن الكاتب يميل في كتاباته إلى أسلوب الحوار بدلاً من أسلوب السرد الممل. وإن كان يبدو أن بولز يلجأ إلى الرمز في أحيان قليلة، كما هي الحال في قصة «الضبع». كما تتسم كتابات بولز باستخدام كثير من الألفاظ والتعابير العربية والإسبانية والفرنسية في قصصه، وبعضها باللهجات الدارجة، حيث إن أحداثها تقع في بلاد ومناطق مختلفة - في المغرب والصحراء الكبرى وأفريقيا وأمريكا الوسطى والجنوبية - (باستثناء قصة «في الغرفة الحمراء» التي تدور أحداثها في سريلانكا). وهذا يدل على كثرة أسفاره واحتكاكه بثقافات متعددة تنعكس في قصصه. ومن الأمثلة على هذا الحوار قصة «زمن الصداقة»، إذ تمثل الثقافة الغربية فيها «الأنسة ويندلينج»، بينما يمثل الثقافة العربية «سليمان» و«بوفيلجا».

أبطال قصص بولز شخصيات بسيطة ومن واقع الحياة، وبعضها يحمل أسماء عربية مثل «علال»، وهناك قصة تحمل اسماً عربياً وهو «مجنوب»، وهي بالطبع تعبر عن ثقافة عربية، مثل القصتين السابقتين الإشارة إليهما. أما الشخصيات الأخرى غير العربية، مثل «رامون» في قصة «اليوم الرابع بعد مغادرة سانتا كروز»، فهي تعبر عن قيم وأفكار وتقاليد غربية، وإذا التقت بشخصيات أجنبية بالنسبة إليها فمن الطبيعي أن يحدث احتكاك بين ثقافتين وحضارتين وقيم وتقاليد متباينة. تتناول قصص بولز تفاصيل الحياة اليومية في المدينة أو المنطقة أو البيئة التي تقع فيها الأحداث، مع وصف دقيق وشامل لها وذكر أسماء الأماكن وما يميزها من معالم جغرافية.